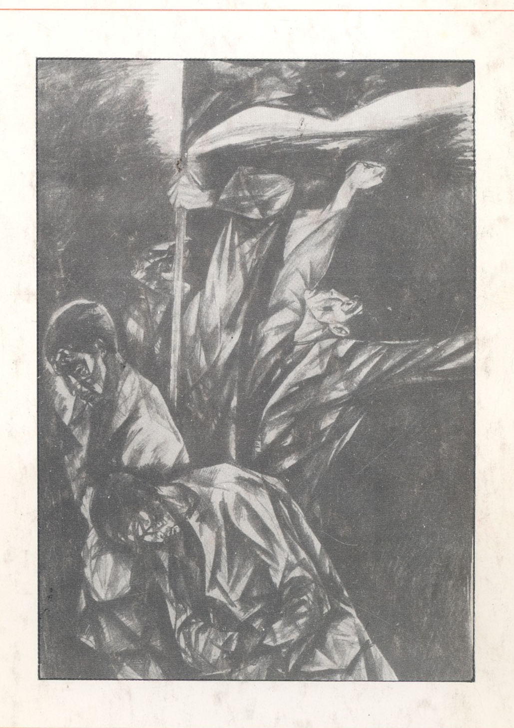
الثقافة الجديدة



219





مجلة شهرية يصدرها الحزب الشيوعي العراقي

219

العدد 5 السنة 37 آذار 1990

■ موقفنا :

4 ـ عيدنا حافز للتجديد
7 ـ نداء من اجل الديمقراطية في العراق . . . .
11 ـ ليتوقف تدفق اليهود السوفييت الى فلسطين . . . .

■ مقابلات

14 ـ الانعطاف الى الديمقراطية في الاردن
الخلفية، الواقع، الآفاق . . . . لقاء مع الرفيق يعقوب زيادين
19 ـ ضرورة التجديد . . . . لقاء مع الرفيق فخري كريم

■ آراء ومناقشات

46 ـ المركزية الديمقراطية والحياة الحزبية الداخلية . . . . د. حميد بخش

■ عالم راهن

53 ـ رؤية جديدة لدور الشيوعيين في «العالم الثالث» . . . . احمد دانسوكو

■ كتب

68 ـ البحث عن السعادة وخلفاء بلا خلافة . . . . اغناتينكو
عرض: د. ميثم الجنابي
84 ـ الدوغمائية / سحر العبودية . . . . خوان غرفا سيو باز

■ طاولة مستديرة

89 ـ الشيوعية الاوربية : ايجابيات التجربة التاريخية وسلبياتها . . . .

■ ادب وفن

108 ـ غوركي وبولغاكوف . . . . عبد الكريم كاصد

111 ـ عبادة الشخصية : اختلال عقليّ . . . . فاديم بارانوف
ترجمة : فاضل السلطاني

117 ـ مكسيم غوركي . . . قارئاً . . . . فالنتينا اسمولوف
ترجمة : د. رزاق عبود

123 ـ غائب طعمة فرمان يقدم لرباعية أبو كاطع . . . .

127 ـ ليالي السيد سلمان الطويلة / قصة قصيرة . . . . كريم عبد

136 ـ صهيل الأصابع / شعر شعبي . . . . عزيز السماوي

143 ـ احنه محنتنه عشكنه/ شعر شعبي . . . . جاسم ولائي

145 ـ توحدات في جبهة العشق/ شعر . . . . خالد أبو فارس

152 ـ نصوص . . . .

■ وثائق

الغلاف الاول : للفنان محمود صبري

الغلاف الاخير: ملصق للفنان علي عساف

عيدنا حافز للتجديد

في العيد السادس والخمسين لحزبنا نتذكر بالاجلال والعرفان اولئك الذين بنوه من أجل «وطن حر وشعب سعيد»، نتذكر رفيقنا فهد وصحبه الذين أرسوا الاساس، وكانوا للسائرين على خطاهم قدوةَ الابداع والجَلَد والفداء.

ما أحوجنا إلى استلهام عزيمتهم وعطائهم إذ نواصل السير على دربهم الشاق نحو خلاص الوطن من عواقب اعوام «الحرب الخارجية» الثمانية ومن اخطار تجددها، فيما نقاوم «الحرب الداخلية» التي عمرها بعمر النظام حتى تزول إلى الأبد.

وليس اصدق وفاءً لرسالة المؤسسين، ومريديهم في العطاء الخلاق والشهادة، من سعينا الجاد لتوفير متطلبات التحويل الذي حلموا به، من فهمنا العميق للواقع الذي نصبو إلى تحويله، والتشخيص الدقيق لمسار هذا التحويل وآفاقه، ومثابرة العمل على حشد القوى ذات المصلحة في انجازه. ولن يكون حزبنا أهلاً لهذه المهمة العظيمة ما لم يجدّد نفسه، وفقاً للمنهج الماركسي، على كل صعيد.

واسهاماً في التجديد المنشود على الصعيد الفكري بادرت مجلتنا إلى فتح الباب على مصراعيه أمام الحوار. فدعونا ليس فقط رفاق حزبنا واصدقاءه، بل كذلك منتسبي التيارات الأخرى، إلى طرح الآراء بشأن جميع قضايا النضال من أجل خلاص شعبنا وتقدمه. فذلك هو السبيل إلى الحقيقة، إلى الاساس الذي تقوم عليه أية سياسة ناجعة للخلاص والتقدم.

ولكي يكون الحوار مثمراً لابد ان يتفاعل مع الغليان الفكري الذي تعيشه الحركات الثورية في عالم يشهد تحولاً جارفاً نحو الديمقراطية وإعلاء حقوق الانسان.

إن هذا التحول يمنحنا زخماً معنوياً وزاداً فكرياً هائلين في نضالنا من أجل حرية الفكر والتعبير، من أجل التعددية السياسية، من أجل حقوق الانسان. فالديمقراطية لا تمثل الاطار الانسب للنضال من أجل سعادة الانسان فحسب، بل هي كذلك من مقومات هذه السعادة. فحرمان الانسان من المساهمة النشيطة في تقرير مصيره يُورث الاستلاب ويُفقر الحياة، هذا فضلاً عن كل الشرور المرافقة للاستبداد.

في تموز ١٩٣٥ اصدر حزبنا الفتي (كفاح الشعب) وهي أول صحيفة في تاريخ الحركة الثورية العراقية تصدر في السر لغياب الديمقراطية. ومن أبرز اهداف الحزب، التي تصدرت عددها الأول، اطلاق الحريات الديمقراطية وحل مجلس النواب واجراء انتخابات حرة. ومن أجل حرية الشعب وسعادته استشهد وعانى السجن والتعذيب والحرمان والغربة آلاف مؤلفة من رفاقنا وانصارنا على ايدي اعداء الحرية والديمقراطية، ولاسيما الطغمة الحاكمة في الوقت الحاضر.

ليس في عالم اليوم مثيل للبطش الذي تمارسه هذه الطغمة لادامة بقائها في السلطة. وهي تزاوج البطش مع التضليل فتزعم ان الحزب الذي تحكم باسمه يمتلك، دون غيره، صواب النظرية والتطبيق. ومن هذا الزعم تستمد مشروعية احتكار السلطة باسمه.

ان آخر صيغ التضليل بشأن حزبنا، على سبيل المثال، زعمها انه سينتهي، هذه المرة، لأن حكم الاحزاب الشيوعية في شرق اوربا ينهار، ويثبت بطلان الشيوعية نظرياً بفشل الممارسة. فعلى غرار بقية اعداء الشيوعية، تحاول الطغمة تحميل الشيوعية اوزار تلك الممارسة التي استندت إلى الحزب الواحد وغياب حرية الرأي والتعبير والانتماء. وإذ يدين الشيوعيون تلك التشويهات المنافية لجوهر الاشتراكية، والتي اساءت لمثل وقيم الشيوعية، فان طغمة صدام تزداد تشبثاً بوحدانية حزبها، وبحرمان الشعب من حرية الرأي والتعبير، وبالتنكيل الوحشي الذي تصبّه على قوى المعارضة.

غير ان هذه المعارضة باقية، وهي تتراكم، حتى داخل حزب السلطة، جراء ما الحق الاستبداد بشعبنا من كوارث. وازاء ذلك يتراكم خوف الطغمة من الديمقراطية. فهي تدرك ان ارخاء قبضة الارهاب سيفجّر السخط المكبوت. أما الديمقراطية، بما تعني من حياة دستورية، وسيادة القانون، واستقلال السلطات الثلاث، وحرية الرأي والتعبير، وتعددية حزبية، وبرلمان حقيقي، فانها بعيدة حتى عن خيالها. فمن غير المعقول ان تقبل الطغمة بالخضوع إلى المساءلة والتغيير، ناهيك عن العقاب، وهي المسؤولة مباشرة عن

كوارث الحربين، الخارجية والداخلية، بما في ذلك مجزرة حلبجة ـ هيروشيما كردستان ـ التي تمر ذكراها الثانية في هذا الشهر. لكل ذلك يدرك شعبنا زيف وعودها بالديمقراطية.

لكن التيار الجارف نحو الديمقراطية يزيد دكتاتورية بغداد نشازاً في عالم اليوم، بل حتى داخل الحلف الرباعي الذي احتفلت مؤخراً بمرور سنة على تأسيسه. واطرف محاولاتها الأخيرة لتزويق وجهها انها سربت إلى احدى الصحف العربية محضر المناقشات التي اجرتها قيادة النظام لمسألة الدستور والتعددية. فاذا بهذه المناقشات لا تتمخض سوى عن فأر بائس: تعددية تحت «خيمة الحزب والثورة» ينوء بها عراقنا حتى نهاية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين.

بيد ان الشعوب هي التي فرضت الديمقراطية. وآخر انتصاراتها تحقق في دولة الابرتايد، حيث تغلبت التعددية وخرج مانديلا من سجنه الطويل ظافراً. وعند حدودنا الجنوبية تنشط حركة شعبية عارمة للمطالبة بعودة الحياة البرلمانية إلى الكويت.

لا مبالغة في القول ان شعبنا ليس أقل تعطشاً إلى الحرية، لكنه يواجه ارهاباً أشمل وأقسى. فثمة حاجة لعامل استثنائي يدفعه إلى كسر الخوف من بطش الدكتاتورية. ويمكن لقوى المعارضة ان توفر هذا المحرّك الاستثنائي حين تبرهن بالممارسة الفعلية على انها قد ادركت بان الديمقراطية السياسية هي سبيل العراق الوحيد إلى حياة طبيعية، ناهيك عن تقدمه،وبرهان هذا الادراك لا يكون إلا اذا وحّدت جهودها، رغم تعدد التيارات والتنظيمات، لاستنهاض التحرك الجماهيري وقيادته نحو حياة ديمقراطية. فانعطافها بهذا الاتجاه يحيي الأمل لدى الناس بان هناك بديلاً للدكتاتورية التي ثابرت على وأد كل أمل بزوالها.

ليكن عيد حزبنا حافزاً اضافياً لتطوير كفاءته ودوره في حشد طاقات كل اعداء الدكتاتورية، مستلهمين الشعار الذي صاغه الشهيد فهد لمؤتمرنا الوطني الأول عام ١٩٤٥: **«قووا تنظيم حزبكم الشيوعي، قووا تنظيم الحركة الوطنية».**

وختاماً لنتذكر البند الأول من وصايا الحزب لرفاقه كما سطّرها النظام الداخلي الذي اقره ذلك المؤتمر:

«ايها الرفيق، أحب شعبك ووطنك، وكن في مقدمة المناضلين من أجل حريتهما وعزّهما، وليكن لك ايمان راسخ بقدرة شعبك على تحرير نفسه وانبعاثه، والسير مع طليعة الشعوب الحرة، والمساهمة واياها في تشييد حضارة انسانية حقاً».



نداء

يا ابناء شعبنا العظيم

لقد عانى شعبنا العراقي، منذ القديم، ومايزال يعاني من التعسف والاضطهاد، ومصادرة الحريات الانسانية، وضياع ابسط حقوق الانسان، وزج ابنائه في السجون والمعتقلات من دون محاكمة، واعدام المعتقلين من معارضي السلطة من علماء الدين والمفكرين والساسة بصورة سرية، وتصفية بعضهم جسدياً وتحكم هذه السلطة بمصائر ابناء العراق وتهجيرهم عن وطنهم بعد سلب ممتلكاتهم ومصادرة مستمسكاتهم القانونية، واخيراً زج العراق بكارثة الحرب الطاحنة التي كلفت الشعبين الجارين مئات الالوف من القتلى والجرحى والمعوقين والاسرى والمشردين ودمار الاقتصاد الوطني في البلدين ومازالت حالة الحرب قائمة وتهدد بانفجار القتال من جديد.

وبلغت استهانة السلطة بحقوق الانسان ان تضرب ابناء الشعب في شمال الوطن وجنوبه بأفظع الاسلحة الكيمياوية الفتاكة وقد جرى ذلك كله امام مسمع العالم وبصره وبأمر من مالك السلطة، كل السلطة،وتوجيهاته.

من اجل ايقاف ذلك تنادت نُخبة من ابناء الوطن من مختلف الاتجاهات السياسية والثقافية للدعوة الى المطالبة بحقوق الانسان في العراق ووضع هذه المطالب امام الرأي العام العراقي والعالمي وفي متناول المنظمات الدولية والمؤسسات البرلمانية والانسانية في شرق العالم وغربه، وبخاصة السكرتارية العامة للامم المتحدة، ولجنة الدفاع عن حقوق الانسان ومنظمة العفو الدولي والامانة العامة لجامعة الدول العربية، لتقوم هذه المنظمات والمؤسسات بواجباتها في نصرة هذا الشعب الذي طال انتظاره لتحرك الضمير العالمي للضغط على هذه الفئة المتسلطة على شعبنا العراقي اسوة بالدعم العالمي لتحرك الشعوب نحو الديمقراطية في الاقطار الاخرى.

يا ابناء شعبنا العظيم

ندعوكم باخلاص للتكاتف حول هذه المطالب الحيوية التي هي الاساس المحكم لاعادة بناء وطننا، ولا شك بان السلطة العراقية ستحاول بشكل أو بآخر استغفال الرأي

العام العراقي والعالمي بسن قوانين جديدة للصحافة والبرلمانية واصطناع تعددية لاحزاب لا وجود لها خارج هيمنة (الحزب القائد)، ونحن واثقون ان ذلك ما هو إلا التفاف حول الدعوات الضاغطة من شعبنا المضطهد وما يجري في انحاء العالم من احداث قلبت موازين النظم الدكتاتورية المشابهة. واملنا وطيد بوعي شعبنا في الداخل والخارج في التصدي لكشف زيف هذه الخطوات والتمسك بمطاليبهم المشروعة والتعبير عنها بمختلف الوسائل.

ان شعبنا يطمح في صيغة متحضرة للحكم تعبر عن المفاهيم الاصيلة في تراثنا وعن قيم العصر السياسية. وان استمرار تمركز السلطة، كل السلطة، في يد فرد واحد وبقائه على رأس الحكم لا ينفي المصداقية عن أية اجراءات وقوانين فحسب، بل يتنافى ايضاً مع مفهوم الحكم الدستوري.

ان المقدمات الممهدة لحكم دستوري ودولة القانون تتركز في:

١ - اطلاق الحريات الديمقراطية بما فيها حرية الصحافة وحرية التنظيم الحزبي والنقابي وحرية التجمعات والتظاهرات والاضرابات.

٢ - اطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين من مختلف الاتجاهات واعادتهم الى وظائفهم ومصادر عيشهم.

٣ - اعادة جميع المهجرين من ابناء الوطن وتعويضهم عن بيوتهم وممتلكاتهم التي صادرتها السلطة الحاكمة.

٤ - الغاء المؤسسات القمعية كالامن والمخابرات والاجهزة السرية الاخرى واعادة الاعتبار للقضاء واستقلاليته ومحاكمة مرتكبي الجرائم بحق شعبنا المضطهد من مسؤولي هذه المؤسسات واستبدالها بمؤسسات تهتم بأمن الوطن وسلامته وليس بملاحقة ابناء الشعب.

٥ - الغاء نظام «الحزب القائد» ومجلس قيادة الثورة والمجلس الوطني وتشكيل حكومة وطنية محايدة تكون مهمتها اجراء انتخابات حرة نزيهة لمجلس نيابي يقوم بسن دستور دائم للبلاد يراعى فيه مبدأ الفصل بين السلطات الثلاث، ويقر بالتعددية الحزبية وتداول السلطة وتحريم احتكارها، ويكفل حرية المواطن وسيادة القانون، ويحمي الشعب العراقي من التمييز الطائفي والعنصري والسياسي.

٦ - الاعتراف الكامل بحقوق الشعب الكردي ضمن الوحدة العراقية وتمكينه من الحكم الذاتي الحقيقي طبقاً لما اختاره ابناؤه في بيان ١١ آذار.

٧ - احترام حرية الفكر والعقيدة وتهيئة الفرص لكل مواطن بغض النظر عن انتمائه

السياسي أو الديني أو المذهبي أو العرقي في ان يكون لبنة صالحة في بناء مستقبل عراقي مشرف.

٨ ـ تثبيت خيار السلم، وانهاء حالة الحرب مع ايران بتطبيق قرار مجلس الامن رقم ٥٩٨ وحل جميع المشاكل مع جمهورية ايران الاسلامية بروح الاخوة. والمفاوضات، وحسن الجوار بما يضمن تحالف الشعبين ويصون مصالح العراق الوطنية وسيادته.

٩ ـ تحرير القوات المسلحة من سيطرة الحزب الواحد، واعادة تنظيمها وتدريبها على ضوء الثوابت الوطنية والقومية واولويات الصراع في المنطقة، لتقوم بدورها المشرف في التصدي لاعداء العراق والامة العربية.

١٠ ـ العمل على اجتثاث سياسة النهب والتبذير التي تمارسها السلطة واقرباؤها وازلامها. والتصدي لسياسة اعادة رهن الاقتصاد العراقي عموماً والنفط خصوصاً للشركات الاحتكارية العالمية، واتباع سياسة اقتصادية وطنية ونهج تنموي مستقل.

الموقعون
(حسب الترتيب الابجدي)

احمد الحبوبي
د. احمد الجلبي
ابراهيم احمد
د. تحسين معلة
جلال الطالباني
اللواء حسن مصطفى النقيب
د. حسن الجلبي
د. رحيم عجينة
رسول مامند
سليم الفخري
سامي عبد الرحمن
صالح دكلة

د . صاحب الحكيم
عزيز محمد
عبد الرزاق الصافي
علي عبدالله
عمر مصطفى
د . فائق بطي

فلك الدين كاكائي
د . ليث كبة
مسعود البارزاني
د . مصطفى جمال الدين
د . مبدر الويس
السيد محمد بحر العلوم
محمد رشاد الشيخ راضي
د . محمود عثمان
هاني الفكيكي

صورة منه الى :
مكتب السكرتير العام للامم المتحدة ـ نيويورك .
لجنة حقوق الانسان (الامم المتحدة) ـ جنيف .
المنظمة العربية لحقوق الانسان ـ القاهرة .
الامانة العامة لجامعة الدول العربية ـ تونس
لجنة متابعة حقوق الانسان ـ نيويورك .
ملوك ورؤساء الدول العربية والعالم .
البرلمانات العالمية ـ الصحف العالمية والعربية .



ليتوقف تدفق اليهود السوفييت الى فلسطين

في مقر دائرة العلاقات السياسية للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين عقد مندوبو (٢٧) حزباً ومنظمة اجتماعاً خاصاً لمناقشة موضوع هجرة اليهود السوفييت الى فلسطين.

وقد قدم الرفيق ابو ماهر اليماني عضو المكتب السياسي للجبهة مسؤول الدائرة مداخلة تحدث فيها عن الهجرة واثرها على القضية الفلسطينية وقضية السلام في المنطقة، كما تحدث عدد من الحضور الذين اكدوا على خطورة هذا الموضوع وضرورة التحرك لايجاد الحلول لها من موقع الحرص على تعميق الصداقة مع الاتحاد السوفييتي.

وقد اتفق المجتمعون على الخطوات التالية:

١ ـ تشكيل لجنة لمتابعة هذا الموضوع من الرفاق مندوبي الاحزاب والتنظيمات التالية ـ الحزب الشيوعي السوري بجناحيه، الحزب الشيوعي اللبناني، الحزب الشيوعي الاردني، الحركة الوطنية العراقية، جبهة التحرير الوطني البحرانية، حزب الشعب الاشتراكي المصري، الجبهة الكردستانية، فصائل الثورة الفلسطينية.

٢ ـ اقرار صيغة مذكرة اعدتها دائرة العلاقات السياسية موجهة الى الرفاق في الاتحاد السوفييتي.

٣ ـ تقوم لجنة المتابعة، بمقابلة سفير الاتحاد السوفييتي بدمشق وتسلمه المذكرة.

٤ ـ نشر المذكرة في وسائل الاعلام السوفييتية والعربية.

٥ ـ يقوم كل حزب ومنظمة بدراسة موضوع الهجرة، واتخاذ ما تراه مناسباً من تحركات ونشاطات.

٦ ـ تواصل لجنة المتابعة الاجتماعات لمناقشة أية مقترحات مستجدة.

وعلى اثر ذلك:

قامت اللجنة المكلفة والمكونة من الرفاق، ابو ماهر اليماني، ويوسف فيصل، وعدد آخر من الرفاق بتسليم المذكرة المقرة في اللقاء الموسع الى سفير الاتحاد السوفييتي

في دمشق وفيما يلي نص المذكرة.

دمشق في ٣١/ ١/ ١٩٩٠

الرفيق/ ميخائيل غورباتشوف

السكرتير العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي/ رئيس هيئة مجلس السوفييت الاعلى.

الرفاق/ اعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي.

الرفاق/ اعضاء مجلس هيئة رئاسة السوفييت الاعلى.

الرفاق/ نواب مؤتمر الشعب لجمهوريات الاتحاد السوفييتي.

تهديكم احزاب وقوى حركات التحرر الوطني العربية والصديقة تحياتها الكفاحية الاممية، ويسرها افادتكم انها قد توقفت امام الاخطار الناشئة عن تزايد هجرة اليهود السوفييت الى فلسطين، والتي تحمل العديد من المخاطر الكبيرة، ليس على الشعب الفلسطيني وحقوقه الوطنية وحسب، بل وعلى مجمل قضية السلام في المنطقة.

ان تزايد اعداد المهاجرين اليهود من وطنهم السوفييتي الى فلسطين، اضافة الى الاجراءات التي اتخذتها الادارة الامريكية لتوجيه الهجرة اليهودية باتجاه فلسطين، انما يساعد على تغذية الاحلام الصهيونية التوسعية التي عبر عنها اسحق شامير مؤخراً عندما عاد الى الحديث عن «اسرائيل الكبرى».

كما يساهم هذا التزايد في تعزيز عنجهية «اسرائيل» واصرارها على عرقلة الجهود التي يبذلها الاتحاد السوفييتي لاحلال السلام في المنطقة، فضلاً عن كونه يشكل تنكراً لقرار الامم المتحدة، رقم ١٩٤ المتعلق بحق عودة الفلسطينيين الى ديارهم التي شردوا منها منذ عام ١٩٤٨، وضربة لحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني، على اعتبار ان الهجرة ستؤدي ـ بطبيعة الحال ـ الى تشجيع استكمال مشاريع الاستيطان، وبناء مستوطنات جديدة لاستيعاب المهاجرين الجدد، اضافة الى انعاش وتشجيع الافكار الداعية الى التشريد الجماعي للفلسطينيين. وطردهم خارج ديارهم، كما حدث عامي ١٩٤٨ و١٩٦٧ لاحلال المهاجرين الجدد مكانهم.

اننا ومن موقع الصداقة مع الاتحاد السوفييتي، والحرص عليها، نلفت انتباهكم الى النتائج الخطيرة التي تترتب على استمرار الهجرة من تغذية النزعة العدوانية الصهيونية، والتوسعية الاسرائيلية بفعل زيادة عدد المهاجرين، ونطالب باتخاذ كل الاجراءات السريعة والكفيلة بوقف تدفق اليهود السوفييت الى فلسطين، وللحيلولة دون استغلال هذه الموجة من قبل التيارات والقوى الرجعية المرتبطة بالمخططات المشبوهة التي تحاول

النيل من مواقف الاتحاد السوفييتي المبدئية.

وادراكاً منا ان بلادكم منذ ثورة اكتوبر العظمى لم تضع مصالحها يوماً في تناقض مع مصالح الشعوب المضطهدة، بل كانت ولازالت تشكل سداً قوياً ومنيعاً لنضالات الشعوب المستعمرة والمضطهدة، وانكم توافقوننا مبدأياً انه ليس من العدل ان يكون تطبيق حقوق الانسان على حساب انسان آخر.

لكل ذلك فاننا نتوجه الى ضمير وعقل وقلب القيادة والشعوب السوفييتية لاخذ كافة الاجراءات لايقاف الهجرة الى فلسطين ودفع عملية السلام الشامل الى الامام، وان تسعوا الى تخفيف آلام وعذابات: اطفال، ونساء، وشيوخ، وشباب الشعب الفلسطيني الذي يعاني من عنصرية الصهاينة وفاشية الاحتلال يومياً.

نعود فنؤكد ان حرصنا على استمرار صداقتكم مع شعوب المنطقة، ودرءاً للخطر الكبير الذي تشكله الهجرة، يدعونا لمناشدتكم ايقاف هجرة اليهود السوفييت الى فلسطين.

١ ـ الحزب الشيوعي السوري.
٢ ـ الحزب الشيوعي اللبناني.
٣ ـ الحزب الشيوعي الاردني.
٤ ـ الحزب الشيوعي الفلسطيني.
٥ ـ الحزب الشيوعي العراقي.
٦ ـ الحزب الشيوعي في السعودية.
٧ ـ جبهة التحرير الوطني البحرانية.
٨ ـ حزب الشعب الاشتراكي المصري.
٩ ـ تجمع الوطنيين المصريين في الخارج.
١٠ ـ التجمع الديمقراطي العراقي.
١١ ـ الحزب الاشتراكي في العراق.
١٢ ـ الحزب الشيوعي الثوري/ تركيا.
١٣ ـ اليسار الثوري/ تركيا.
١٤ ـ حزب العمل الشيوعي/ تركيا
١٥ ـ حزب كادحي كردستان.
١٦ ـ الجبهة الكردستانية/ العراق.
أ ـ الاتحاد الوطني الكردستاني.
ب ـ حزب الشعب الديمقراطي الكردستاني.
ج ـ الحزب الاشتراكي الكردستاني. باسوك
د ـ الحزب الديمقراطي الكردستاني/ العراق.
هـ ـ اقليم كردستان للحزب الشيوعي العراقي.
١٧ ـ الحركة الاشتراكية الكردستانية.
١٨ ـ الجبهة الشعبية لتحرير ارتيريا.
١٩ ـ الجبهة الشعبية لتحرير عمان.
٢٠ ـ حزب الشعب الديمقراطي الاردني.
٢١ ـ الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.
٢٢ ـ الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين.
٢٣ ـ جبهة النضال الشعبي الفلسطيني.
٢٤ ـ جبهة التحرير الفلسطينية.
٢٥ ـ منظمة الجبهة الشعبية في الاردن.
٢٦ ـ منظمة طلائع حزب التحرير الشعبية/ قوات الصاعقة.
٢٧ ـ الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين/ القيادة العامة.



الانعطاف الى الديمقراطية في الاردن...
الخلفية، الواقع، الافاق

لقاء مع الرفيق يعقوب زيادين

لأول وهلة تبدو التطورات الهامة في الاردن باتجاه الدستورية والبرلمانية والتعددية وكأنها هبة مفاجئة أو قرارات من فوق جاءت استجابة لجو عالمي سائر بهذا الاتجاه.

لكن الشيوعيين الاردنيين الذين عاشوا منذ تأسيس حزبهم تحت وطأة الأحكام العرفية، في السجون والمنفى والاقامة الجبرية والعمل السري والحظر السياسي، ينظرون إلى هذه التطورات باعتبارها حصيلة تفاعلات عديدة داخلية دون انفصال عن الجو العالمي. هذا الحوار الذي أجرته (الثقافة الجديدة) مع الرفيق يعقوب زيادين، الامين العام للحزب الشيوعي الاردني، يكشف المسار التاريخي لهذا التحول، وايجابياته والمخاطر التي تهدده:

ث جـ: نرحب بكم رفيق زيادين باسم هيئة التحرير ونود ان تعطونا فكرة عامة عن خلفية التغييرات الأخيرة في الأردن.

الرفيق زيادين: لم يعرف الاردن في كل تاريخه ديمقراطية سليمة، رغم كل النضالات والمطالبات التي استمرت طوال الستين عاماً الماضية. كان هناك اصرار ونضال من جانب الشعب.. في عام ١٩٢٨ عقد المؤتمر الوطني الأول كحدث سياسي بارز، وكانت أول مطالبه أجراء انتخابات حرة ديمقراطية وحكومة مسؤولة أمام البرلمان. فجاء الرد بان الاردن لم يصل بعد تلك المرحلة التي يستطيع فيها ان يحكم نفسه بنفسه.

وقد حققت النضالات الشعبية بعض الانتصارات في ١٩٥٤ و١٩٥٦ حين اجيز الحزب الوطني الاشتراكي وحزب البعث العربي الاشتراكي. . فيما عدا هذه الفترات القصيرة، لم تمرّ فترة في حياة الاردن إلا وفيها منفيون ومعتقلون وسجناء. ودائماً كان الشيوعيون الاردنيون يتحملون القسط الأكبر من التضحية. . فحتى قبل الاعلان عن تأسيس الحزب الشيوعي الاردني عام ١٩٥١ بسنوات عديدة، كان هناك في ظل الانتداب البريطاني قانون مكافحة الشيوعية. . . وعندما ألغيت المعاهدة البريطانية في آذار عام ١٩٥٧ وتم جلاء القوات البريطانية، بدأ النفوذ الامريكي من خلال مشروع ايزنهاور، ودخل السجون اناس من كل التيارات والفئات السياسية، ولم يبق في الاردن قرية أو مدينة إلا وكان منها معتقلون واستمر هذا الوضع فترة تقارب ثماني سنوات، اضطرت السلطة بعد ان عجزت عن مقاومة التيار القومي والتيار الشيوعي بشكل خاص إلى استخدام خبراء نازيين من المانيا الغربية اضافوا أساليب جديدة في القمع والتعذيب لم يعرفها الاردن في كل تاريخه السابق. استشهد تحت التعذيب، مثلاً، رفيقنا عبد الفتاح تولستان، ورفض اهله استلام جثته لأنهم لم يتعرفوا عليه. كان كتلة مهشمة من اللحم المحروق، وهكذا استمرت الاعتقالات والمطاردات، في الوقت الذي لم تتوقف اطلاقاً المطالبة بالديمقراطية، واستمر تصعيد الحملة على نشاط الاحزاب، ومنعت من العمل كلياً، وقيدت الصحافة، ومنعت التجمعات. . . الخ.

في عام ١٩٨٩، تفجرت هبّة نيسان الكبرى في الاردن في منطقة معروفة بولائها للسلطة منذ سنين طويلة، فمنها ينحدر ثلث أفراد الجيش، وثلث أفراد الحرس الملكي هم من أبناء هذه المنطقة. لقد تميزت هبة نيسان باتساعها، مصحوبة بسقوط عدد غير قليل من القتلى والجرحى في الجنوب. وانتشر صداها منذ اليوم الأول في كل بقاع الاردن. وانهالت على السلطة عرائض ومذكرات عديدة تطالب بالديمقراطية، ومنذ اليوم الأول على الهبة ارتبطت المطالب الاقتصادية بالمطالب السياسية. وتحددت هذه المطالب بالغاء الاتفاقية مع البنك الدولي، والحد من ارتفاع الاسعار والغاء الزيادات المفروضة وايجاد حل للازمة الاقتصادية وأزمة البطالة، مع مطالب سياسية بالديمقراطية: إجراء انتخابات نيابية، واطلاق سراح السجناء السياسيين. طبعاً أرادت السلطة ان تعيد الكرّة في القمع كما فعلت في عام ١٩٥٦ وعام ١٩٥٧ لكنها فشلت. واضطرت تحت الضغط الشعبي والعالمي إلى اطلاق سراح عدد كبير من المعتقلين السياسيين. لذلك فان الانعطافة نحو الديمقراطية في الاردن في نظرنا لم تكن هِبة من السماء، أو مكرمة من أحد فاسبابها هي أولاً: هبة نيسان، والخوف من امتدادها إلى المناطق المزدحمة بالسكان مثل عمان والزرقاء

وأربد. وثانياً: استمرار الضغط الشعبي المطالِب بالديمقراطية طوال عشرات السنين، وكان حزبنا الشيوعي في الطليعة، وقدم أكبر قسط من التضحيات، سجناء ومعتقلين، من أجل اشاعة الديمقراطية والدفاع عنها.

والسبب الثالث يكمن في وطأة الازمة الاقتصادية. في السابق، كانت الاحزاب هي المتهمة بانها سبب الشرور لكن الازمة الاقتصادية حدثت وتفاقمت في غياب الاحزاب، وحدثت البطالة لأول مرة، وكذلك ارتفعت المديونية العالية، وارتفعت الاسعار بشكل جنوني، وعجز النظام عن ايجاد أية وسيلة للعلاج. السبب الرابع هو تأثير تيار الديمقراطية الكاسح الذي يجتاح العالم كله، مما جعل النظام يشعر بان جذوره تهتز، وأخذ يعاني من عزلة كبيرة. وتصاعد التذمر حتى بين الفئات المنتفعة من النظام عندما اشتدت الازمة السياسية، وبدأت المضاربات على الدينار، وهبط سعره بشكل كبير. وأرتفعت الاسعار بشكل جنوني.

ث جـ: في السنوات الأخيرة، رسمت الصحافة اليمينية صورة زاهية للوضع الاقتصادي في الاردن، نود ان نتعرف على الأسس التي انطلقت منها الازمة؟

ر. زيادين: في العشرين سنة الماضية، تدفق على الاردن حوالي ٢٨ مليار دولار، حسب التقديرات المطلعة، ولو استخدم هذا المال استخداماً عقلانياً، لتقدم الاردن كثيراً، لكنهم اكتفوا بتطوير البنية التحتية. هناك الآن طرق ممتازة كلفت المليارات، ولكن هذه الطرق غير منتجة، بل هي مكلفة وتتطلب صيانة وتجديداً كل عام. انشأت شبكات مواصلات سلكية ولاسلكية بشكل عالي التطور. خذوا مثلاً بلدة مثل الطفيلة بأقصى الجنوب، اهلها فقراء، متفشٍ بينهم مرض السل، لكنهم يمتلكون اجهزة تلفونات تتصل بباريس ولندن وواشنطن في أية لحظة. كنا نقول اثناء الانتخابات، بدل هذه التلفونات المتطورة جداً، لو تم بناء مصنع يشغل عدداً من الشباب لانتفعت البلدة حقاً. والآن فانك اذ تشاهد عمان في التلفزيون تبدو لك مثل نيويورك بطرقها وجسورها وعماراتها. فقد انفقت مبالغ طائلة عليها. وبالطبع كان وراء العملية مقاولات وعمولات مربحة للتجار والسماسرة. جاءت الازمة المالية، وارتفعت المديونية إلى ما يقارب ١١ ـ ١٢ مليار دولار خلال السنوات الثلاث الأخيرة، وهبطت قيمة الدينار بسرعة، واكتشف مؤخراً ان ثلث رصيد الذهب بيع بدون قرار أو أي بحث رسمي. ارتفعت اسعار الذهب في الخارج، فسارعوا إلى بيعه، وتسجيل عائدات بيعه حسب السعر القديم. وذهب الفرق إلى جيوب المنتفعين، توجد معلومات بان رؤوس الاموال الاردنية الخاصة المهربة تبلغ حوالي ١٨ ـ ٢٤ مليار دولار، وتعود ملكيتها في الغالب إلى تجار ورأسماليين ووزراء سابقين وكبار

موظفي الدولة. تركزت خطتنا على محاربة هؤلاء اللصوص، واسترجاع قسم من هذه الاموال على الأقل، لايداعها في المصارف المحلية التي تفتقر إلى السيولة.

من الطبيعي ان يؤثر على الوضع العام أيضاً اجراءات فك الارتباط مع الضفة الغربية بسبب ما رافقها من قمع وقيود على العديد من الفلسطينيين، وكذلك دخولهم من حيث العبور من الضفة الغربية والسفر، ودخول المنتجات الزراعية من الضفة والقطاع. ولهذا أخذت التحويلات المالية من الخليج للموظفين الفلسطينيين تتحول إلى خارج الاردن. الخلاصة ان هذه الازمة ما تزال شديدة، والفساد مستشر في جهاز الدولة. وتعمق نظام التبعية للأمبريالية الامريكية. واشتدت النزعة الاستهلاكية، وصار عجز في الموازنة الذي يتزايد سنوياً. وفي حين يتزايد الاستهلاك، تفتقر البلاد إلى القدرة الانتاجية. تحدثوا طويلاً عن مشاريع التنمية، كلها لم تخفف من التبعية. الزراعة الاردنية كانت وحدها تنتج ما يكفي في الاربعينات من القمح وزيادة. كان الاردن يصدر إلى فلسطين، الآن توجه الانتاج إلى الخارج لا إلى ما يسد حاجة السوق المحلية من خضر وفواكه ولحوم. ويتم استيراد المواد الزراعية الآن بكميات كبيرة حتى القرية الاردنية نفسها اصبحت تأكل من القمح الامريكي بدل ان تنتج القمح من أرضها، القرية تستهلك الآن العدس الامريكي، والحمص التركي، واللحم البلغاري، والدجاج الفرنسي. لدينا البوتاس والفوسفات، كان هناك خلل في بناء مصنع البوتاس، وتعطل أكثر من سنة، وتقدر خسارته في السنة الأولى بـ ٤٠ مليون دولار، أما الفوسفات فلدينا الكثير منه، وهو متوفر في بلدان كثيرة في العالم وأسعاره هابطة. هناك بعض الصناعات الاستهلاكية الصغيرة التي تعاني من منافسة كبيرة لا تستطيع ان تغزو الاسواق لا العربية ولا الخارجية. في أواخر السبعينات أقيم مصنع للزجاج، فشل أيضاً، وأقاموا مصنعاً للاسمدة دون ان يفكروا بالسوق التي تستوعب الانتاج. كان عندنا مصنع اسمنت ناجح، بنوا مصنع اسمنت آخر في الجنوب، فشل لأنه لم يجد سوقاً لانتاجه. كانت الدولة مضطرة إلى دفع اعانات إلى هذه الصناعات الفاشلة حتى تبقى.

طبعاً هناك مشاكل اجتماعية، ومشاكل اقليمية يوجد من يحقنها بدفعات جديدة من النزاعات. بين اردني وفلسطيني، وبين مسلم ومسيحي، وبين بدوي وحضري، بين شركسي وارمني وعربي... الخ.

العلاقات الاردنية الفلسطينية هي في الحقيقة علاقات تاريخية قديمة جداً، أقدم من المملكة الاردنية الهاشمية، نحن احتفلنا سنة ١٩٨٨ بالذكرى الستين للمؤتمر الوطني الأول ١٩٢٨، في بحث مسحي حول العلاقات الاردنية الفلسطينية، اكتشفنا العجب: أول شهيد وقع على أرض فلسطين سنة ١٩٢٢ هو اردني. كان من بين المهاجمين على

المستوطنات الاسرائيلية في طبريا وقتل هناك. المنطقة بين اربد وسوريا كانت منطقة عبور وجسور للمقاتلين والسلاح إلى فلسطين بحماية اردنيين، رغم مقاومة الجيش البريطاني والبوليس الذي كان يتعرض للقتل أيضاً. تحولت المنطقة هذه إلى مستشفيات للجرحى الفلسطينيين، كانوا ينقلون من مغارة إلى مغارة، ومن بيت لبيت لاتقاء شر البوليس الاردني الخاضع للقوة البريطانية. في الكرك سنة ١٩٣٦ (أيام الثورة الفلسطينية) كانت تتشكل نصائل وعصابات، وتهاجم المخافر البريطانية في فلسطين تخفيفاً من الضغط عن الثوار. اذكر وأنا طفل كانت تُجمع التبرعات لفلسطين، وكانت الاغاني والاهازيج أيام الاعراس تتحدث عن بطولات وشهداء الفلسطينيين. كانت فلسطين السوق الطبيعي الوحيد لشرق الاردن في الاربعينات والثلاثينات لتصدير الغنم والماعز والقمح والعدس والشعير. وكان مرضانا يتلقون العلاج في القدس وبيت لحم. والاغنياء يرسلون ابناءهم للدراسة في فلسطين. كان مئات بل ألوف من شغيلة القرى يذهبون لفلسطين ليشتغلوا، ويعودوا بعد سنتين أو ثلاثة وفي جيوبهم بعض المال، ويشتروا الاراضي. توثقت العلاقة كذلك بالمصاهرة.

لهذه الاسباب نجحت الوحدة بين الضفتين، رغم ان السلطة قمعية، والارهاب نال من الشعبين. .* ظلت العلاقات تتوطد وبالتالي كنا نستنتج انه مهما عملت السلطة والعناصر الرجعية، فمن الصعب ان تحطم هذه العلاقة بين الشعبين، لذلك كان دعم الانتفاضة، ودعم الشعب الفلسطيني واحداً من القضايا الرئيسية التي عليها اجماع تقريباً خلال معركتنا الانتخابية. كان هناك رأي سائد هو ان أي نصر يحققه الشعب الاردني على طريق الحكم الوطني الديمقراطي يصب في نضال الشعب الفلسطيني. لقد نظمنا اسبوع تضامن مع الشعب الفلسطيني، فكانت عمان تعج لأول مرة بمسيرات حاشدة تضم مئات وألوف الشباب لدعم الانتفاضة، نظمنا أيضاً عشرات المعارض والندوات في دعم الانتفاضة في كل عمان ومدن الاردن.المساعدات العينية والمالية تجمع على نطاق أوسع. هكذا ثبت للجميع ان هذه العلاقة هي لصالح الشعبين، والشعار السائد: الاردني الجيد هو الفلسطيني الجيد والفلسطيني الجيد هو الاردني الجيد، بمعنى ان النضال من أجل حكم وطني ديمقراطي يصب في تحرير الارض الفلسطينية وقيام الدولة الفلسطينية. طبعاً كانت هناك مشاحنات يثيرها الرأسماليون من الجانب الاردني والفلسطيني، في الليل يتفقون على السرقات، وفي النهار يشتبكون ويثيرون النزاعات عن طريق التوظيف مثلاً، شركة فلسطينية توظف الفلسطينيين، وشركة اردنية توظف الاردنيين. فمن مصلحة البرجوازية ان يكون هناك خلافات بين الطرفين.

ث . جـ: ما هو حظ العملية الديمقراطية من الاستمرار والتعمق؟

د. زيادين: لا شك ان للوضع القائم الآن اعداء في الداخل والخارج، المخابرات غير راضية، والاردن لم يعد كما كان في السابق، يعني الملك ما عاد منفرداً بالسلطة، هناك مراكز قوى كالمخابرات، ومخابرات الجيش. . . الخ، والبرجوازية قوة بيدها المال والثروة، هي أيضاً تستطيع ان تؤثر. لكن الذي حصل كما قلنا جاء نتيجة النضالات الشعبية وكذلك التيار الجارف للديمقراطية الذي يجتاح العالم كله. وعددنا قبل قليل الاسباب الاربعة للتحول. لذلك يبدو الوضع مستقراً إلى حدٍ ما، سيستمر. طبعاً هناك تآمر عليه، مثلاً من اسرائيل فهي غير راضية، والسعودية غير راضية. . . الخ يوجد ايضاً اعداء في الداخل، وقد بدأت منذ اليوم الاول بعض التحركات التخريبية لزعزعة الوضع، خرجت مظاهرات بتحريض من الخارج بحجة دعم الانتفاضة الفلسطينية، وراحت تضرب بدون سبب، الجنود وسيارات الجيش و السيارات المدنية وبعض المتاجر، وتحرق الاطارات في الشوارع. الجيش لم يتعرض لها. هناك أناس كانوا يعيشون على النهب والسلب والسرقة، ولا يريحهم نظام ديمقراطي فيه محاسبة، وفيه رقابة. في رأينا، نحن الشيوعيين، ان هذا الوضع يجب دعمه وتأييده والمحافظة عليه ودفعه باستمرار للأمام لأنه أفرز الكثير من الايجابيات. منها مثلاً حق السفر لكل مواطن، وحق العمل في الداخل دون موافقة المخابرات، بينما قبل أشهر كان يحتاج إلى شهادة حسن السلوك كل من يريد ان يشتغل أو يسافر أو يتزوج. آخر القرارات الغاء قانون مكافحة الشيوعية، واعادة الوظائف لكل الذين طردوا منها أثناء الاحكام العرفية التي استمرت ٢٥ سنة. طبعاً الحكومة غير قادرة على توظيف الجميع الآن، يوجد أناس لهم الأولوية في العودة إلى وظائفهم، وحلت ايضاً مشكلة تعيين خريجي البلدان الاشتراكية. إلى متى سيستمر هذا؟ هذا يتوقف على وعي الشعب لدعم هذا التوجه. الوضع بحاجة إلى دعم كبير. البيان الوزاري تضمن فقرات عديدة من برامجنا الانتخابية، صحيح اننا لم نمنح الثقة للحكومة، لكننا امتنعنا عن التصويت، وكان هذا لصالح الحكومة. موقفنا سليم جداً، مداخلة الحزب التي قدمها رفيقنا عيسى مدانات أرضت الناس الوطنيين. كانت هناك مزايدات من بعض الاطراف، قالوا مضر بدران كان رئيس مخابرات، كيف يصبح رئيس حكومة؟ قلنا: نؤيد النهج وليس الشخص. هذا النهج تقدمي، الاردن لم يعرفه منذ زمن بعيد. لا يستطيع أحد حل الازمة الاقتصادية. حتى لو استلم الحزب الشيوعي السلطة فمن الصعب حلها. البطالة تشمل ١٥٠ الف، معظمهم من حملة الشهادات العليا، الاسعار ترتفع بشكل جنوني، إلى آخره من المشاكل التي بحاجة إلى فترة طويلة لحلها. إلا ان ما تم لحد الآن شيء جيد. وعدوا

بحرية الصحافة، صحافة الرأي، وصحافة الاحزاب بشكل خاص. قبل اسبوعين زارتني وكالة الانباء الاردنية تسألني عن رأيي. هذه الظاهرة جديدة، لأول مرة يتحدثون عنا علانية في وكالة انباء رسمية تُوزع على صحف ثلاث نشرت كلامي في مكان بارز. الآن ثمة امكانيات لابداء الرأي تجري ندوات في النوادي يشارك فيها رفاقنا بشكل واسع، نتحدث بديمقراطية. أنا خضت انتخابات سنة ١٩٥٦ التي جرت في جوٍّ ديمقراطي، وأجواء انتخابات ١٩٨٩ كانت تشبه اجواء انتخابات سنة ١٩٥٦. في حملاتنا الانتخابية كنا نلاقي حماسة كبيرة من الناس، لم تكن الاماكن تتسع للجمهور المحتشد حولنا. أجرنا أكبر سينما في عمان دخلها أربعة آلاف أو خمسة آلاف شخص، ملأوا الممرات، ان هذا الجمهور يقف لمدة ساعتين يصفق ويهتف، يدخل ويخرج بكل هدوء وانضباط. كان رأينا انه يجب ان نخوض هذه المعركة، وخضناها في المناطق الرئيسية بثمانية مرشحين، ثلاثة منهم أعضاء مكتب سياسي، ورفاق آخرين من اللجنة المركزية وكوادر حزبية. كان التأييد لنا حاراً في كل المناطق، يقال ان ٦٠٪ من البيانات الانتخابية للآخرين صارت فيما بعد تتضمن فقرات من بيانات حزبنا، نحن الوحيدون الذين تحدثنا عن محاكمة اللصوص، وعن مشاكل كثيرة. وكان هناك تجاوب واسع وتأييد حماسي من قبل الناس وحصلنا على ٤٦ الف صوت من مجموع ٤٥٠ الف من أصوات الذين شاركوا في الانتخابات، التيار السلفي حصل على ٢٠ نائباً، يدعمه حوالي ١٢ نائباً.

نتيجة الانتخابات لها أسباب موضوعية، فالسلفيون هم الفئة الوحيدة التي كانت تتمتع بالحرية الكاملة خلال الاربعين سنة الماضية، كانت عندهم الجمعيات الخيرية، والمدارس والكليات والجامعات، وتجمع الزكاة حالياً عن طريق وزارة الاديان. كان الاخوان المسلمون في السابق هم الذين يتصرفون بها. وكانت تصلهم المساعدات السخية من السعودية ويجري توزيعها عن طريقهم على الناس. وبالتالي استطاعوا ان يحركوا على الأقل ٢٠٪ من المصوتين ويلفوهم حولهم، بينما القوى اليسارية كانت تنتقل من سجن إلى سجن، محرومة من أي نشاط علني. استطعنا خلال اسبوعين ونصف فقط ان نحرك ١٠٪ من المصوتين، ثلثي المدة كنا نواجه باليأس من العملية. فبعد ٢٥ سنة بلا انتخابات، وفي ظل الاحكام العرفية، كان الناس يقولون لنا ـ لماذا تتعبون انفسكم؟ ولكن في الايام الأخيرة من الحملة ارتفع فجأة مستوى الحماس إلى حدٍ كبير، وقد ندم الكثير من الناس لأنهم لم يسجلوا انفسهم في القوائم الانتخابية، واستطيع الآن ان أقول ان لو جرت الانتخابات بعد سنة سيكون التسجيل ٩٠٪ والتصويت ٩٠٪، لقد ارتفعت معنويات الناس في ظل الاوضاع الديمقراطية، انها التجربة الأولى في الاردن وفي البلاد العربية.

، اسـرائيل تهـدد من وقت لآخـر بان حل القضية الفلسطينية هو في الاردن، وعبر الاردن، هذا شيء خطير، وهي تهـدد بالعـدوان. يظهر انها ما زالت تعتقد انها تتحكم بالأرض الاردنية، وهـذا يحمسهـا للعـدوان على الاردن بحجـة الـدفاع ضد الهجمات الفدائية. طبعاً هذه حجة لتقليم أظافر الاردن وارجاع العجلة إلى الخلف. ثم ان الوضع الـديمقـراطي قد يصبـح معدياً بالنسبة لبلدان المنطقة، مثلما يجري الآن في الكويت والبحرين. بعثنا في المدة الأخيرة عدداً من البرقيات، من أوساط نسائية ومهنية وشعبية لدعم النضال من أجل انتخابات حرة ديمقراطية في الكويت. في صحفنا تلمسون النفس الديمقراطي، في اعلامنا نطرح أكثر من وجهة نظر، وهذا النفس ينمو مع الأيام، لا يوجد سجناء سياسيّون، هناك عدد منهم ينتمون للمنظات الفلسطينية، تبحث قضيتهم في الوقت الحاضر للافراج عنهم، وستلغى الاحكام العرفية بعد ثلاثة أو أربعة أشهر وهذا التأجيل بحجة وجود قضايا معلقة غير سياسية. هناك مسألة الميثاق الوطني، الملك متمسك بها، الحكومة ليس لديها شيء، نحن نقول هذا غير ضروري.اذا جرى تطبيق الدستور نصاً وروحـاً فان هذا يفي بالغـرض، لأنـه يحـوي على نصـوص تعـطي الحـرية للاحـزاب والديمقراطية للصحافة، لكن الملك يريد نصوصاً ثابتة تؤكد ان الاحزاب التي تجاز تلتزم بنظام ملكي دستوري. البرلمان أكد ان هذا الميثاق لا ضرورة له، مع ذلك الملك قال انه سيشكل لجاناً من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار لوضع مسودة الميثاق، طبعاً الناس تريد ان تشبـع جيداً، والشعارات الديمقراطية لوحدها لا تطعم خبزاً، الاسعار مازالت ترتفع باستمرار، والقوة الشرائية تهبط، مثلاً الجندي الذي كان يأخذ ٩٠ ديناراً قبل سنة، خسر ٣٠ دينـاراً بسبب ارتفـاع الاسعار و٣٠ ديناراً بسبب انخفاض سعر الدينار الاردني، أي انخفض راتبه من ٩٠ ديناراً إلى ٣٠ ديناراً هذا حال الجيش، وهكذا الحال أيضاً لبقية الموظفين والعمال.

ث. جـ: ما هو موقف الحزب من قضية الديون الخارجية؟

ر. زيادين: الفوائد تصل إلى ٥٠٠ مليون دولار في السنة على الديون الخارجية، صحيح انه قد جرى تأجيل تسديد الديون، لكن ارقامها تتصاعد، والفوائد التي تدفع تعطل التنمية، وتعطيل التنمية معناه استمرار وتزايد البطالة وركود الاقتصاد، نحن نرفع الآن شعار تأجيل الـديون والفوائد، وربط مديونيتنا بقضية المديونية العالمية، فرنسا مثلاً سامحت مديونيها، وكذلك ايطاليا. طرحت اقتراحات من الاتحاد السوفييتي بتأجيلها ١٠٠ سنة وان الدول الكبرى تشتري هذه الديون باقساط، والبنوك تعوض، لماذا الاستعجال؟ لكن لحد الآن يبدو ان الدولة تفتقر إلى الوضوح أو المقدرة في التعامل مع هذه المشكلة.

ث. جـ: شيء واضح انكم لا تعتبرون تمثيل اليسار في البرلمان الاردني يعكس توازن القوى الحقيقي، أو ثقل اليسار الحقيقي في المجتمع الاردني، الشق الثاني من السؤال، العلاقات بين القوى الديمقراطية داخل البرلمان، هناك ممثلون لقوى مستقلة أو قوى يسارية أخرى، وطنية أو يسارية، هل هناك فكرة لتشكيل كتلة برلمانية على سبيل المثال.؟

ر. زيادين: شكلت فرقة، مرات يكون عددها ١٤، مرات أخرى ٢٠ نائباً معظمهم من البعثيين السابقين، لا توجد كتلة صلبة لحد الآن، لكنهم متماسكون مع بعضهم، قد تتطور هذه الكتلة لو تماسكت بشكل جيد، وسينمو تأثيرها خاصة مع وجود دعم شعبي قوي، ممكن ان تكبر أيضاً إلى أكثر من عشرين أو ثلاثين، جرت محاولة تشكيل هذا التكتل من جانبنا، كذلك حاولت العناصر الأخرى وجرت بينهم لقاءات وصل العدد إلى ١٦ و١٧ نائباً، لكن أثناء التصويت على الثقة تبين الخلاف بينهم، البعض صوت ضد البعض، والبعض امتنع عن التصويت، لكن يبقى هناك تقارب أحياناً، تظهر أشياء مشتركة دائماً، مثلاً المطالبة بالغاء قانون الدفاع نالت موافقة ٢٠ نائباً محاكمات المضاربين والمهربين تنال عدداً أكبر من المؤيدين، المطالبة بالحريات الديمقراطية عليها اجماع من الجميع بما فيهم الاخوان المسلمون، بما في ذلك اعطاء الشرعية للحزب الشيوعي، الاخوان المسلمون لم يعترضوا عليه، أحدهم قال نحن نريد الحرية حتى للحزب الشيوعي، أي بمعنى اتركوا الشيوعيين حتى يثبتوا جدارتهم. أثناء الانتخابات حاولنا تشكيل قائمة مرشحين، وكانت علينا ضغوط كثيرة من الشعب، لكننا لم نستطع، لأن مرشحو نالم ينافسوا مرشحي القوى الوطنية. المنافسة كانت بين مستقلين، وبين مرشحي الشعبية والديمقراطية. نتحدث دائماً عن الجبهة الوطنية، لكن تاريخياً وعملياً لم تتشكل ولا جبهة وطنية في العالم كله، إلا عندما يكون هناك عمود فقري مركزي، أي حزب قوي تلتف حوله الاحزاب الأخرى، حتى التيار الديني توجد خلافات فيما بينهم.

ث. جـ: هل هناك عناصر متنورة في التيار الديني؟

ر. زيادين: قدش وليث شبيلات. الأخير متديّن غير مسيس، أي انه ليس من الاخوان المسلمين، قبل سنتين دعمناه كنقيب مهندسين، هذا الرجل مرن يأخذ ويعطي، طبيعي انهم ما زالوا يهاجمون الشيوعية، ويهاجمون الاتحاد السوفييتي، لكن يظهر هذا لا يعجب قدش وليث شبيلات، التيار الديني غير متناسق وموحد تماماً، كذلك توجد فوارق ضمن نواب الدولة ويمكن التعاون مع بعضهم أحياناً فهم ليسوا منسجمين تماماً مع بعضهم البعض. ان هذه التجربة سوف تعزز أشياء غير متوقعة اطلاقاً، حتى الملك نفسه لا يبدو

راضياً على التركيبة الحالية للمجلس، بسبب كثرة الاخوان المسلمين إذ لا ننسى تأييد السادات للاخوان المسلمين، الذين انقلبوا عليه في النهاية وهذا في تقديري أحد الاسباب التي يمكن ان تلعب دوراً في التغاضي عن نشاط التيار اليساري لكي يعادل التيار السلفي. للملك تصريحات ايجابية، يكفي اعترافه انه لا يقدر على حل المشاكل لوحده كمشكلة البطالة والتضخم والمديونية.

ث. جـ: عمق الازمة وشموليتها، وعدم وجود حل منظور، كما هو واضح يمكن ان يمهد لانقلاب كما حدث في السودان.

ر. **زيادين**: التيارات السياسية، على حد علمنا، لحد الآن غير موجودة في الجيش، كان يظهر أحياناً ضباط منتمون لحزب التحرير، وهم قلة، لا شك ان الانقلاب وارد في ذهن الملك. الآن أي تغيير يكون لصالح التيار السلفي، التيار التقدمي ليس له مصلحة هناك احتمال قيام انقلاب عسكري، لكن ليس بدوافع سياسية بل بدافع الجوع والفقر.

ث. جـ: ماذا عن تأثيرات الحرب العراقية ـ الايرانية على الاردن؟ ما تقييكم لعلاقات الاردن بالنظام العراقي؟ وماذا عن مجلس التعاون العربي؟

ر. **زيادين**: الحرب العراقية ـ الايرانية كانت دماراً لنا، في البداية انعشت الاقتصاد بشكل غير عادي، اشتروا مئات الشاحنات الضخمة أثناء الحرب، وتوقفت فجأة عن العمل، وهي خردة الآن موجودة في مدينة الرقة، وللعراق نشأت صناعات استهلاكية خاصة بالسوق العراقية، كمزارع الدجاج والبيض، والآن هناك كساد في هذا النشاط، لأن انتاج البيض يكلف كثيراً عندنا، وأصبح يباع بأقل من كلفته، ثم تدهور تسويقه لأن العراق يستورد الآن من بولندا بسعر أرخص، كسدت فجأة هذه البضاعة بعد ان نمت بشكل غير عادي، في البداية كان الكثير من العراقيين يزورون الاردن، ثم أوقف العراق السفر، واصبح العراق مدين للاردن بـ ٥٠٠ مليون دولار، ونسمع الآن أنه يقسط ٢٥ مليون دولار في الشهر بسبب ضائقته الاقتصادية. ان كثير من هذه المشاريع التي ازدهرت وتطورت خلال ازمة السنتين الاوليتين من الحرب، انهارت وتركت آثارها السيئة على الاقتصاد الاردني، من جهة أخرى فالنظام العراقي، وغيره من الانظمة الاستبدادية تقلقها انعكاسات الديمقراطية في الاردن على بلادها، ونلاحظ ان الملك حسين أخذ يكسب شعبية كبيرة في الاردن وخارج الاردن هذا ما تعكسه الصحافة الغربية، والملك يتحدث بتباه عن بريسترويكا اردنية بتوسيع الديمقراطية ومنح الحريات العامة. أما مجلس التعاون العربي فكان عليه هجوم في البرلمان، لماذا أقيم هذا المجلس؟ لم يستفد منه الناس لحد الآن، المثل الشائع عندنا يقول (عريان على مفسخ) أي على مهتري، العراق ماذا عنده الآن؟

وكذلك اليمن ومصر، كلهم في أزمة، كانت هناك حملة للاستغناء عن ١٨٠ الف عامل مصري، لكن تقرر ابقاء العمال المصريين مؤخراً. الحل الاساسي هو سوق عربية مشتركة، طبعاً هذا يستدعي ديمقراطية في البلاد العربية، انظمة ديمقراطية، وحلول ديمقراطية، المجلس يؤلف الكثير من التعاون على هذا الاساس، لكن قيامه بهذا الوضع الذي عليه، لم يستفد منه الناس، الآن يقيمون لجاناً عدلية ولجان قضاء ولجاناً أخرى دون ان يستفيد الناس منها، في اجتماع رؤوساء المجلس، برزت خلافات كبيرة ويتكشف أكثر فأكثر انه حلف سياسي أكثر منه اقتصادي

ث. جـ: هل حصلت عندكم تغيرات اجتماعية أفرزت قاعدة طبقية تستند اليها الديمقراطية؟

ر. زيادين: ما حصل هو هبوط مستوى معيشة المهنيين والموظفين واثراء الشريحة العليا من المضاربين بالأراضي والسمسرة للشركات الاجنبية، توسعت الشرائح الطفيلية بسرعة من أصحاب الاعمال والوزراء، والصحف الاجنبية تتحدث عن المليارات التي أودعوها في الخارج.

ث. جـ: نريد ان نسمع عن الحزب، هل تستطيع ان نقول ان الحزب تجاوز الاوضاع المؤسفة التي عاشها في الفترات السابقة، ولا عودة إلى امكانية حصول مشاكل؟

ر. زيادين: في تقديري، رغم وجود ذيول للمشكلة، لكنني أشعر في المدة الأخيرة ان الوضع في المكتب السياسي جيدٌ جداً. تلاحم جيد ووفاق جيد، وهذا ينعكس على الحزب بشكل أفضل.في تقديري اننا خرجنا من هذه التجربة المرة باشياء مفيدة فمن الآن فصاعداً، تبحث كل الخلافات تحت سقف واحد، سقف الحزب، هذا القرار بتقديري توصلنا اليه بعد تجربة مريرة، لكنا عانينا منها، كثير من الخلافات كانت ذاتية وليست خلافات سياسية، فالقمع والسجون والملاحقة والهجرة الطويلة وبعد الرفاق عن بعضهم، كل ذلك شكّل خلال تلك الفترة كتلاً تتصارع فيما بينها، أثرت على الحزب تأثيراً سيئاً، ولكنا وصلنا إلى مرحلة قلنا فيها. . كفى، واستنتجنا انه من غير المعقول مثلاً اخراج رفيق له خبرة خمسين أو أربعين سنة في الحزب ثم نقول له انت لست شيوعياً تفضل أترك الحزب. لابد من الصبر واطالة البال والحوار، مررنا بظروف صعبة، قمع وارهاب وسجون، في السجن كنا ننقطع سنة،سنتين لا تصلنا جريدة نقرأها وحتى الكتاب كان ممنوعاً علينا، انقطعنا عن العالم الخارجي كل ذلك جعل مستوى الحزب النظري والسياسي متدنياً، ثمة في حزبنا أيضاً الكثير من المثقفين، اذا ما قلت لواحد منهم سلام عليكم وانحنيت له وابتسمت، يقول لك: ماذا حدث هل انت زعلان مني؟ . . وتخلق

مشكلة طويلة عريضة،كما ان قضية علاقة الحزب بالقضية الفلسطينية قد استقرت الآن بوجود حزب شيوعي فلسطيني، ونحن متفقون بالاجماع على برنامجه السياسي.

الحزب أمام مرحلة جديدة خاصة في البلاد، عندنا آفاق واسعة للعمل، اكتشفنا هذا في الانتخابات، عزز ثقتنا بشعبنا، واحترام شعبنا لنضالنا الطويل، لقد ارتكبنا اخطاء كبيرة، لكننا رأينا أثناء الانتخابات مدى تعلق الناس بنا، نحن الحزب الوحيد الذي صمد في كل المعارك دون ان يتشتت،أو يذوب، والذي صمد أمام التعذيب والسجون. لقد بلغ عدد السنين المحكومين بها أكثر من أربعة آلاف سنة، لا يوجد عضو في حزبنا لم يمض في السجن عدداً من السنوات، طبعاً لم نصل لحد الآن إلى مستواكم في العراق من حيث عدد الشهداء ومستوى التضحية. وبعد غياب ثلاث وثلاثين سنة، استقبلتنا الجماهير بهذا الشكل الرفيع المستوى، كانت تراجعني في اليوم الواحد أربع أو خمس صحف محلية واجنبية، مولية اهتمامها بحزبنا والتيار اليساري. فرغم اخطاء الانقسام التي ارتكبناها، كانت لنا ثقة كبيرة في النتائج التي سنحصل عليها في الانتخابات، لقد استطعنا في معركتنا الانتخابية ان ننتشل الناس من الاحباط واليأس، وطبعاً هذا بدوره عزز ثقتنا بحزبنا، الآن كما قلت عندنا آفاق كثيرة للعمل، نحن نقاوم كل الضغوط نقود أربع أو خمس نقابات من مجموع ١٧ نقابة، وحافظنا عليها طوال هذه السنين، في النقابات المهنية أيضاً، ركزنا على نقابة المهندسين، التي تضم ١٩ الف مهندس، نلعب اليوم فيها دوراً قيادياً، نقابة الاطباء لنا تأثير جيد فيها، في العادة نحصل على ٤٠٪ من الاصوات بين الاطباء، ونقود جمعيتين نسائيتين علنيتين، هما الجمعية النسائية لمكافحة الأمية، وجمعية النساء العربيات، وعندنا الآن آفاق جديدة للعمل بين خريجي البلدان الأشتراكية، مجموعهم سبعة آلاف خريج، ويشكل ٧٠ ـ ٨٠٪ من الانتلجنسيا الاردنية، صحيح انهم ليسوا جميعاً اعضاء في الحزب، إلا ان القسم الأكبر منهم يصوت للحزب. لا يقوم تحرك سياسي في الاردن بعيداً عن الحزب. في السنين الأخيرة، بعد ان أخذ الحزب الشيوعي الفلسطيني القضية الفلسطينية على عاتقه، صرنا نهتم أكثر بشؤون الاردن.قمنا بحملة «نريد ان نعمل» جندنا العاطلين لمراجعة مكاتب الاستخدام في أنحاء الاردن، مما جعل السلطة المحلية تضطر إلى نشر اعلانات في الجريدة عن وجود أعمال شاغرة، طبعاً العاطلون اكتشفوا ان هذه الاعلانات كاذبة، لا يوجد عمل في الواقع، دفعنا عدة وفود من المهندسين العاطلين عن العمل لمقابلة الوزراء ليطالبوا بالعمل، وحصلوا على سنة تدريب، وتحت الضغط جرى توظيفهم جميعاً، بالنسبة للاطباء، ضغطنا حتى اضطرت الشركات ان توظفهم، ومن خلال الاهتمام بمصالح الناس، نقاوم الغلاء وندافع عن

الحريات باستمرار.وفي المدة الأخيرة رجعنا إلى اسلوب الخمسينات، نوزع بيانات ثورية، ونجند كل الحزب للتوزيع في الليل. ضغطنا على الجامعة للتحول من الطريقة الامريكية إلى الطريقة السورية، إلى الصف المفتوح. تضاعف القبول في الجامعة وكان الحزب أول من طالب بذلك. لم نستطع ان نستوعب الطلبة، لأن الاخوان المسلمين يسيطرون عليهم منذ الخمسينات. في السابق كان الطلبة مقسمين إلى ثلاثة تيارات متساوية تيار قومي وتيار شيوعي وتيار اخوان المسلمين. بدأنا العمل في الجامعات، هذه السنة نهيء انفسنا لنتوسع رغم قلة العدد. استفدنا من البريسترويكا بتوسيع الديمقراطية في حياة الحزب، الآن نجري انتخابات في كل المنظمات تقريباً، معظمنا مكشوف، وجواز سفره محجوز، وممنوع عن العمل، لماذا لا يجتمع المكشوفون وينتخبون منهم المسؤولين؟ وكذلك في النقابات الذين يعرفون بعضهم البعض. خففنا من المركزية، اعطينا ديمقراطية أوسع. طورنا القيادة الجماعية، لا يوجد قرار صغير أو كبير إلا ويبحث في المكتب السياسي. اللجنة المركزية اصبحت تجتمع كل ثلاثة أشهر، ويمكن الآن في الشهر ان تجتمع مرتين. لجأنا إلى اسلوب الحوار مع القواعد.كل ثلاثة أو أربعة أشهر نفتح حواراً مع الرفاق المتواجدين في منطقة واحدة، نبحث معهم كل ما يريدون، رفعنا شعار (لا أسرار عندنا) سياستنا نشرحها للدولة، وتصل إلى الناس.ان هذا التمازج يقوي اللحمة داخل الحزب، ويقوي العلاقات أكثر فأكثر، وتنتهي الثرثرات، ويفوز الرفيق النشط عن الرفيق الكسول، الذي كان يعيش على الشللية والتكتل، كان هناك من يحتمي بالمكتب السياسي، الآن انتهت هذه الحماية، بعضها ما زال موجوداً، لكن يجري علاج هذا المرض باستمرار، ويناقش في كل جلسة من جلسات المكتب السياسي.

ث. جـ: ماذا عن عقد مؤتمر وطني للحزب في هذا الظرف؟

ر. زيادين: نحن مقبلون على عقد المؤتمر، شكلنا لجنة لاعداد الوثائق، وستكون الوثائق مكثفة ومختصرة جداً حتى تستوعب من قبل الاعضاء البسطاء بسهولة وبسرعة، وسنجدد النظام الداخلي، والأهم سننتخب القيادة لأول مرة في تاريخ حزبنا، بدل التعيين المتبع سابقاً.

ث. جـ: ارتباطاً بما يحصل في الاردن، بالنزوع إلى الديمقراطية والتجديد في حياة الحزب والحركة الشيوعية، هل نتوقع حصول منعطفات في حياة الحزب الداخلية، أم مجرد تعديلات هنا وهناك؟

ر. زيادين: هذا ما نأمله، الكل مجمع عليه، والكل يعمل بهذه الوجهة، نحن نقول عندنا آفاق يجب ان تستغل وألا ننتهي ابداً. نحن الآن في صدد تأسيس اتحاد شباب ديمقراطي، وقبل مغادرتي بيومين، كان من المقرر اجتماع ٦٠ أو ٧٠ شاباً لاختيار لجنة تحضيرية، تضع بيانات وبرنامج عمل، ويجب ان لا تكون نسبة الحزبيين بينهم أكثر من ١٠٪، برز أثناء الحملة الانتخابية مئات الشباب، المستعدون للعمل مع الحزب، أين نضعهم؟ نحاول ان يكون اتحاد الشباب قادر على استيعابهم.

ث. جـ: كيف تتطور العلاقة بين فصائل اليسار في الاردن؟ وما هي الصيغة التي تطرحونها للعلاقة؟

ر. **زيادين**: ما مطروح على الرفاق في الحزب الشيوعي الفلسطيني من تشكيل حزب لليسار، غير مطروح عندنا، المطروح علينا التعاون مع هذه القوى، وهذه القضية، نعتبرها قضية أساسية لن نتخلى عنها. وعملياً يجري الآن هنا تعاون يحدث بيننا أحياناً خلاف وصراع حول هذه النقطة أو تلك، وهذا طبيعي، عادةً عندما يقترب موعد انتخابات النقابات، نجد عند هذه الاطراف الميل والرغبة الأكثر في التعاون، ونحن نرى ان مجال التحالف هو العمل الوطني والسياسي في داخل البلد، بالنسبة للنقابات نتحالف مع القوى الفعلية التي لها حجم حقيقي في هذه النقابات.

ث. جـ: كيف يؤثر المناخ الديمقراطي على تطور نفوذ مختلف الاحزاب بين الناس، هل تتوسع قاعدة الحزب بسرعة؟

ر. **زيادين**: الاخوان المسلمون هم وحدهم الذين استفادوا من غياب الديمقراطية طيلة هذه السنين، كانت لهم حرية النشاط في مختلف المجالات، لاسيما الجوامع، دخلوا الانتخابات وهم منظمون تنظيماً جيداً وبامكانيات كبيرة، استطاعوا التعبئة بشكل جيد، فحصلوا على حصصهم كاملة من الاصوات. أي حوالي ٢٢٪ من مجموع الناخبين وهم ٣٠٪ من الذين يحق لهم الانتخاب، بقية الاصوات تقاسمتها الفئات الأخرى، هذا صحيح، فلو جرت الانتخابات بعد سنة مثلاً، عندئذ لاصبح التسجيل حتماً أكثر، يصبح ٩٠٪، والمشاركة حوالي ٧٠ ـ ٨٠٪ بعد الحماس الذي لمسناه من الجماهير، كان يمكن ان تزداد حصتنا كثيراً عن الـ ١٠٪ التي حصلنا عليها وهكذا بالنسبة لبقية القوى باستثناء الاخوان الملسمين.

ث. جـ: كيف يؤثر على القاعدة الحزبية ما يجري في الدول الاشتراكية من تغييرات عاصفة؟

ر. **زيادين**: تتعبنا كثيراً، لا تنعقد ندوة إلا وتطرح التساؤلات عن حقيقة ومغزى ما

يجـري، أحيانـاً لا تخلو هذه الاسئلة من روح استفـزازية، نحن نجيب ان الاشتـراكية انتصرت في الحزب، الاشتراكية بنت صناعة ثقيلة، الاشتراكية غزت الفضاء، الاشتراكية ساعدت العالم الثالث، قدمت العلم والصحة والثقافة للناس، صحيح افتقدت الاشتراكية بنـطلونـات الجينـز، والشـوكولاته، وهناك نقص في الديمقراطية. الآن يجري اصلاح الديمقراطية وسنرى. سبق لي ان قرأت مقالاً لصحفي امريكي في نيويورك تايمز يقول موجهاً حديثه لجماعته من الرأسماليين «لا تفرحوا كثيراً، بما يحدث في البلاد الاشتراكية، انهم يكشفـون عن اخـطائهم ويتحـدثون عنها علناً، عندنا اخطاء أكثر منها بكثير، اذا استـطاعت الاشتـراكية ان تتخلص من اخطائها وتعيد بناء نفسها من جديد على اسس جديدة فسـوف نتطوق، لا تنسوا الالاف الذين ينامون تحت الجسور، لا تنسوا ملايين العـاطلين عن العمـل لا تنسوا المصابين بالايدز، لا تنسوا ان ٦٠٪ من حشيش العالم يستهلك في الولايات المتحدة لا تنسوا الجرائم التي ارتكبناها في العالم الثالث» هذا الكلام يستوعب من الناس، عندما نقول صحيح هناك نقص في الاشتراكية، وهناك نقص في الـديمقـراطية الآن يوجـد ثورة داخـل هذه الاحزاب لانقاذ الاشتراكية.



ضرورة التجديد

لقاء مع الرفيق فخري كريم *

اجراه غازي الجاسم
نائب رئيس تحرير صحيفة (الوطن) الكويتية

في إطار استطلاع الرأي الذي قامت به «الوطن» حول التطورات الجارية في الاتحاد السوفييتي وبلدان اوربا الشرقية، كان هذا الحوار مع الرفيق فخري كريم.

وفي حديثه إلى «الوطن» قدم الرفيق تصوراته واراءه بشأن تلك التطورات ومسارها وآفاقها، والمصاعب التي تواجه عملية البريسترويكا، وانعكاسات هذه العملية على العلاقات بين الحزب الشيوعي السوفييتي والاحزاب الشيوعية وحركات التحرر في البلدان العربية، وطائفة أخرى من القضايا العقدية المطروحة للبحث والنقاش.

س : تجري في عالمنا المعاصر تحولات عاصفة، تترك تأثيرها الكبير على مختلف ميادين الحياة. وتجد عملية اعادة البناء (البريسترويكا) اصداءها في مختلف البلدان. كيف تنظرون إلى هذه التحولات، وما هو تقييمكم لمسار عملية البريسترويكا وآفاقها؟

ج ـ تقييمنا للتغيرات التي جرت وتجري في الاتحاد السوفييتي، والتي عرفت في كل انحاء العالم بالبريسترويكا والغلاسنوست، هو تقييم ايجابي دون أدنى شك. فهذه العملية تعبير عن ضرورة موضوعية لابد منها لتجديد الاشتراكية، أي الارتقاء بها إلى مستوى تطلعات الانسان المعاصر. ومن ناحية جوهر هذه العملية التجديدية وانعكاساتها على الحركة الشيوعية وعلى العالم ككل، فلابد ان تكون وجهة هذه الانعكاسات ايجابية على

* نص المقابلة التي اجرتها (الوطن) مع الرفيق فخري كريم.

مختلف الاصعدة. من هذا المنطلق جرى التعامل مع البريسترويكا من جانب غالبية الاحزاب الشيوعية والحركات التقدمية. ومن المثير أيضاً، والملفت لانتباه اوساط مراقبة كثيرة، ان هذه العملية جرى استقبالها من جانب الاوساط التقليدية المعادية للشيوعية والاشتراكية على نحو ايجابي أيضاً. بيد ان دوافع هذه الاوساط تختلف بطبيعة الحال.

ان طابع هذه العملية المنطوية على تناقضات تتجلى في جانبي الهدم والبناء، حيث يبرز جانب الهدم بصورة واضحة، وعنيفة، ويبدو أحياناً في صورة عدمية، ان هذا الطابع، الذي يبدو غالباً في المظاهر، يخلق التباسات كثيرة لدى الاوساط المتعاطفة مع البريسترويكا وليس لدى اعدائها. ومثل هذه العملية طبيعية اذا ما أخذنا بنظر الاعتبار ان طابع الهدم هو الذي يبرز على نحو أسرع، في حين ان طابع البناء بطيء جداً ويتطلب تراكماً في مختلف المجالات، لكي يسود على جانب الهدم.

وبطبيعة الحال ان الحديث عن البريسترويكا وتقييمها ايجابياً لا يعني، اطلاقاً، ان هذه العملية لا تنطوي، في مجراها، على جوانب سلبية في التطبيق، أو في الانعكاسات المباشرة على هذا المجال أو ذاك. ولهذا من الضروري التعامل مع هذه العملية في وحدتها وليس من خلال تجزئتها. لماذا تعبر هذه العلمية عن ضرورة موضوعية؟ منذ بداية البريسترويكا وحتى الآن قدمت الادبيات السوفييتية معطيات هائلة على ضرورة هذه العملية، ارتباطاً بما سمي بالازمة التي وصلت اليها الاشتراكية، أو اصطدم بها البناء الاشتراكي في الاتحاد السوفييتي وبقية البلدان الاشتراكية، وهذه الازمة انعكست في مختلف ميادين الحياة الاساسية، وبشكل خاص في ميدان الاقتصاد حيث يوجد تخلف في هذا الميدان، خصوصاً من جهة تلبية حاجات الانسان. هذا فضلاً عن التخلف في ميدان العلم والتكنولوجيا، من زاوية توظيفهما في الميادين التي تمس حياة الناس مباشرة، ومظاهر التخلف الأخرى التي جرى حديث كثير عنها في الادبيات السوفييتية وأدبيات البلدان الاشتراكية، ولا أجد حاجة ملحة للحديث عنها مجدداً. وانطلاقاً من ذلك يمكنني القول ان البريسترويكا هي الجهد المباشر والمبادر من جانب الحزب الشيوعي السوفييتي بالذات لتجاوز هذه الازمة، ولاستقراء نبض الحياة، والاستجابة لمتطلباتها، من أجل النهوض بالمهام التي يطرحها البناء الاشتراكي في المرحلة الراهنة.

س : لكن مرت خمس سنوات منذ اعلان البريسترويكا والغلاسنوست، ونلاحظ انه لا تتوفر، حتى الآن، مواد استهلاكية في السوق، ولم تستطع الدولة السوفييتية أو الحزب الشيوعي السوفييتي انجاز مشروع البريسترويكا على أرض الواقع. فما زال هذا المشروع فكرة يدور حولها صراع في قمة السلطة. ألا يشكل هذا تهديداً للبريسترويكا ذاتها؟

ج - الحقيقة، كما تفضلت، هي ان الوعود التي قدمت اثر اجتماع اللجنة المركزية

للحزب الشيوعي السوفييتي في نيسان ١٩٨٥ ، وهو الاجتماع المعروف باعتباره المبادر للبريسترويكا التي بدأت بما سمي بعملية التسريع لتجاوز الصعوبات في الميدان الاقتصادي ، وما يرتبط من موضوعات أخرى بعملية التسريع . . تلك الوعود التي قدمت منذ ذلك الحين لم تُلمس نتائجها في الحياة فعلاً . وقد شكل هذا صعوبة مضاعفة ، اصطدمت بها البريسترويكا في مجرى تطورها خلال هذه السنوات ، وهي موضع شكوى ، حقاً عدا عن كونها موضع التباس لا في الاتحاد السوفييتي وحده ، وانما لدى اوساط واسعة مؤيدة للبريسترويكا من موقع ايجابي لا من موقع العدو المتربص . هل يشكل التقاطع بين الوعود والواقع الفعلي صعوبة أو خطورة؟ لاشك انه يشكل مثل هذه الصعوبة أو الخطورة ، على الأقل في ميدان حيوي جداً لانجاح عملية البريسترويكا ، وهو قناعة الاوساط الواسعة من الشعب السوفييتي بعملية البريسترويكا والتفافه حولها . ومثل هذا التقاطع يمكن ان يؤدي إلى ضعف الاهتمام بهذه العملية ، وبالتالي اتخاذ مواقف سلبية ازاءها . هذه ناحية ، أما الناحية الأخرى فان هذا الوضع يمكن ان يدفع إلى المزيد من اثارة الشكوك حول جدوى عملية التجديد أو قدرتها على تصحيح مسار البناء الاشتراكي . ومن الطبيعي ان الانفجارات القومية والاثنية والاحتكاكات التي اتخذت أحياناً طابع صدامات دموية داخل الجمهورية الواحدة أو بين الجمهوريات ، وكذلك النزعات الانفصالية في جمهوريات البلطيق ، كل هذا يشكل عوامل اضافية تخلق صعوبات ، وتنذر بمخاطر . لكن الشيء الذي ينبغي التأكيد عليه ، قطعاً ، رغم هذه الصعوبات والمخاطر ، هو ان عملية التجديد ضرورة لا مناص منها ليس فقط للحزب الشيوعي السوفييتي ، أو للاتحاد السوفييتي أو عملية البناء الاشتراكي فيه ، أو البلدان الأخرى ، وانما أيضاً للحركة الشيوعية بأسرها . وأكاد اجزم بان عملية التجديد ضرورية للحركة التقدمية عموماً ، من حيث مضامين هذه الحركة وأساليب عملها .

وكما تعرفون كان الجميع ، على صعيد حركة التحرر الوطني العربية ، يتحدثون طيلة السنوات الماضية عن المصاعب التي تواجه فصائل هذه الحركة ، وضرورة الارتقاء بنشاطاتها ، وأساليب عملها . كانوا يتحدثون عن عزلتها عن الجماهير ، وعن تقاطع شعاراتها مع تطلعات الجماهير الشعبية في مختلف البلدان العربية . وأكثر من هذا كان يجري الحديث عن ازمة حركة التحرر وفصائلها ، وضرورة البحث عن مخرج لهذه الحركة من الازمة . هذا كله يشير إلى ضرورة التجديد ، في المضامين وفي الاساليب . الحياة تطورت بطفرات وبقينا نحن نراوح في مكاننا أحياناً ، ونتخلف أحياناً أخرى ، حتى عن المواقع التي كنا نحتلها في مراحل تاريخية معينة . وبهذا المعنى تصبح عملية التجديد ضرورية . أما تفاصيل هذه العملية فمطروحة وقابلة للنقاش .

وهنـاك كثرة من القضايا العقدية في الميادين الفكرية والسياسية والتنظيمية، وفي ميدان فهم الاشتراكية ومحتواها ومسيرتها التاريخية ومستقبلها. وتتعلق الجوانب الأخرى من التسـاؤلات بأدوات البنـاء الاشتراكي. أعني الحزب، النظام، مفهوم الديمقراطية، والمركزية الديمقراطية، وعشرات القضايا الأخرى العقدية التي ينبغي ان تناقش بجدية ومسؤولية وبانفتاح، وان لا يجري التمسك بالمسلمات التي اصطدمت كثرة منها بالواقع الحي، وثبت بطلانها. وفي الوقت نفسه ينبغي ان لا يجري الانتقال إلى مسلمات أخرى يطرح بعضها اليوم دون تمحيص وتدقيق، وبعبارة أخرى علينا ان نتعاطى مع هذه القضايا بالاستناد إلى العلم وتطوره ومنجزاته في مختلف الميادين، وبالاستناد إلى الخبرة المتراكمة للحركة الثورية، والحركة الانسانية في مجملها. . .

س : طيب، كيف تنـظرون إلى المسـألـة الالمـانيـة؟ واذا ما فازت في الانتخابات البرلمانية القادمة تلك القوى المناهضة للحزب الاشتراكي الالماني الموحد والداعية إلى الوحدة الالمانية من منطلقات مغايرة، ألا يعد هذا خروجاً عن الاشتراكية بشكل كامل؟ أي كيف تنظرون إلى هذه المسألة المعقدة، مسألة دمج بلدين فيهما نظامان اجتماعيان مختلفان؟

ج ـ أنـا لم اتوقف بالتفصيل عند مغزى البريسترويكا وجوهرها الاساسي الذي جرى تلخيصه في عبارة غورباتشوف: المزيد من الاشتراكية عبر المزيد من الديمقراطية. ويعني ذلك ان الديمقراطية وحقوق الانسان ودولة القانون وكل ما يرتبط بهذه المفاهيم والقيم هي التي تجسّد قيم الاشتراكية حقاً. ولا نستطيع ان ننكر، الآن، لا بدوافع تكتيكية ولا بدوافع أخـرى ان هذه القيم جرى تجاوزها بدرجات متفاوتة في «البلدان الاشتراكية»، وأحياناً بدرجات فظة جداً. والغالـب ان تجليات هذه القيم لم تكن بالمستوى الذي يعكس الوجه المشرق للاشتراكية. هذه حقيقة لابد من الاقرار بها. وبالتالي فالتحدّي الذي يواجه أي حزب شيوعي، حاكماً كان أم غير حاكم، والحديث يدور هنا عن بلدان اوربا الشرقية، هو في الكيفية التي يستطيع ان يعود بها هذا الحزب إلى القيم التي انطلق منها، وهي الاعتماد على الجماهير، بالاستناد إلى قناعة هذه الجماهير، وفهمها لشعارات الاحزاب واهدافها وقـدرتهـا على استقطاب الجماهير في المعركة المحتدمة في مختلف الميادين، واعادة اصطفاف القوى على هذا الاساس. وهذا التحدي أمر صعب جداً، ولابد ان يمر بمراحل مختلفة كما تلاحظ. فالمرحلة الأولى لم تكن ايجابية، وقد أدت إلى انحسار نفوذ عدد من الاحزاب الشيوعية الحاكمة نتيجة تراكم الاخطاء، وعوامل أخرى من بينها الضغط الواسع المكثف من جانب المعكسر الآخر، رغم انه لا يجري الحديث الآن عن معسكر آخر، لكنـه يظل، في رأيي، المعسكـر الآخـر مهما تحدثنا عن وحدة العالم وترابطه، ويظل

التناقض قائماً. فالطرف الآخر يحاول تسويد كل تاريخ هذه الاحزاب ومنجزاتها ومستقبلها، ويشكك بجدوى الاشتراكية نفسها من خلال التأكيد على افلاسها تاريخياً، كل هذا أدى إلى انحسارات، ولكن هل هذه الانحسارات ثابتة ونهائية؟ لا أظن ذلك. فالمعركة مستمرة، والعملية في صيرورتها ستفرز حقائق جديدة وواقعاً آخر حينما تصطدم الجماهير بقضاياها ومصالحها المباشرة والكيفية التي ينبغي بها ان تتجاوز المصاعب التي تعاني منها، وأدوات وأساليب هذا التجاوز. بهذا المعنى، أي بمعنى التأكيد على قيم الديمقراطية والانسانية وحقوق الانسان وحريته في اتخاذ القرار الذي ينسجم مع تطلعاته.

نعتقد ان من حق أي شعب ان يقرر ما يريد سواء كان هذا هو الشعب الالماني أو أي شعب آخر في العالم. فالشعب الالماني هو الذي سيقرر ما اذا كان سيتوحد أم لا، وصيغة هذه الوحدة. ولكن السؤال المطروح هو: هل يمكن ان تتوفر الفرص الحقيقية والمناخ الملائم لكي يعبر الشعب الالماني عن ارادته بعيداً عن أية ضغوطات أو عمليات شانتاج أو أشكال دعاية تضليلية؟ ومع ان هناك تباينات حادة في الرأي ومخاوف جدية من جانب بعض الدول الغربية بشأن الوحدة الالمانية، إلا ان المانيا الغربية، ومعها الولايات المتحدة، وقوى وأوساط رجعية ويمينية في الدول الأخرى ترمي بكل ثقلها السياسي والاقتصادي والمالي والدعائي، في حملة واسعة محمومة، لفرض شروطها السياسية على المانيا الديمقراطية، والسعي لابتلاعها، وبالتالي تحقيق وحدة المانية في ظل الرأسمالية وتحت راية حلف الاطلسي. وبالمقابل توجد قوى سليمة، غير قليلة، تسعى للخروج من الازمة، وتأمين التطور الديمقراطي باتجاه الاشتراكية، وابقاء المانيا الديمقراطية عامل أمن وسلام في اوربا، ومجابهة الميول الانتقامية والعسكرية في «المانيا الموحدة». ومع ذلك يبدو ان الوضع في غاية التعقيد وهناك مصالح متشابكة كثيرة لكن هذا لا يبرر أي شكل من أشكال مصادرة حق الشعب الالماني في ان يقول كلمته. وبالمقابل لا يمكن اغفال المخاوف المتزايدة من احتمال تراكمات جديدة يمكن ان تؤدي إلى مخاطر جدية على البشرية. ويجري الحديث عن هذه المخاطر كثيراً لا في الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية حسب، وانما في بلدان غربية أيضاً. فهل ان حق الشعب الالماني يرتبط بحقوق الشعوب الأخرى التي اكتوت مباشرة بالحروب التي انطلقت من المانيا؟ هذه القضية مطروحة الآن بحدة، وهي موضع نقاش وصراع يتلخص في ان الوحدة الالمانية لا تقررها المانيا وحدها، وانما تتقرر أيضاً بالارتباط مع مصالح القوى والشعوب الأخرى التي تشعر بالقلق، وتسعى للحيلولة دون عودة خطر حرب جديدة تنطلق من المانيا بالذات. أما بالنسبة لنا فنعتقد ان الحق هو حق، وان اعتماد الديمقراطية هو المعيار.

س : إلى أي حد يعتبر دقيقاً ما يقال عن ان الصهيونية لعبت دوراً كبيراً في احداث اوربا

الشرقية، واحتلت مراكز متقدمة في الحكم هناك؟

ج - يصعب عليّ التعامل مع مثل هذه الطروحات. لكن، بصراحة، الاحظ اننا في البلدان العربية نبحث باستمرار عن مبررات لاخفاقاتنا، أو عدم قدرتنا على تجميع قوانا وطاقاتنا، وتشذيب أساليبنا، والارتقاء بها وبمهماتنا لتحقيق اهدافنا. ويرتبط البحث عن هذه المبررات أحياناً بمثل تلك الطروحات. لكن هذا لا يعني اطلاقاً التخفيف من خطر الصهيونية وقدراتها، ومن تشعب نشاطها، وسعيها الدائم لكي تتواجد في كل مكان، وخصوصاً في المواقع التي تستطيع من خلالها التأثير في سير الاحداث، فهل ان الاحداث والتطورات التي جرت كانت بفعل عامل تدخل صهيوني؟ هذا معناه ان العملية التي تحدثنا عنها في البداية، أعني عملية التجديد، باعتبارها تعبيراً عن ضرورة موضوعية، هي بالاساس عملية خاطئة بمعنى انها عملية ذاتية تحققت بفعل تدخلات صهيونية أو غير صهيونية، الأمر ليس هكذا بالطبع، فتلك العملية موضوعية كما أشرنا. أما ان هذه الجهة أو تلك تسعى لأن تنفذ من خلال الاحداث أو تؤثر فيها أو تستفيد منها فهذا أمر آخر. وعلى سبيل المثال يدور مثل ذلك الحديث ارتباطاً بقضيتين: الأولى قضية هجرة اليهود من الاتحاد السوفييتي بشكل خاص والبلدان الاشتراكية الأخرى. أما الثانية فقضية اعادة العلاقات مع اسرائيل أو البدء بذلك. من الطبيعي ان قضية هجرة اليهود ترتبط بالإعتراف المطلق بحقوق الانسان وحرياته التي جرى الحديث عن تجاوزات عليها في الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية ارتباطاً بالستالينية وفترة الركود... الخ، وهي حقوق وحريات لا تتجزأ. هذا بالطبع، ليس تبريراً للسياسة السوفييتية، ولا قبولاً بالهجرة، ولا تخفيفاً من خطرها، لكن حقوق الانسان لا يمكن تجزئتها كما ذكرت، أي لا يمكن ان يقال هذا ليس له حق لأنه يهودي وهذا ليس له حق لأنه عربي، وذاك لأنه اسود أو ابيض. فهذا الحق يجب ان يشمل كل انسان بغض النظر عن دينه، أو طائفته أو قوميته أو عقيدته، أو موقفه السياسي... الخ. وبهذا المعنى لابد من اطلاق حق السفر لكل مواطن وحق اختيار الوجهة التي يقصدها. لكن من الذي يمكن ان يستغل هذا الحق في هذا الظرف؟ الحركة الصهيونية تستغله لتشجيع الهجرة من الاتحاد السوفييتي. وهناك أيضاً دافع آخر لهذه الحركة وللاوساط المعادية لحركة التحرر، وهي أوساط معادية للاشتراكية في الوقت نفسه، وهذا الدافع يكمن في استثمار هذه الهجرة بالصيغة التي تضعف معنويات حركة التحرر الوطني العربية، وتضعف علاقاتها مع الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية، وتدفعها باتجاه الاستسلام للمخططات الامريكية والصهيونية بشأن القضية الفلسطينية وحل مشكلة الشرق الاوسط... الخ. أما نحن فنقع أحياناً، لشديد الأسف أسرى هذه المواقف، دون ان نتفحص موطيء قدمنا، وندقق مواقفنا من هذه الهجمة الاعلامية،

الفكرية، السياسية التي ترتبط من جانب بعملية التجديد الجارية برمتها، وبقضايانا مباشرة من جانب آخر.

لقد أكدت الاحزاب الشيوعية والعمالية في البلدان العربية على ضرورة بذل الجهود مع الاتحاد السوفييتي من موقع الصديق للضغط بكل الوسائل وعبر الامم المتحدة لايقاف توجيه الهجرة إلى الاراضي العربية المحتلة، وفضح دوافع اسرائيل والولايات المتحدة من وراء ذلك، وايقاف الرحلات مباشرة بين موسكو وتل ابيب، كما أكدت على قيام الاحزاب والجهات الشعبية والرسمية بكل النشاطات التي من شأنها توعية الرأي العام السوفييتي بطابع «حقوق الانسان» المزدوج فحق اليهودي في الهجرة لا ينبغي ان يكون على حساب حق الشعب العربي الفلسطيني، وان لا تؤدي ممارسة هذا الحق إلى خلق أوضاع خطيرة من شأنها تهديد السلم في المنطقة، وعرقلة الجهود المبذولة لعقد المؤتمر الدولي حول الشرق الاوسط. كما لابد من فضح التواطؤ الامريكي في تشجيع هذه الهجرة من خلال القرار المنافي لحقوق الانسان، بايقاف قبول المهاجرين اليهود إلى الولايات المتحدة الامريكية.

أما بخصوص القضية الثانية، أي الاعتراف باسرائيل، فقد ناضلنا ونناضل، نحن كشيوعيين، مع كل القوى التقدمية الأخرى لعزل اسرائيل. ونعتقد ان هذا العزل يرتبط بادانة الصهيونية والسياسة العدوانية لاسرائيل واحتلالها للاراضي العربية، إلى آخر ذلك من انتهاكاتها المعروفة. لكن ارضيتنا لاقناع الرأي العام بالمساهمة معنا في عزل اسرائيل أرضية هشة إلى أبعد الحدود. كيف يمكن ان نخاطب مواطناً سوفييتياً أو بولونياً أو المانياً أو... أو افريقياً بان عليه ان لا يعترف باسرائيل وان لا يقيم العلاقات معها في الوقت الذي نقبل فيه، نحن كعرب، ان يرتفع العلم الاسرائيلي في أكبر عاصمة عربية؟ هل هناك مصداقية في كلامنا أو نشاطنا؟ هل هناك مصداقية في وسائل اعلامنا العربية حين تحاول ان تحرض الرأي العام العربي على الاتحاد السوفييتي أو البلدان الأخرى؟ لكل واحد بالطبع، الحق في ان يحرض بالاتجاه الذي يريد. ولكن اذا أردنا ان ننطلق من المصداقية فكيف يمكن ان يجرى مثل هذا التحريض وكيف نأمل ان يكون هذا التحريض مقبولاً، في نفس الوقت الذي تتعامل فيه كل الحكومات العربية مع العاصمة التي يرتفع في سمائها علم اسرائيل، والتي يزورها المسؤولون الاسرائيليون متى شاؤوا، ويتبادلون الاحاديث مع مسؤوليها من مختلف المستويات؟ لاحظ ان هذا يحدث دونما ضجة، لكن اذا قام مسؤول صغير أو كبير من بلد اشتراكي بزيارة اسرائيل تقوم الدنيا ولا تقعد على هذا المسؤول وبلده. ومن جديد ولكي لا يكون هناك أي التباس فنحن لا نؤيد مثل هذا الموقف. وعلينا كثوريين وشيوعيين ان نتخذ المواقف الصحيحة التي تؤدي إلى نتائج صحيحة أيضاً، أعني

ان نساهم في العمل على عزل اسرائيل والضغط عليها وارغامها بمختلف السبل والوسائل للاقرار بحق الشعب الفلسطيني والانسحاب من الاراضي العربية، والقبول بالمؤتمر الدولي . . . الخ مما هو معروف من توجهات، ويجب ان يكون جوهر نشاطاتنا،بغض النظر عن بعض الممارسات التي لا تنسجم مع تطلعات أي شعب عربي، والتي تقوم بها هذه الدولة العربية أو تلك.

س : كيف ترون انعكاس سياسة البريسترويكا على العلاقات بين الحزب الشيوعي السوفييتي والاحزاب الشيوعية وحركات التحرر في البلدان العربية؟

ج ـ لابد ان نفهم أولاً ما هي طبيعة هذه العلاقات أساساً. المفروض انها علاقات رفقة كفاحية مشتركة، تتطلع إلى اهداف واحدة بالمعنى البعيد. ربما كانت هذه العلاقات تفسر أو تطبق، في الفترات السابقة، بطريقة مخلة، بمعنى عدم التكافؤ في هذه العلاقة، أي وجود مركز واطراف، أو احزاب تنظر إلى هذا المركز ساعية للانسجام في قراراتها وسياساتها وتوجهاتها مع المركز. اذا كان الحديث يدور عن هذا فان البريسترويكا تؤكد، وتسعى لتطبيق هذا التأكيد عملياً، على ان مثل هذه العلاقات يجب ان تبنى على أساس التفاعل، والاستقلالية، والمساهمة في الحركة الواحدة من مواقع مختلفة، وخصوصيات مختلفة، ومن خلال نفي أية وصاية في هذه العلاقة. هذا هو جوهر البريسترويكا من هذه الناحية. ولا اقصد بالطبع ان الشيء الذي كان يقال سابقاً هو الصحيح، لأن ذلك يرتبط بكل حزب واستعداده لأن يكون طرفاً مقابل مركز، أو ان يتفاعل ويتعامل في قضاياه من موقعه المستقل وخصوصيته الوطنية. أما على صعيد حركة التحرر الوطني العربية فقد انطلقت علاقة الاتحاد السوفييتي بفصائل هذه الحركة من التأييد والدعم بمختلف الأشكال، والأساليب، من التسليح، إلى تقديم الخبرات، والعون الاقتصادي، والتشاور، والتأييد السياسي، على الصعيد الدولي.

وعلى صعيد مجابهة هذه الحركة مع اعدائها، مع الامبريالية والصهيونية، فاعتقد ان دعم الاتحاد السوفييتي لحركة التحرر مرتبط أيضاً بمدى نجاحه في تحقيق اهدافه الطموحة لتعزيز وضعه الاقتصادي، أو تجاوز الازمة في مختلف الميادين، وخصوصاً في الميدان الاقتصادي، وانطلاقاً من مستوى هذا النجاح يمكن ان يكون دعم الاتحاد السوفييتي لحركة التحرر أكبر وأجدى وأعمق من السابق. ومن الطبيعي انه يمكن في الظروف الراهنة ان تتأثر بعض جوانب الدعم الاقتصادي بفعل تفاقم المشاكل والصعوبات التي ترتبط باعادة البناء في هذا المجال والمجالات الأخرى المرتبطة به. واذا كان الحديث يدور عن الجانب السياسي، فكثيراً ما يقال ان التفكير السياسي الجديد، المرتبط بالبريسترويكا، يعني من بين أمور أخرى، نزع سلاح حركات التحرر، أو اضعافها، من

خلال تحجيم دعمها ورفض كفاحها. أنا أعتقد ان هذا التصور لا يستند إلى واقع. من الطبيعي ان التفكير السياسي الجديد يؤكد على الاساليب السلمية، والمصالحات، والمفاوضات في حل المشاكل، إلا انه لا يتطرق، اطلاقاً، لحجب أو مصادرة حق أي شعب في النضال في سبيل استقلاله وتطوره، واختيار وجهة هذا التطور. دعني أكون أكثر صراحة فأتساءل: ما هي جوانب عملية التجديد التي ترتبط بقضايانا؟ هذا التجديد يؤكد على الديمقراطية والتعددية وحقوق الانسان ودولة القانون والديمقراطية، وعلى حق كل شعب في اختيار طريق تطوره، وعلى رفض العدوان على الصعيد الدولي. ويؤكد على ضرورة ايجاد قواسم انسانية مشتركة من خلال اولوية القيم الانسانية، وعلى نزع السلاح، ورفض الحرب، ومعافاة الحياة الدولية، ومساعدة الشعوب في التخلص من معاناتها بسبب مديونيتها. . . الخ ذلك مما هو معروف من اهداف يمكن التشعب في تعدادها. فما هو تأثير هذه الجوانب على حركة التحرر؟ هل هو تأثير سلبي أم ايجابي؟ بصراحة، ان المضمون الثوري لهذه القيم بالذات يشكل اضافة لدعم حركة التحرر واستنهاضها، والحديث يدور هنا عن حركات التحرر والقوى والشعوب التي تناضل في سبيل اقامة انظمة ديمقراطية مبنية على العدالة الاجتماعية، وحقوق الانسان، والدستور، والانتخابات الحرة. وعلى صعيد الدولة يجري التأكيد على حمايتها من أي عدوان خارجي، أو تطاول على استقلالها، ونفي عدم التكافؤ في العلاقات بينها وبين الدول الأخرى الأكثر تطوراً، وخصوصاً البلدان الصناعية أو البلدان الرأسمالية المتطورة. بهذا المعنى يدعم الاتحاد السوفييتي حركة التحرر. أما ان يرفض هو اللجوء إلى السلاح، فهذا لا يعني وقوفه مكتوف الايدي ازاء العدوان، أو تبرير هذا العدوان، أو عدم تقديم المساعدة لهذا البلد الضحية. لكن وسائل وأساليب الدعم التي يقدمها الاتحاد السوفييتي شيء يرتبط بالواقع الملموس. ثم ان ما جرى ويجري في الاتحاد السوفييتي و«البلدان الاشتراكية» خلق مناخاً عالمياً وخصوصاً في اوربا، بل وفي امريكا أيضاً، يستنكر ما لم يكن مستنكراً سابقاً، ويرفض العدوان والتدخل، أو التعامل مع الانظمة الدكتاتورية الاستبدادية، أو التجاوز على حق الشعوب. وهذه أيضاً قيمة اضافية يجب النظر اليها من زاوية العلاقات بين الاتحاد السوفييتي وحركة التحرر، وهي زاوية هامة جداً، يبقى علينا نحن مهمة استثمارها، والكيفية التي يجري بها هذا الاستثمار، وانطلاقنا لاعادة النظر في اساليبنا وشعاراتنا وتوجهاتنا لتحقيق اهدافنا في إطار هذا المناخ الجديد، ولتكريس هذا المناخ الجديد دون التخلي عن مواقعنا الفكرية والسياسية الصحيحة، وعن حقنا في استخدام كل الأساليب التي من شأنها ان تجسد تطلعاتنا، ومشروعية هذه التطلعات.

س : كثيراً ما يقال ان قيادات بعض الاحزاب الشيوعية قيادات ستالينية، إلى أية درجة

تنعكس البريسترويكا على هذه الاحزاب وقياداتها؟ ألا يخلق هذا مشاكل وتعقيدات في المجرى العام لتطورها؟

ج ـ الاحزاب الشيوعية في البلدان العربية ليست بمنأى عن مناخ الحركة الشيوعية كله. فهي جزء من هذه الحركة تتأثر بها وتتفاعل معها سلباً أو ايجاباً. وبالتالي فان ما عانت منه الحركة عانت منه الاحزاب الشيوعية كلها أو جزء منها بدرجات متفاوتة. وقد تأثرت هذه الاحزاب سلباً بما هو سلبي في البلدان الاشتراكية. ودفعت فاتورتها، ومع شديد الاسف دفعت هذه الفاتورة خارج الحساب، بمعنى انها لم تكن مسؤولة عنها إلا بالقدر الذي يصفها باعتبارها جزءاً من هذه الحركة. هل ان قيادات بعض الاحزاب أو كل الاحزاب وبدرجات متفاوتة كانت متأثرة بالنهج الستاليني في ميادين التنظيم والسياسة والفكر؟ كيف لا تتأثر وهي ليست في جزيرة معزولة؟ بل بالعكس، هي في نقطة احتدام وصراع عنيفة جداً. نعم لقد تأثرت بهذه الظاهرة التي كانت سائدة والتي ما تزال آثارها كبيرة حتى الآن.

س : كيف تقبلت ادخال الافكار الجديدة، ادخال الديمقراطية في الحزب؟

ج ـ اعتقد ان مفردة ادخال غير سليمة. الافضل والأدق ان نقول: تفاعل من موقع الخصوصية. ان على الحزب ان يعي ضرورات تجديد نفسه، والتخلي عن كل ما هو قديم وبالٍ ويعيق نضاله، كل ما لا يستجيب للواقع الذي يناضل فيه، وليس للتأثير فيه. والحزب الذي يسعى للمحاكاة والتماثل وليس التفاعل والتمايز من مواقع الخصوصية لا يمكن ان يكون جديراً بالتجديد أو قادراً على ان يتجاوز الواقع المتخلف الذي يتحرك فيه، أو انه سيظل، إلى هذه الدرجة أو تلك، على هامش الحياة السياسية. ان الحديث لا يدور عن ادخال البريسترويكا إلى الاحزاب، لأن هذا يعني عودة من جديد إلى التماثل مع المركز اذا صح التعبير، أو كما تقولون انتم في الصحافة. نحن نتحدث عن الاستقلالية والخصوصية، وعن السيماء الثورية المحيطة بكل حزب من الاحزاب، وبالحركة في منطقة متماثلة، ولا نتحدث عن التماثل والتطابق انطلاقاً من الشعور بموقع ثانوي في الحركة، والتعامل مع مركز من موقع طرف. هل هناك مقاومة للتجديد؟ نعم وهذه حقيقة من حقائق الحياة. اعتقد ان عدم التفكير والسعي والعمل للتجديد حينما تبرز ضرورات هذا التجديد بغض النظر عما يجري في الاتحاد السوفيتي هو الخلل الذي نعاني منه فالمسألة لا تتعلق باننا ينبغي الآن ان نجدد، والسؤال المطروح هو: هل كانت هناك ضرورات للتجديد ونحن تخلفنا؟ نعم كانت هناك مثل هذه الضرورات. بعض الاحزاب سعت لتجديد نفسها، ونجحت جزئياً. واحزاب أخرى احتاجت إلى هزة عنيفة لكي تشعر بضرورة التجديد. وهذه الهزة تمثلت في ما يجري في الاتحاد السوفييتي. وأشتدت هذه الهزة ارتباطاً بالتطورات الدراماتيكية في اوربا الشرقية، واهتزت بعمق أكبر ارتباطاً بصيغة

التغيير المتصـور لدى الكثيرين في رومـانيا حينمـا خرج الشعب بكـل تلاوينـه الفكرية والسياسية والاجتماعية لكي ينهي هيبة قائد فرد مثل شاوشيسكو. وتمثلت هذه الهزة أيضاً في طرح كثير من المسلمات الفكرية والتنظيمية على بساط البحث. فهل هناك، بعد كل هذا، احزاب وقيادات تقاوم؟ ربما، ولكن مثل هذه المقاومة ستكون عواقبها بالغة الخطورة ووخيمة، ليس على الحزب المعني أو القيادة المعنية، وانما على قضية الشعب المعني كله، ولابد ان تنعكس أيضاً على حركتنا.

الحق ان سؤالك يمكن ان يطرح بصيغة أخرى ليست صيغة مقاومة التجديد، وانما ما هي صيغة التجديد المطلوبة في حركتنا وفي احزابنا؟ هذا هو السؤال المطروح أمامنا الآن. وأستطيع ان اتلمس، كأي متتبع ومناضل يهمه مصير الحركة عموماً، مثل هذا السؤال، حيث يجري التفاعل في مختلف الاحزاب، ان لم يكن كلها بهدف الاجابة عنه. ان البحث جاد، ومنطلقاته هي اعادة تحليل معمق للمجتمع الذي يناضل فيه الحزب. واذا أردنا ان نتحدث عن الاحزاب مجتمعة فالصيغة المطلوبة للتجديد ان نتعمق في بحث التغيرات العميقة التي حصلت في بنية مجتمعاتنا العربية اقتصادياً، اجتماعياً، سياسياً، ثقافياً، هيكلياً، وفي مختلف الاتجاهات، وما افرزته هذه التغيرات العميقة من مظاهر كثيرة، وأحياناً خطيرة جداً تحتاج إلى أدوات وأساليب وشعارات وفهم جديد، اذا كنا حقاً ندرك ان علينا ان نستنهض كل ما هو ايجابي في مجتمعاتنا لكي نحقق برنامج الحد الأدنى لاحزابنا وحركتنا عموماً. وبهذا المعنى فان التجديد يتخذ موضوعاً له، السياسة والتنظيم والفكر وأساليب العمل وأساليب الحكم والتحالفات. . . الخ ذلك من القضايا الهامة لا منفردة، وانما مجتمعة، في ترابطها وفي تفاعلها وفي حركتها. وهذه كلها ميادين بحاجة إلى بحث ونقاش وتجديد. ويجب ان تكون عملية البحث والنقاش والتجديد فورية، فهي لا تتحمل التأجيل أو التأخير كثيراً. هناك جوانب من هذه الموضوعات آنية جداً. وعلى سبيل المثال يجري الآن حديث عن ان الاشتراكية اشهرت افلاسها خصوصاً في صحافتكم (الصحافة الخليجية)، وبالتالي فان على الشيوعيين والماركسيين ان يخلوا الساحة. وأنا اخاطب هؤلاء متسائلا: ما الذي يجري في البلدان الاشتراكية؟ قد لا يعرفون هذا على نحو دقيق وجوهري. صحيح ان ما يجري يعكس جانباً سلبياً وخطيراً في البناء الاشتراكي. لكن لاحظوا ما هو هذا الشيء الذي يجري وكيف ينعكس على نضالنا ونضال حركتنا وشعوبنا في البلدان العربية؟ وما هي الاهداف التي نناضل في سبيلها ونتعارض ونتقاطع فيها مع جوهر العملية التجديدية في الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية؟ يبدو لبعض من يتسمون بقصر النظر ان ما يجري كله سلبي- ان نظرتنا محكومة بالشعور بتخلفنا فيما يتعلق باطلاق الديمقراطية، وارساء دولة العدالة والقانون وحقوق الانسان من حرية التنظيم

والتعبير والنشر والصحافة . . . الخ . وهذا في الواقع هو جوهر ما يجري في الاتحاد السوفييتي . ونحن، نناضل في سبيل ماذا؟ بل قبل هذا، ما هو النقص الذي يعاني منه البناء الاشتراكي ويدور حوله النقاش الآن في الاتحاد السوفييتي والبلدان الأخرى وفي عموم الحركة في أوساط المنظرين والسياسيين؟ البناء الاشتراكي في مأزق. فالمركزية الشديدة والأمرية والبيروقراطية والجهاز إلى آخر ذلك من مصطلحات ليست هي الاشتراكية. وبتلك الاساليب لم يستطع لا الاتحاد السوفييتي ولا غيره من البلدان الاشتراكية ان يحقق برامجه، وبالتالي فهذه البلدان تبحث الآن عن طريق لتجسيد قيم الاشتراكية الحقيقية سواء في الميدان الاقتصادي أو الاجتماعي أو السياسي أو الثقافي أو الروحي. فالمسألة اذن تتعلق بفهم الاشتراكية وجوهرها الحقيقي. والسؤال الذي يطرح فيما يتعلق باحزابنا الشيوعية في البلدان العربية وفي عموم بلدان العالم الثالث: هل نحن نواجه الآن مهمة البناء الاشتراكي، وان الحياة اثبتت فشلنا، وعلينا بالتالي ان نخلي الساحة، ونترك مواقعنا الفكرية والسياسية؟ دعني أقول بصراحة: ان احزابنا تناضل في سبيل تحقيق أدنى سلّم من البرنامج الذي يجري النضال في سبيله في البلدان الأخرى، في البلدان الرأسمالية، وليس في الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية وحدها.

نحن نناضل في سبيل الديمقراطية، واقامة دولة القانون، في سبيل دستور دائم، وانهاء الاوضاع الاستثنائية، وان يكون للمواطن جنسية وجواز سفر، وهي حقوق أساسية يجري التجاوز عليها أو مصادرتها بشكل تعسفي مناف لأبسط حقوق الانسان والاعراف والقوانين. نحن نناضل في سبيل هذا كشيوعيين، وتقدميين، وأوساط أخرى، وكفصائل في حركة التحرر. فعن ماذا نتخلى اذن؟ وما الذي اثبت فشلنا؟ على العكس ان ما يجري في البلدان الاشتراكية يؤكد ويزكي سياستنا ويعطينا دفعة أقوى، لكي نشدد النضال في سبيل هذه الاهداف، لا لكي نتخلى عنها، ثم عن أية هوية نتخلى؟ ان المصابين بقصر النظر يقولون ان الاحزاب الشيوعية فشلت إلى درجة انها تخلت عن اسمائها (لاحظ التلاعب بعقول الناس). فنحن نعرف انه لم يكن في المانيا الديمقراطية حزب شيوعي بهذا الاسم، بل كان اسمه الحزب الاشتراكي الالماني الموحد الذي غير اسمه إلى حزب الاشتراكية الديمقراطية. وفي بولونيا يوجد حزب العمال البولندي، وهكذا الحال بالنسبة لهنغاريا. وهكذا فحتى على الصعيد الشكلي يجري السعي لتحطيم معنويات المناضلين، واشعارهم، أو محاولة اشعارهم، وخصوصاً الاوساط الأدنى وعياً، بدونيتهم النضالية. فهذا الفشل، حسب زعمهم يلاحقهم حتى فيما يتعلق بالاسم، وان الشيوعية والاشتراكية اصبحتا عاراً يجب التخلي عنه. والحال ان الاحزاب الشيوعية في البلدان العربية لها تاريخ مجيد ومعروف. ويرتبط هذا التاريخ بنضال هذه الاحزاب في سبيل أبسط

المطاليب التي يناضل في سبيلها أي مواطن يمتلك قدراً من الوعي : الديمقراطية الحد الأدنى من مستوى المعيشة اللائق بانسان ، دولة قانون ، دستور ، انتخابات حرة . . . الخ . وأحياناً يتواضع النضال إلى حد المطالبة بسجن وبمحاكمة اعتياديين بل ان هناك مناضلين يتطلعون لأن تكون لهم شواهد على قبورهم . فهل يعني هذا ان الاحزاب الشيوعية يجب ان تخلي المكان ولمن؟ المضحك في الأمر ان الدعوة لتخلي الشيوعيين عن مواقعهم تأتي أحياناً من اولئك الذين لا موقع لهم ، والذين ارتبط تاريخهم وارتبط وجودهم واسماؤهم وسياستهم بكل تلك المثالب التي لم تعد مقبولة في أي زاوية من زوايا العالم ، بل اصبحت تعبيراً عما هو أجدر بمزبلة التاريخ .

س : أشار الكثير من التقارير الصحفية ، وتقديرات المراقبين إلى انعكاسات التطورات في الاتحاد السوفييتي واوربا الشرقية على منطقة الشرق الاوسط ، ما هو في رأيكم ، حجم هذه الانعكاسات ، وكيف تتلمسونها؟

ج ـ هناك انعكاسات ايجابية لها مدلولاتها ، ولابد انها ستؤثر لاحقاً في نفس الاتجاه الايجابي . هل يمكن لمراقب أو مناضل مسؤول ان لا يقيم التطورات الايجابية التي جرت في عدد من البلدان العربية وبلدان الشرق الاوسط ، متأثرة ، من بين عوامل أخرى ، بما جرى في الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية؟

كيف يمكن ان نفهم ما يجري في الجزائر من انتقال من الحزب الواحد إلى التعددية ، والحياة الدستورية ، والسماح بالحرية للاحزاب دون استثناء؟ كيف يمكن ان نفهم ما يدور في الاردن من عودة إلى الحياة البرلمانية والبوادر التي تشير إلى احتمال اطلاق حرية الاحزاب؟ كيف يمكن ان نفهم هذا الذي يجري باشكال جنينية أحياناً ، وواضحة أحياناً أخرى ، حتى في بعض بلدان الخليج ، من مطالبة بحياة برلمانية ، وبديمقراطية ، وبارساء الدولة على أساس دستوري؟ بل كيف يمكن ان نفهم حتى ما يدور في تركيا من نزوع للانتقال ولو ببطء ، وتحت ضغوط كبيرة ، إلى الاقرار بالحقوق الديمقراطية ولو بشكل مجزأ؟ ان هذه التغييرات كلها ، وغيرها ، ليست بمنأى عما جرى ويجري في البلدان الاشتراكية والاتحاد السوفييتي . وان هذه التأثيرات ذات سمة ايجابية ، بمعنى انها لصالح الانسان وحقوقه ، لصالح القوى الديمقراطية والتقدمية ، لصالح اشاعة مناخ ديمقراطي لا مناص منه ، فالديمقراطية ، وكل ما يرتبط بها من القيم الأخرى ، اصبحت راية عالية جداً تلوح من بعيد وفي كل مكان . ومن الصعب جداً اغماض العين عن هذه الراية في كل المواقع . واذا كانت هناك انظمة تفكر حقاً في ان تستمر وتتواصل مع شعوبها أو ترتقي إلى مستوى التطورات الايجابية الراهنة ، فليس أمامها سوى ان تستجيب لتطلعات شعوبها وتتفاعل مع قوى مجتمعاتها في هذا الاطار . أما وسائل وأساليب القمع والاستبداد

والاستئثار بالحكم والانفراد بالسلطة والاعتماد على اجهزة الأمن والبطش، فاعتقد ان هناك أمثلة عديدة تفقأ العين تكشف ان هذه الوسائل والأساليب لن تحمي دكتاتوراً ولا جلاداً ولا نظاماً مهما بلغت قوته. لنلاحظ، لا من باب التشفي، ما جرى في رومانيا. فلا اجهزة الأمن ولا الحرس الخاص ولا الطائرات ولا الاقبية المدرعة، ولا أي من مثل هذه الوسائل استطاعت ان تحمي شاوشيسكو.

س : مادمنا بصدد رومانيا، كم هو دقيق القول ان هناك عرباً قاتلوا إلى جانب رجال الأمن الرومانيين؟

ج ـ افتراءات. . افتراءات جرى تكذيبها حتى من قبل الرومانيين. ويمكن القول انها افتراءات صهيونية، ومحاولة للاستفادة مما يجري لدق اسفين بين هذه البلدان والشعوب، وبين البلدان والشعوب العربية وحركتها التحررية.

س : قيل ان بعض المنظمات الفلسطينية المتطرفة مثل جماعة ابو نضال أو جماعة أحمد جبريل كانوا يتدربون على ايدي رجال المخابرات الرومانية أثناء وقوع الاحداث، وقد شاركوا فيها.

ج ـ لا علم لي بذلك، ولا أعرف شيئاً عنه. وبغض النظر عن كل هذا، فقد جرى تنظيم حملة محمومة ومسيئة ومقصودة ضد العلاقات العربية ـ الرومانية، بل وتجاوز الأمر إلى محاولات للاساءة إلى العلاقات العربية مع بلدان أخرى، هنغاريا، على سبيل المثال.

س : لنقل في الختام، ما هو مشروع المستقبل؟

ج ـ اذا كان الحديث يدور عن تطلعاتي فمشروع المستقبل بالنسبة لي ان نتحرى عن كل ما يعزز مواقعنا، ونحن نتحرك باتجاه تحقيق مجتمع العدالة والحرية والوفرة والديمقراطية الذي ناضلنا في سبيله، والذي سميناه المجتمع الاشتراكي. من الواضح ان ملامح هذا المجتمع اصبحت أكثر وضوحاً الآن، في بعض جوانبها، مما كان عليه الأمر في السابق. ومن بين هذه الملامح التي لا تقبل النقاش، في تقديري، هو ان الديمقراطية السياسية، الديمقراطية بمعناها الواسع وليس الضيق، تشكل أساساً لأي تحول اجتماعي، أو انتقال إلى مجتمع عدالة اجتماعية، أو لتحقيق منجزات اجتماعية، اقتصادية، سياسية. الحديث السابق الذي كان يدور حول التطور الاجتماعي بمعزل عن الديمقراطية اصبح في عداد الماضي الذي ينبغي ان ينتهي كلياً، مثلما اصبح احتكار الحقيقة هو الآخر، جزءاً من الماضي. ان على المجتمع ان يشترك بنسيجه المتكامل في بناء مجتمع الديمقراطية والعدالة، والتعددية السياسية والفكرية. ويجب علينا ان نفهم كيف نناضل في سبيل اهدافنا ونحن نتفاعل مع الآخرين بكل تلاوينهم، وان نعرف ان لكل منهم موقعاً يستطيع من خلاله دفع المجتمع إلى تحقيق الشيء الاعدل. ومن سيعرقل هذا التوجه سيضع

نفســه، موضوعياً، في الزاوية، وهكذا حال من يتخلف عن فهم متطلبات هذا التطور. يجب ان نسعى لأن يكون مشروعنا المستقبلي مشروع ديمقراطية وتعددية، وضمان حقوق الانسـان في مختلف الميادين، مشـروعاً يلغي اللجوء للسلاح لحسم خلاف فكري أو سياسي، مشروعاً يسعى لكي يجتث من الجذور تلك الأسس التي تشكل منطلقاً للاستبداد والطغيان. ويرتبط هذا المشروع المستقبلي بمعافاة الحياة الاجتماعية والفكرية، واضفاء طابع مرن على هذه الحياة، بحيث تستطيع مختلف القوى ان تختلف وهي تعمل بشكل مشترك، وان تقبل النقاش حتى حينما يتعلق بأكثر القضايا قدسية لدى الانسان. هذا هو تصوري للمشروع المستقبلي بخطوطه الأولية وتوجهاته العامة. واعتقد ان احزابنا مطالبة بان تصوغ هذا المشروع ببرامج وأدوات وأساليب وشعارات تجسده على نحو ملموس، وهو في حركتـه وتـطوره وفقـاً لمستجدات الحياة والواقع. ولا اخفي عليك اننا في كثير من العناصر المرتبطة بهذا المشروع المستقبلي مازلنا نراوح في مكاننا. وقد اجيب هنا على جانب من سؤال ورد سابقاً وأنا أشير إلى ان على بنية الاحزاب ان تعبر عن هذا المشروع، اذ كيف يمكن ان نتحدث عن ديمقراطية للمجتمع ونحن لا نصوغ حياة ديمقراطية داخلية في احـزابنـا؟ كيف نتحـدث عن مبدأ الانتخابات وضرورته، ونحن لا نستند في حياتنا الداخلية، إلى الانتخابات على سبيل المثال. ومع مراعاة كل الظروف الصعبة التي يعاني منها هذا الحزب أو ذاك، فان عليه ان يبحث عن الصيغة الملائمة لكل ظرف مهما كان صعباً. كيف نتحدث عن التجديد في المجتمع، ونهمل التجديد في المراكز المسؤولة باعتبارها ليست ابدية؟ ان هذه القضايا وغيرها مما هو أساسي وهام مطروحة أمام احزابنا.

س : يبدو اننا غطينا جوانب كثيرة من الموضوع. هل تعتقد ان هناك جوانب هامة لم نتناولها بعد؟ ماذا يمكنك ان تقول بشأنها؟

ج ـ الموضوع واسع ومتشعب جداً. من الصعب القول اننا غطينا أهم وأكثر الجوانب فمثلاً هناك جوانب تتعلق بتأثيرات العاصفة التي يمكن ان تهب على بلدان اوربا الغربية. الحديث لا يجري الآن عن هذا، بل يقتصر على الاتحاد السوفييتي وبلدان اوربا الشرقية. ويجـري استخـدام المجـريات والـوقـائـع بصيغـة سلبية، كما ذكرت، لاظهار افلاس الاشتـراكية المـزعـوم، والتغـطية على التفـاعلات العميقة التي تجري في المجتمعات الرأسمالية. والآن لم يعد فاعلاً ذلك التضليل حول بعبع الشيوعية الذي كان يجري الاستناد اليه في اوربا وامريكا وبلدان أخرى للتخويف بالشيوعية ودكتاتورية انظمتها وسلبها حقوق الانسـان. بل ان شعـوب البلدان الـرأسمالية بدأت تعي، بصورة أكبر، طبيعة واقعها، وتلمس بالتالي الثغرات حتى في انظمتها «الديمقراطية»، وستطرح العملية الديمقراطية في إطار النظام الرأسمالي بشكل أكثر جدية على القوى السياسية. لاحظ ان مآل التطورات

الجارية في البلدان الاشتراكية يرتبط أيضاً بالتناقضات المحتدمة داخل اوربا الغربية، وبينها وبين امريكا، وبين اليابان، وحتى داخل الاسرة نفسها بين بريطانيا وفرنسا وبين المانيا، سواء ما يتعلق بالوحدة الالمانية وكيفية التعامل مع هذا الجديد، أو ما يتعلق بالاسرة الاوربية المشتركة. . . الخ ذلك من قضايا مختلفة، ونحن لا نتحدث عن التأثير اللاحق للتسلح وعناصر المجابهة، فكثير من البلدان التي ترتبط بالاطلسي وبتحالف وثيق مع امريكا تحت واجهة الدفاع عنها أمام «الخطر الشيوعي» وخطر حلف وارشو، بدأت الآن تستيقظ وتبحث عن مخرج لها وتجد ان التبعية أو التحالف أو طلب الحماية لا يستند إلى أساس واقعي، خصوصاً وان التغيرات تجرى في الطرف الآخر باتجاه نزع السلاح، وانسحاب القوات السوفييتية من «البلدان الاشتراكية»، وتخفيض القوات عدة وعدداً. . . الخ ذلك من الاجراءات. وهذه العملية ليست سهلة.

س : ما هي خطورتها؟ ما هي أهميتها؟

ج ـ أهميتها تكمن في محاصرة احتكارات السلاح التي تستند، هي أيضا، إلى امتدادات لها، ليس فقط في البنتاغون، ووزارات الدفاع ومؤسساتها في هذه البلدان، وانما تتغلغل في نسيج المجتمع نفسه والدولة نفسها. بمعنى آخر كيف يمكن نقل هذه الصناعة العسكرية إلى صناعة مدنية، والخروج من دائرة البضائع الحربية إلى دائرة البضائع السلمية. ويمكن للمرء ان يتداعى أكثر فيصل إلى حد الحديث عن استيعاب هذه الطاقات الجديدة من حيث الاسواق والفائض، ومن حيث توزيع المهام والادوار في هذه البلدان نفسها. هذه كلها اشكالات مطروحة تؤدي بالنتيجة، إلى اصطفافات جديدة، واعادة توزيع للقوى.

ومن زاوية أخرى أيضاً نلاحظ الانفتاح الذي يجري بين الاتحاد السوفييتي سواء من جانب الحزب الشيوعي أو القوى الاجتماعية الأخرى، كذلك «البلدان الاشتراكية» الأخرى، وبين الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية وحركات الخضر. . . الخ، والبحث عن قواسم مشتركة نضالية، اجتماعية وسياسية، سواء في ميدان النضال من أجل السلم أو حقوق الانسان أو وجهة تطور المجتمع، ان هذا الانفتاح والتفاعل هو شكل من أشكال اعادة توازن القوى أو اعادة الاصطفاف على الصعيد الدولي. هذه تأثيرات كبيرة تتعدى حدود اوربا لتترك بصماتها على العالم الثالث الذي سيشهد بفعل هذه التأثيرات، وعوامل أخرى أيضاً، نهضة باتجاه التكاتف وصياغة مهام للحركات والاحزاب وللدول أيضاً لكي تتعامل من مواقع الدفاع عن مصالحها، وعن تطورها اللاحق، مع هذه المستجدات نفسها، وتلعب دوراً مؤثراً في السياسة الدولية في المرحلة الجديدة. ويمكن لبلداننا العربية ان تلعب دوراً استثنائياً اذا ما جرى استنهاض كل القوى شعبياً ورسمياً.

في الحقيقة هناك متغيرات كثيرة، ومن المؤسف ان الجهاز الاعلامي الاخطبوطي الهائل، الذي لم تعد تحده حدود، يركز على جانب واحد من هذه العملية، هو جانب النواقص، والاخفاقات، والتراجعات، والفشل . . . الخ ذلك مما يجرى عكسه في وسائل واجهزة الاعلام . وأرى ان من واجب الصحفيين الذين يتمسكون بشرف المهنة، والضمير، والمسؤلوية المهنية العالية، ان يتصدوا لهذه المهمات، على الصعيد العربي في الأقل، وان يبرزوا عملية التجديد بكل جوانبها، بكل ترابطاتها وتناقضاتها، ومآلها، وتأثيرها على قضايانا أيضاً.



المركزية الديمقراطية والحياة الحزبية الداخلية

د. حميد بخش

انـا أمـام منعـطف تاريخي في الحياة الاجتمـاعية لكل البشرية. وخلال العقود السبعة ، بل منذ انشاء الاممية الشيوعية، تحتم على الحركة السياسية الطليعية للبروليتاريا في العالم ان تلعب دوراً رائداً فعالاً في حل قضايا المجتمع البشري من خلال النضال لتصفية الاستغـلال الـطبقي والاجتماعي والقومي. وهذه المهمة تستلزم تمكين الحركة الشيوعية وفصائلها ان تكون بمستوى الانعطاف العالمي للمجتمع الانساني وفي طليعة التغيرات التي يمليها هذا الانعطاف. هل نحن بهذا المستوى؟ ١) علينا ان نعترف بوجود ازمة في هذه الحركة وتتعرض لها كل فصائل الحركة بدرجات مختلفة. ٢) هناك اجماع تقـريباً على تخلفنا من جهة، وسرعة وديناميكية للتطور الاجتماعي بكل جوانبه من جهة أخـرى، ممـا أدى إلى ازدياد واتساع الهوة بين واقعنا وبين متطلبات التطور الاجتماعي والدور الذي يجب ان نؤديه فيه. و٣) اننا لسنا بمعزل عن الصراع بشأن وجهة هذا التطور،

* مداخلة «المـائدة المستديرة الدولية» بشأن العلاقات الحزبية الداخلية التي نظمت من قبل «مركز بناء الحـزب» في اكـاديمية العلوم الاجتمـاعية وادارة المجتمـع التـابعـة للجنة المركزية للحزب الشيوعي البلغـاري، والتي ساهم فيهـا علمـاء من الاتحـاد السـوفييتي وبلغـاريا والمـانيا الـديمقراطية وبولونيا وجيكوسلوفاكيا ومنغوليا. - ٢٦ - ٢٨/١١/١٩٨٩

بل اننا طرف أساسي فيه . وأكثر من ذلك اننا هدف وموضوع في هذا الصراع ، فهناك قوى اجتماعية كبيرة ومتمكنة تريد انَ تمنعنا من اداء دورنا أو تعيقه من خلال قدراتنا على اداء هذا الدور.

وعليه فالمتغيرات المنشودة التي دشنت اعادة البناء بدايتها هي عملية موضوعية. بيد اننا ما زلنا لم نستوعب كامل هذه الضرورة الموضوعية ومستلزماتها. ومع ذلك فاننا رغم المصاعب والتعقيدات والتناقضات، بما فيها التناقضات داخل كل فصيل من فصائل حركتنا الشيوعية، نمتلك العزم على السير وفق منطق التاريخ، أي باحداث انعطاف في كل شيء يخص الحزب: مفهوم الحزب، طبيعته وطابعه، اهدافه ومهماته، افكاره وسياساته، شكل تنظيمه وتنظيم حياته الداخلية، اغناء وتجديد محتوى نشاطه وادارته المثلى وزيادة فاعليته وتصحيح منطلقاته وتغيير وتجديد اساليبه.

يدور النقاش في أولوية هذا الميدان أو ذلك الميدان من ميادين الحياة الاجتماعية. وهذا أمر في غاية الأهمية، رغم انها جميعها تضعنا أمام مهمة النظرية الشمولية والحلول الشمولية واللجوء إلى المنطلق المركب في مناقشة وتحديد وحلُ مهماتنا في مجموع هذه الميادين.

ورغم ذلك، ومن أجل تحقيق هذا التوجه الشمولي، فان المهمة الأولى هي: كيف نجعل احزابنا بمستوى المهمات التاريخية في عهدنا الانعطافي؟. ها هي الحياة، والتطورات في البلدان الاشتراكية وفي مختلف بلدان العالم، تطرح مهمة اعادة بناء كل حزب شيوعي.

من أين نبدأ؟ لا أعتقد ان أي حزب قادر على ان يرسم سياسة صحيحة ويطبق سياسة آيديولوجية صائبة معللة علمياً تواكب وتستجيب لمتطلبات الوضع وآفاق تطوره، دون تغيير واعادة بناء التنظيم الحزبي. أعتبر ذلك مفتاح لحل مهمة الارتفاع بقدرة الاحزاب الشيوعية إلى مستوى تحديات الزمن.

ولعل هذا هو السبب في بحث مسألة (العلاقات الحزبية الداخلية) بوصفها اداة لبعث الحياة في الحزب، ككيان حي، يستطيع التكيف مع حاجات الظروف المعاصرة ويؤثر في تطورها وفقاً لرؤيته الماركسية ووفقاً لامكاناته.

هل يمكن الحديث عن العلاقات الحزبية الداخلية، تخلفها أو تطورها، دون بحث أحد المبادىء الأساسية لبناء تنظيم الحزب وتنظيم حياته الداخلية وتحقيق وتنظيم العمل القيادي في الحزب وادارة وتنظيم وانجاز نشاطه المتعدد الوجوه؟ هل يمكن بناء علاقات حزبية داخلية صائبة ومؤثرة بدون القاء نظرة تحليلية انتقادية على ممارستنا لهذا المبدأ وتشخيص مواقع الخلل فيها؟ هل ان مبدأ المركزية الديمقراطية لم يعد نافعاً ولماذا؟ أم ان

الأخذ به ما زال ضرورة، ولماذا، فهل تشكو الممارسة من النقص والأخطاء والانحرافات والتشويهات؟ هل يحتاج هذا المبدأ اغناء محتواه وأشكاله وأساليب ممارسته وتحسين آلية تحقيقه؟

يكثر الحديث، بل ويكثر الضغط على الاحزاب الشيوعية للتخلي عن هذا المبدأ وكأنه علة العلل، ويجري بشكل واسع الحديث عن اضرار الأخذ بهذا المبدأ بتطور الاحزاب الشيوعية، وانه مبدأ يتنافى مع الحاجة الموضوعية لتطوير الديمقراطية في الحزب وفي المجتمع. هل هذا صحيح؟

حسب اعتقادي ان قبول هذه الافكار بمثابة الوقوع في الفخ. وان هذه الاحاديث ليست سوى لعب مع العلم. ان المركزية الديمقراطية مبدأ صيغ لا لرغبة ذاتية وبصورة اعتباطية. انه مبدأ صيغ وفقاً لمتطلبات الضرورة الموضوعية وبالاستناد إلى العلم. فكل نظام system في الطبيعة أو في المجتمع له مركز (وحتى منظومة من الأفكار والايديولوجيا كنظام من افكار هناك فكرة قائدة تخضع لها أو ترتبط بها أو تتفرع منها الأفكار الأخرى) أقول ذلك لأنني أفهم جوهر مبدأ المركزية الديمقراطية في الحزب هو ان عليه ان يؤمن وجود مركز واحد مقتدر له مواصفاته وخصائصه ويعبر عن رأي وارادة ونضج كل الحزب ومخول من قبله، وبما يؤهله لقيادة الحزب.

انا انطلق من فهمي وتصوراتي عن تحديد تعاليم الماركسية اللينينية لمبدأ المركزية الديمقراطية:

أولاً - انا لا أفهم المركزية الديمقراطية كمبدأ ذي جانبين، أو وجهتين، أو عنصرين. أنا أفهمه انه مبدأ واحد جوهره المركزية وأساسه الديمقراطية، أي انه يظهر في الميدان التنظيمي وفي البناء التنظيمي للحزب بوجود مركز موحد يتألف وينشط ويؤدي وظائفه ويتطور على أساس الديمقراطية. ان الفصل بينهما كالفصل بين البناء وأساسه.

وثانياً - وأفهم انه كلما تطورت الحياة الاجتماعية وتعقد محتوى تطورها واتسعت آفاقه ووجهاته، واتسعت واشتدت حدة التناقضات في عملية هذا التطور، أملت الضرورة الارتفاع بدور الحزب واتساع وظائفه وتعقد وتشعب مهماته، وهذا يفترض ويملي ضرورة تطور مركزه القيادي على أساس توسيع قاعدة الديمقراطية وتوسيع وترسيخ الأساس الديمقراطي لقيادة الحزب وحياته ونشاطه. ان الممارسة المتطورة لهذا المبدأ تعني تغيير المركزية واغناء محتواها على أساس توسيع اسسها الديمقراطية، وبكلمة أخرى تطوير ممارسة هذا المبدأ، بوصفه مبدأ واحداً.

كان لينين واضحاً في هذا الشأن، وأقتبس هنا نصين:

أولاً - «اننا إلى جانب المركزية الديمقراطية، وينبغي ان يفهم بوضوح كم تختلف المركزية

الديمقراطية عن المركزية البيروقراطية من جهة، وعن الفوضوية من الجهة الأخرى»[1].

وهنا يؤكد لينين الفرق بين المركزية في الحزب الشيوعي وبين الانواع الأخرى من المركزية في الاحزاب الأخرى، الفرق بين المركزية الديمقراطية في الحزب الشيوعي وبين المركزية البيروقراطية، وبينها وبين الفوضوية وما شابهها في احزاب الطبقات الأخرى من احزاب البرجوازية والبرجوازية الصغيرة، الاحزاب المسماة بالليبرالية والاحزاب الفاشية. ان المركزية في الحزب الشيوعي ديمقراطية في جوهرها وأسسها وكي تستلزم أوسع أشكال الديمقراطية عند تأليف القيادة المركزية والقيادات المحلية وتوزيع المسؤولية في الحزب وتسيير وتنظيم الحياة الحزبية ونشاط الحزب والعمل القيادي في الحزب. أي ان ما أراده لينين، ومن قبله ماركس وانجلز، ومارسوه في التطبيق العملي لهذا المبدأ في تنظيم المنظمات البروليتارية الأولى وفي الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي (البلاشفة). ان يبنى الحزب ويدار ويقاد وينظم حياته ويسير نشاطه على أعلى شكل من الديمقراطية وبحيث يطلق لأقصى حد طاقات وقدرات كل الحزب وكل منظمة وكل عضو فيه.

ثانياً - «نندافع في مطبوعاتنا دائماً عن الديمقراطية الحزبية الداخلية، لأننا لم نتحدث يوماً عن التمركز في الحزب. اننا مع المركزية الديمقراطية»[2].

ان لينين هنا واضح في تحديد القضية الهامة بالنسبة للحزب، وهي التمركز، وفي تحديد الصلة بين الديمقراطية الحزبية الداخلية والمركزية، بين البناء وأساسه، بين المبدأ وبين قواعد تنفيذه التي تؤمن أعلى فاعلية للتمركز الضروري. فمبدأ المركزية الديمقراطية شيء والديمقراطية الحزبية الداخلية شيء آخر. وهذا ما يجري الخلط بينهما لدى الكثير من الباحثين الأمر الذي يوحي برفض المركزية في الحزب حتى بطبيعتها وجوهرها وأسسها الديمقراطية. ان هذا وهم لا تأخذ به تلك الاحزاب التي تتباهى بتخليها عن المركزية الديمقراطية، فلكل منها مركز قيادي واحد وليس مركزين، وإلا فانها بدون مثل هذه المراكز تكف عن ان تكون احزاباً، كانظمة واحزاب سياسية بالمعنى العلمي والسياسي للحزب.

بالطبع لقد خرق مبدأ المركزية الديمقراطية وشوه واسيء استعماله حتى اثار الكره والاستمئزاز ازاء هذا المبدأ الذي هاجمته وتهاجمه الاشتراكية الديمقراطية والديمقراطية البرجوازية والفوضوية البرجوازية والثورية البرجوازية الصغيرة وجميع اعداء الشيوعية، بهدف ان لا تبقى الاحزاب الشيوعية احزاباً شيوعية حقاً، كطليعة سياسية وديمقراطية للطبقة العاملة وللمجتمع الاشتراكي.

ان الحياة، والمرحلة الانعطافية في التطور الاجتماعي، وهدف النهوض بالاحزاب الشيوعية من حالة الركود والتخلف عن حاجات هذا التطور وإلى مستوى مستلزماته وضرورة اداء دورها الفاعل والهادف فيه، كل ذلك يتطلب:

أ ـ ازالة التشويهات لمبدأ المركزية الديمقراطية.

ب ـ التوضيح الصحيح للتصور والفهم اللينيني لمبدأ المركزية الديمقراطية.

ج ـ التفتيش عن الصيغ الملائمة لتجسيد هذا المبدأ التي تتوافق مع الظروف الجديدة، أي اغناء محتوى المبدأ وأشكال ممارسته وفقاً لتطور المهمات وتعقدها أمام الحزب، ولسد الطريق والثغرات التي توفر امكانية اعاقة الحزب من اداء دوره من خلال مصادرة الديمقراطية والاخلال بقوة تنظيم الحزب وقدرته الكفاحية ووحدته، ومن خلال تلك القواعد والتقاليد، المسجلة أو غير المسجلة، التي تسهل تسنم المراكز القيادية في الحزب على مختلف المستويات من قبل عناصر تفتقر إلى الطاقة والكفاءة والمبدئية والقيم الأخلاقية الشيوعية وتسهل بقاءها وتقوقعها في هذه المراكز بأساليب البيروقراطية والتعسف والخداع والافساد.

قلت ان المركز يجب ان يتألف ديمقراطياً، كيف ولماذا؟ انه

أ ـ يجب ان يعبر عن نضج الحزب والرأي العام الحزبي وارادته ويخضع لرقابته وتأثيره المتواصل دون انقطاع.

ب ـ يجب ان يكون قادراً، من حيث الكفاءة والمؤهلات والهيبة (وليس بقوة السلطة) والخصال الاخلاقية وقوة الاتصال والتعامل مع قوى الحزب ومع الجماهير، على قيادة الحزب ومنظماته وميادين نشاطه.

ج ـ يجب ان تحدد آلية تأليف قيادة الحزب وتأمين وحدتها بطريقة ديمقراطية، وآلية فعالة لتنظيم العمل القيادي ولتأمين تطور كفاءاته وقدرته على الاستجابة للمتغيرات في الحياة الاجتماعية وفي وضع وتطور الحزب، وفي الشكل الذي يمنع تحول المركز من أداة للقيادة بالطريقة الديمقراطية إلى مركز بيروقراطي للقيادة الأمرية، وتجمع للاتباع والمنتفعين ذوي الامتيازات، إلى مركز متخلف متخلخل عاجز لا يستطيع دفع الحزب دائماً إلى موقع الطليعة السياسية المتطورة على الدوام.

د ـ تشخيص الوسائل والاساليب التي تؤمن للجماهير الحزبية ان تؤثر في تركيب المركز القيادي وتطويره وتغييره والتأثير في نمط عمله والرقابة عليه.

هـ ـ تشخيص الوسائل التي تؤمن ارتباط القيادة بالحزب وبالطبقة وبجماهير الشعب وقدرته على متابعتها لتطور الظواهر والعمليات في الحزب والمجتمع والتكيف مع حاجات التحولات فيها، بما في ذلك تأمين نظام دقيق للمعلومات الحزبية بالاتجاهين الصاعد والنازل يستبعد المعلومات المزيفة والمزوقة وغير الموضوعية التي أضرت بالعمل القيادي والحزب نفسه.

هذه وغيرها من المستلزمات تشكل جانباً هاماً من وجهات العمل لتطوير العلاقات

الحزبية الداخلية .

لتطوير هذه العلاقات الهامة التي تؤمن للحزب الحياة النابضة والتفاعل الايجابي الداخلي ، والتفاعل والتأثير المتبادل بين الحزب والمجتمع ، من الضروري ان تتناول دراستنا الأمور التالية وبهدف التوصل إلى تشخيص ما ينبغي اغناؤه من مفاهيمنا وما نأخذه ونسجله من قواعد وضوابط بشأن هذه العلاقات وما نشخصه من اجراءات ملموسة لرفع مستوى فاعلية العلاقات الحزبية الداخلية :

أ ـ المسائل المتعلقة بالمركز القيادي ومستلزمات تقويته وتطويره المتواصل والتصاقه بالحزب ، وبمبادىء القيادة .

ب ـ قواعد الديمقراطية الحزبية الداخلية والحياة الحزبية الداخلية ، تأمين التعددية في الآراء داخل الحزب وحدودها ارتباطاً بتأمين وحدة فعالة غير شكلية للحزب ، وتطوير مفاهيمنا ومسالكنا بشأن الأكثرية والأقلية ، بالتأكيد على احترام رأي الاقلية وحقها في الدفاع عن آرائها وتحديد وسائل وأشكال وأساليب ذلك .

ج ـ التحديد الواضح للصلاحيات والواجبات لكل الهيئات الحزبية ابتداء من المؤتمر حتى أصغر منظمة حزبية سفلى ، وبما يؤمن اشاعة الحيوية في كل هذه الهيئات وعند جميع اعضائها ، وخضوع اللجان ومكاتبها إلى ارادة المنظمات الحزبية ورقابة ورأي اعضائها . . . الخ .

د ـ ايجاد التوازن الصحيح بين المركزية واللامركزية في الحزب ، بتأمين حق المنظمات الحزبية بحل واقرار المسائل الخاصة بها وبمحيطها بصورة مستقلة في إطار الخط العام للحزب بعيداً عن البيروقراطية والأمرية مع ضمان حق الهيئات العليا في تجميد أو الغاء قرارات الهيئات الدنيا اذا ما تناقضت مع الخط العام للحزب .

هـ ـ سياسة الكادر والعمل مع الكادر ، وكيفية تأمين دور ومكانة المنظمات الحزبية واعضائها في اختيار وتقديم وتوزيع الكادر وفي تقييمه وتجديد تركيبته وتطهيره من العناصر غير النافعة والعاجزة ، أي باشاعة الديمقراطية والرقابة الفعالة للرأي العام الحزبي على تنفيذ كامل سياسة الكادر .

و ـ تحديد الشكل الفعال والمرن للهيكل التنظيمي للحزب والعلاقة المتبادلة بين اجزائه ، وبما يؤمن قوة وفاعلية وحيوية كل حلقة منه وكامل الهيكل الحزبي .

ز ـ المسائل المتعلقة بعضوية الحزب ، طريقة الاختيار والقبول ، الحقوق والواجبات ، مواصفات عضو الحزب ، التوازن الصحيح في التركيب الكمي والنوعي والتركيب الاجتماعي للحزب ، نقاوة صفوف الحزب وتطهيرها من العناصر الفاسدة والغريبة والمسيئة والوصولية والخ ، وتأمين آلية تأثير القاعدة الحزبية على حياة ونشاط ومصير الحزب

وتطوره وعلى العمل القيادي ، وأخيراً لتأمين مساهمة كل عضو في الحزب في رسم وتنفيذ السياسة الحزبية ، ومسؤوليته عن الحزب ومسؤولية الحزب عنه .

ح ـ توسيع اشكال الرقابة المتبادلة وتنشيط الرقابة الذاتية .

ط ـ تحديد آلية عمل نظام المعلومات في الحزب .

في تحديد واغناء هذه المسائل ، حسب اعتقادي ، يمكن الحديث عن تطوير العلاقات الحزبية الداخلية ، من أجل ان يعمل الحزب ككيان حي سليم معافى متطور ذاتياً .

(١) الاحتمال الأول لمقالة المهمات الراهنة للسلطة السوفييتية ، مجلد ٣٦ ، ص ١٤١ ، المؤلفات الكاملة ، أ. ف لينين .

(٢) رسالة إلى سكرتير وحدة الدعاية الاشتراكية ، الملفات ، مجلد ٢٧ ، ص ٧ .

رؤية جديدة لدور الشيوعيين في «العالم الثالث»

أحمد دانسوكو *

كانت نهاية شهر آب ١٩٦٨ ساخنة في براغ. وبدا ان دروع الدبابات السوفييتية التي ملأت المدينة ستشرع بالانصهار، وقد تمركزت احداها مقابل المدخل الرئيسي لمقر مجلة «قضايا السلم والاشتراكية»، حيث كنت امثل حزبي في ذلك الوقت. ولم يكن الجو داخل المبنى نفسه أقل توتراً، اذ كانت المناقشات حامية حول كيفية تقويم دخول جيوش خمسة من بلدان حلف وارشو إلى تشيكوسلوفاكيا، وماهية العواقب التي سيخلفها هذا العمل على الشيوعيين والقوى التقدمية في كل العالم وعلى مصائر الاشتراكية.

وتحدد موقفي الشخصي انطلاقاً من اني انتسبت إلى الحزب الماركسي الفتي حينذاك في بلادي في موجة الحماسة والآمال التي ولدها في عام ١٩٥٦ المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفييتي وفضح عبادة شخصية ستالين. ودفعتني القناعة العميقة فيما يترتب من اضرار على الاجتياح العسكري لبلد ذي سيادة، تحت راية الدفاع عن الاشتراكية، إلى ارسال برقية تضامن إلى قادة تشيكوسلوفاكيا والحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي حينذاك أ. دوبتشك، ل. سفوبودا، أ. تشرنيك وي. سمركوفسكي.

اعتقد ان رفاقنا اليوم في العديد من البلدان الاشتراكية يعانون محنة قاسية لانهم ثبتوا دورهم القيادي في دساتير بلدانهم وكفوا عملياً عن النضال من أجل كسب الجماهير، وفي سبيل ان تبقى افكار الاشتراكية وممارستها جذابة في عيون الناس. ولكني كنت في عام

* السكرتير العام للجنة المركزية لحزب الاستقلال والعمل السنغالي.

١٩٦٨ في تشيكوسلوفاكيا واثقاً، وأنا على ثقة اليوم أيضاً، من ان الاشتراكية هي حاجة موضوعية لتطور المجتمع وانه لا يمكن ارجاع العملية التاريخية إلى الوراء. وكان «ربيع براغ» أول محاولة لاشاعة الديمقراطية والانسانية في المجتمع الاشتراكي، الأمر الذي اختارته الاكثرية الساحقة من التشيك والسلوفاك. وقد قطع الاجتياح هذه المحاولة وهزني بصورة عميقة، اذ ان تثبيت حق الاقوى يتناقض مع كل ما نهلتُه من الماركسية.

حتى عام ١٩٦٨ تمكنت الحركة الشيوعية من التغلب على بعض الخلافات الجدية داخلها. واقتربت مواقف أكثرية الاحزاب على قاعدة الاعتراف بان مسألة الحرب والسلام هي المسألة الرئيسية في العصر النووي، الأمر الذي يحتم التأييد الكامل لجهود الاتحاد السوفييتي الهادفة إلى الانفراج الدولي وتعزيز الأمن الشامل.

ولكن اجتياح تشيكوسلوفاكيا بدّل على نحو كامل تصور ملايين الناس حول السياسة السوفييتية. وكان هذا يعني بوضوح الطلاق مع افكار المؤتمر العشرين ومع نهج الاصلاحات في الاتحاد السوفييتي. واصبح ذلك واضحاً جداً في اواسط السبعينات، حيث حل الركود الذي اقترن بقمع كل الآراء الأخرى.

وفي المجال النظري تمت العودة إلى الموضوعات القديمة حول ان بناء الاشتراكية يتطلب التكاتف ووحدة الآراء والتناولات. ونشأ تناقض بين رؤية الشيوعية بوصفها انعتاقاً وتحرراً كاملاً للانسان وبين القمع الواقعي لحقوق الفرد وحرياته على الطريق الذي تم وصفه بانه طريق التقدم نحو هذا المثال.

ان اضفاء صبغة واحدة موحدة على المجتمع السوفييتي لم يؤثر تأثيراً شديداً في المجال السياسي فحسب، بل وفي الاقتصاد والعلم والثقافة أيضاً. وساد النفاق والاستهتار اللذان يظهران بصورة حتمية عندما يحرم الانسان من امكانية التعبير بحرية عن آرائه وعندما يكون مقموعاً وخائفاً. وانطوى كل فرد على نفسه وانحسرت قدرات الناس الخلاقة إلى دواخلهم، وكان ذلك خسارة للبناء الاشتراكي.

هذا ما رأيته في تشيكوسلوفاكيا أيضاً في فترة ما يسمى «التطبيع». اذ ان الشعب، الذي انجرحت أرقّ مشاعره واصابته أعمال العنف والتنكيلات التي أعقبت ذلك ضد أفضل ممثليه، انطوى على نفسه.

زد على ذلك ان الاجتياح لم يكن مبرراً، فما عدا بعض الشعارات غير المسؤولة لم نلاحظ خلال فترة «ربيع براغ» أية مظاهر حقيقية معادية للشيوعية وللسوفييت. لقد كنا نعيش ونعمل مع رفاق سوفييت ونقضي معهم أوقات الفراغ. ولم نواجه أي عداء في شوارع براغ.

وحتى بعد دخول الجيش إلى براغ وعندما تم اقتراح اجلاء عائلات العاملين الاجانب في المجلة إلى الاتحاد السوفييتي لغايات أمنية رفضت ارسال زوجتي وابنتي الصغيرة إلى موسكو لأني كنت واثقاً ان التخريب لن يحدث على الرغم من شعور المرارة والسخط لدى سكان براغ. وتبين اني كنت على حق.

ومن المفهوم اني شعرت بالارتياح عندما قرأت في كانون الأول ١٩٨٩ بيانات البلدان الخمسة والحكومتين السوفييتية والتشيكوسلوفاكية، التي تدين التدخل الفظ في شؤون تشيكوسلوفاكيا الداخلية قبل ٢١ سنة. ولكن هذا الارتياح لا ينبع فقط من انتصار العدالة التاريخية. ذلك انني اعتقد ان اعادة التقويم الانتقادي لخطأ الماضي الفادح تشكل مساهمة مهمة في تطهير كل الحركة الشيوعية من مخلفات الستالينية ومرحلة الركود التي اضعفت، للاسف، إلى حد بعيد، نفوذ الشيوعيين وافكار الاشتراكية في نظر الشعوب.

من الواضح تماماً ان حركتنا، أو بالاصح مجموعة الاحزاب الشيوعية والعمالية، تعاني اليوم ازمة فعلية يمكن ان تكون الأعمق في تاريخها المتنوع والعاصف. لقد شملت، خلافاً للازمة السابقة في الستينات مثلاً، كل الاحزاب تقريباً في البلدان الاشتراكية والرأسمالية المتطورة والبلدان النامية. يمكن لأحد الاحزاب ان يتقدم إلى الامام في مرحلة معينة، ولكن النجاحات، بما في ذلك في الانتخابات، تبدو مؤقتة لأننا لا نستطيع في أي مكان فرض استقرارها وتثبيتها لفترة طويلة، والعديد من الاحزاب التي كانت بعد الحرب ضد الفاشية قوى وطنية كبيرة، اصبحت اليوم قوى هامشية.

من الغريب ان حزباً جماهيرياً ومؤثراً ومفكراً كالحزب الشيوعي الايطالي يعاني مصاعب أيضاً. اذ ان العديد من المبادىء النظرية التي يمكن الاطلاع عليها اليوم في مقالات ميخائيل غورباتشوف وخطبه تجدها بهذا الشكل أو ذاك في أعمال بيرلينغوير. ان هذا السياسي والمفكر يستحق احتراماً عميقاً لأنه وان لم يستطع تقديم حلول للقضايا التي يطرحها الواقع المعاصر فقد تنبأ بظهورها على أية حال. وعلى الرغم من ذلك فان الحزب الشيوعي الايطالي يراوح في مكانه. ولا دليل على ان هناك اندفاعاً جدياً إلى الامام.

وفي «العالم الثالث» ثمة بعض الاحزاب الكبيرة حقيقة. ولكن يجب ان لا نصاب بالغرور: فلسنا نحن من يحدد سير الاحداث اليوم ابداً. ان هناك قوى أخرى، بما فيها الاحزاب البرجوازية، هي التي تضطلع بالدور المقرر في مصائر البلدان التي تعيش فيها أكثرية البشرية.

ولم يعقد السير التاريخي للاحداث في البلدان الاشتراكية أعمال الشيوعيين في كل

العالم فحسب، بل وولّد أزمة معينة في المثل أيضاً. وخلال السنوات العشر التي تفصلنا عن القرن الحادي والعشرين لا يمكن ان ننظر إلى الشيوعية بالشكل الذي تصوره ماركس ولينين والتجرد من كل ما هو جيد وسيء حصل خلال السنوات التي تفصلنا عن ثورة اكتوبر.

اعتقد ان البريسترويكا وحدها يمكن ان تنقذنا جميعاً. ولكن تأثيرها متناقض. فهي من جهة تساعد على كشف أسباب الازمة وتقترح البديل. ومن جهة أخرى تخرج إلى السطح عدداً كبيراً من القضايا غير المحلولة وفي بعض الاحيان اخطاء اجرامية، مما قوض بشدة هيبة الاحزاب الشيوعية الحاكمة أو التي كانت تحكم في بلدانها. فالناس يحملون هذه الاحزاب بالذات كل المسؤولية عن الوضع القائم والعديد منهم يفقد الثقة بها.

ومن المدهش، اضافة إلى ذلك، ان المصاعب التي تعانيها البلدان الاشتراكية لا تؤثر تأثيراً سلبياً في صورتها في العالم الخارجي. وبالفعل فان العلانية والديمقراطية تبرزان العديد من قضايا الاشتراكية الحقيقية ولكن التعاطف من جانب الشعب ومختلف القوى السياسية في بلد مثل بلدي يزداد بشدة. عملياً وقفت الحملات المعادية للشيوعية في الصحافة. ونحن نُدعى إلى الكتابة في الصحف الرئيسية وإلى المشاركة في المناقشات التلفزيونية وغير ذلك.

يقول لينين: الحقيقة وحدها ثورية. ما هي الفائدة التي يمكن ان نجنيها من رواية الاساطير للناس ومحاولة اقناعهم في عصر الانفجار الاعلامي الراهن ان المواطنين السوفييت يتمتعون بكل ما يحتاجون اليه وان كل الأمور تسير بصورة جيدة؟ وحتى لو حاولنا القيام بذلك فان الشعب لن يصدقنا. وأرى انه لأمر غير اخلاقي الكذب واخفاء الحرمان الذي يتحمله الناس في الاتحاد السوفييتي منذ ٧٢ سنة فقط من أجل تكوين صورة زاهية عن الاشتراكية في الخارج.

لا، لا أودّ أبداً ممارسة جلد الذات ولكن يجب ان ننظر إلى الحقائق مباشرة. فخلال فترة طويلة جداً عرفنا الطريق إلى الاشتراكية بوصفه قدراً إلهياً أو يكاد. وبالمناسبة فقد حذر لينين غير مرة من هذا الأمر. ومن الواضح انه ينبغي خلال عملية البريسترويكا التفكير نظرياً بالآفاق والعثور على مقاييسها الملموسة.

لقد اخطأنا طويلاً في تقويم عمليات التطور الرأسمالي. ونظرنا إلى كل صعوبة حقيقية بوصفها مظهراً من مظاهر الازمة العامة الثابتة، ولكن الحياة لم تؤكد ذلك. وأكدنا ان الرأسمالية غير قادرة على التكيف مع متطلبات الثورة العلمية التقنية، الأمر الذي تضمّنه مباشرة برنامج الحزب الشيوعي السوفييتي الذي أقره المؤتمر الثاني والعشرون. ولكننا نرى اليوم بوضوح انها هي بالذات، وليست الاشتراكية، التي تسير في طليعة التقدم العلمي

والتكنولوجي والتطور الاقتصادي الاجتماعي عموماً.

لقد نسينا نحن الشيوعيين ـ وهنا تقع المسؤولية بالدرجة الأولى على الاحزاب الشيوعية الحاكمة ـ موضوعة ماركس الرئيسية حول الدور الحاسم للعامل الاقتصادي. كم من الخطب المنمقة القيت من على المنابر العالية حول ضرورة دفع التقدم العلمي التقني وتحقيق أعلى انتاجية في العمل، ومع ذلك فالرأسمالية ما زالت تربح المباراة بين النظامين في المجال الاقتصادي.

لقد كان من الخطأ وضع الايديولوجيا في المرتبة الأولى. اذ جرى تعليم الماركسية اللينينية في كل مكان وكاد ذلك يشمل المدرسة الابتدائية. وقرروا في فترة معينة تكوين انسان جديد وتغيير نفسيته بصورة جذرية عبر الدعاية المكثفة. وكان ينقصنا استخدام منهجنا العلمي الخاص لتحليل التحولات في الوعي الانساني والتفكير بالحقائق الجديدة في كل المجالات. وسعى الشيوعيون إلى تصوير الظواهر غير المؤاتية بالنسبة لهم وكأنها أما نتيجة لدسائس العدو الطبقي أو أمور ظرفية بحت، في الوقت الذي كان يجري فيه الحديث عن عمليات عميقة.

وظهر ان عواقب الاخطاء مأساوية. والتاريخ لن يسامح حركة سياسية واسعة كحركتنا بسبب تقويمها غير الصحيح للواقع وطرحها توجهات كاذبة. فكم مرة وعدنا انصارنا بانتصارات عظيمة ثم وجدنا انفسنا في الحضيض. وسمحنا للآخرين بالتقدم علينا. وببساطة فان الناس كفوا عن سماعنا في أكثرية البلدان الرأسمالية المتطورة على الأقل.

وتكمن مأساة الحركة الشيوعية في انها لم تستطع في الوقت المناسب ايجاد اجوبة سليمة على قضايا العصر الجديدة وقيادة الحركات القوية المعاصرة مثل النضال في سبيل انقاذ البيئة المحيطة ونظام اقتصادي دولي عادل. وما زلنا نتجاسر على ان نسمي انفسنا طليعة!

وتقلقنا كثيراً ظاهرة ان الاحزاب الشيوعية تشيخ في كل مكان. فالشباب في الغرب يميلون نحو «الخضر» ونحو مختلف أنواع المنتديات الاجتماعية في اوربا الشرقية. وتفقد اتحادات الشبيبة الشيوعية اعضاءها. وفي «العالم الثالث» حيث يشكل الشباب اغلبية السكان نادراً ما تصبح احزابنا جماهيرية. ففي السنغال كان تأثير الشيوعيين الذين حملوا افكار التحرر الوطني في سنوات النضال من أجل الاستقلال أكبر بكثير مما هو عليه الآن. وليس قليلاً عدد الشباب والشابات الذين يتقبلون منهجنا ويوافقون عليه ولكنهم لا ينتسبون إلى الحزب. فكيف يمكن اقرار برامج طويلة الأمد تتناول القرن الحادي والعشرين من دون ثقة في انها تلائم الشبيبة؟ فعلى عاتق هذه الشبيبة بالذات يقع تنفيذ هذه الخطط المقررة. ولكن مع الاسف لا استطيع ان أقول ان هذه الثقة موجودة.

بالارتباط مع ما تقدم ثمة جانب آخر من جوانب الازمة التي تعانيها الحركة الشيوعية هو الجانب التنظيمي. اذ ان طراز التنظيم الذي نشأ أيام لينين بوصفه أداة للاستيلاء على السلطة قدَّم ما عليه واستنفد اغراضه إلى حد بعيد. وقد تكوّن في بداية هذا القرن، حيث لم يكن النظام الديمقراطي المتطور موجوداً وجرى حل مسألة السلطة بواسطة القوة وصولاً إلى استخدام الكفاح المسلح. أما اليوم فان الوضع مغاير تماماً. **فالعالم يرفض بازدياد لا سلاح التدمير الواسع فحسب، بل والعنف وأساليب العنف في حل القضايا أيضاً.**

وليس صدفة ألا تحصل أي ثورة أو حركة تحررية في العقدين الاخيرين على تأييد قوي ومتواصل شبيه بالتأييد الذي حصل عليه الشعب الفيتنامي سابقاً. فعدد الناس اليوم الذين يشاركون في مظاهرات منظمة العفو الدولية أكثر من المشاركين في اجتماعات وفعاليات التضامن الأخرى التي ينظمها الشيوعيون عادة. لقد تغير الزمن واصبح الوعي الاجتماعي مختلفاً كذلك، كما اصبح مختلفاً احساس كل الناس في كوكبنا والعالم.

ان رفض العنف يرتبط ارتباطاً وثيقاً **بتقدم الديمقراطية إلى المرتبة الأولى بوصفها، على ما أعتقد، أهم قيمة انسانية.** وهنا تحوّل طراز التنظيم، الذي برهن في وقت ما على فاعليته، من وسيلة لتعبئة الجماهير إلى معرقل في طريق الحركة الشيوعية. ان هذه المسألة تبحث في حزبنا بحثاً مستفيضاً ولكنني حتى الآن لا أعرف كيف يمكن الخروج من هذا الوضع. وعلى كل حال، اعتقد ان مبدأ المركزية الديمقراطية ينبغي ألا يتحول إلى أداة لاخماد الافكار الجديدة ومعاقبة من يختلف في هذا الأمر أو ذاك مع الأكثرية.

فاليوم ينتسب إلى الحزب اناس مختلفون تماماً عن الذين كانوا ينتسبون اليه منذ عقود من السنين. فالشيوعي حينذاك وهب نفسه لفكرة واحدة ولقضية واحدة. أما الشيوعي المعاصر فهو متعدد. فيمكن ان تتعدى اهتماماته كثيراً إطار الهموم الحزبية. وهو مستعد للنضال مع الجميع من أجل اجراء تغييرات ايجابية في المجتمع، ولكنه يحتفظ بحق العمل ليس في السياسة فحسب، بل وفي المجال الايكولوجي والاخلاقي ـ المعنوي وفي جوانب عديدة أخرى من الحياة الفعلية في نهاية القرن الحالي. وفي ظل ذلك ينبغي ان يشعر بالارتياح داخل الحزب.

لا أنوي تصوير طراز التنظيم الموجود لدى التيارات السياسية الأخرى بصورة مثالية. الاشتراكيون الديمقراطيون، مثلاً، يبنون حزبهم، كالعادة، حول شخصية قوية. ولكن لا تنشأ في ظل ذلك عبادة الفرد لأن البنية الحزبية تبقى مرنة والممارسة صَبورة. أما عندنا فقد تكوّن وضع يؤدي فيه كل نقاش مهم حول المسائل المبدئية إلى طرد المعارضين من الحزب أو تحويلهم إلى «مهاجرين داخليين» في المنظمة. هذه هي بعض أسباب ومظاهر

أزمة الحركة الشيوعية، اكرر، ازمتها العامة. وقد شملت أيضاً الاحزاب التي أيدت في بداية الستينات التعايش السلمي، وتلك التي دعت، اقتفاءً لماو، إلى «محاصرة الريف للمدينة». وهذه الازمة تعانيها الاحزاب التي أيدت التدخل في تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ والاحزاب التي ادانت هذا التدخل بقوة، كما حصل بالنسبة للتدخل السوفييتي في افغانستان الذي جرى بعد مرور ١١ سنة على ذلك. كنا نود تثبيت دورنا القيادي أو الطليعي ونسينا مبدأ ماركس المعروف بان **الجماهير وليس الاحزاب هي التي تصنع التاريخ**. فاما ان نجد الطريق اليها أو نتحول نهائياً إلى قوة هامشية. وليس ثمة افق آخر.

اسس حزب الاستقلال والعمل السنغالي مثقفون انحدروا من بيئة برجوازية صغيرة. ولكننا استطعنا كسب ثقة الطبقة العاملة واصبحنا القوة الثانية، بعد الحزب الاشتراكي الحاكم، في الحركة النقابية. ويعود الفضل في ذلك إلى حد بعيد إلى اننا تخلينا بحزم قبل ظهور البريسترويكا بوقت طويل عما يسمى النقابية الحزبية وعن التفسير الضيق لموضوعة النقابات بوصفها محطة لنقل الحركة إلى مستوى أعلى.

ولكنني لا أود خلق انطباع ان سياسة الحزب الصحيحة في المجال النقابي تحل كل قضاياه. اولاً، ان التعاطف الذي يظهره العمال لم يؤد حتى الآن إلى ازدياد عدد العمال المنضمين إلى الحزب. ثانياً، ان سياسة «التصحيح» في المجال الاقتصادي والتخلي عن مذهب الحماية الجمركية يؤديان إلى تدمير حقيقي للصناعة في البلاد. ففي عام ١٩٨٩ اقفل معمل شركة «باتا» للاحذية ابوابه، وهو من أقدم المؤسسات في السنغال. وخلال السنوات الخمس التي اعقبت انعقاد المؤتمر الثاني لحزبنا انخفض عدد الطبقة العاملة في بلادنا بصورة جوهرية.

اوافق على انه من المهم بالنسبة للشيوعيين توسيع القاعدة الاجتماعية لاحزابهم. ولكني اعتقد انه من الأهم انتهاج سياسة تخدم مصالح الشغيلة. وفي البلدان الضعيفة التطور والمحدودة الموارد يجب على حزب الطبقة العاملة الاهتمام في المقام الأول بمصالح الامة. **ونحن نعاني سيطرة الامبريالية ولكننا ندرك ان التحرر منها ليس مسألة الغد.** والمسألة الوحيدة التي يمكن ان نقوم بها واقعياً هي مسألة توسيع مجال الاستقلال حيثما كان ذلك ممكناً. وتكمن مأساة السنغال الفعلية في تبعيتها للمساعدة الغذائية. فاذا لم تصل الباخرة المحملة بالارز إلى داكار تحل المجاعة لأننا لا نزرع هذه المادة الغذائية الاساسية في لسنغال.

من هنا تنبع الاهمية الخاصة لمهمة العمل مع الفلاحين الذين يشكلون الجمهور الاساسي من سكان البلاد وقوة عملها الرئيسية. وليس لدينا ثروات غير الأرض، وبصرف النظر عن المشاريع السياسية التي نصوغها ينبغي، بالدرجة الأولى، فلاحة الأرض وجمع

المحصول. وحتى لو قررت الاحتكارات ما فوق القومية غداً فتح فروع صناعية لها عندنا فان ذلك لن ينقذ البلاد: فهي لا تملك موارداً ولا اموالاً للتصنيع الحقيقي، وهي في أحسن الاحوال تستطيع تصنيع السلع الزراعية. واذا حققنا الاكتفاء الذاتي من الارز فسيكون ذلك انتصاراً تاريخياً.

لدى حزب الاستقلال والعمل السنغالي برنامج نقترحه على الفلاحين وهو يجد تفهماً من جانبهم. وقد مكّن تأييد سكان الريف لنا من ارغام السلطة على أخذنا في الاعتبار. وفي كل قرية يأتي الناس لسماع كلماتنا. ومن الأهمية بمكان بالنسبة للمؤمنين، وهم الأكثرية الساحقة في الريف؛ ان يقوم زعيم الشيوعيين معهم بزيارة الأماكن المقدسة وان يلتقي بانتظام مع زعماء المسلمين وكاردينال الكاثوليك.

وفي بلادنا يعترفون بالدور الوطني لحزبنا، ومن بين اولئك الاشتراكيون الذين يتمسكون بزمام السلطة. وقد أعلن هذا عبدو ضيوف، السكرتير العام للحزب الاشتراكي ورئيس الجمهورية خلال المؤتمر الأخير لهذا الحزب وأكد انه مستعد للعمل معنا وانه يمد لنا يده للتعاون. والحوار يجري بين حزبينا بشكل مكثف ونحن لا نعتزم قطعه على الرغم من المصاعب التي تنشأ.

يجب ان نعالج، بالدرجة الأولى، القضايا التي نستطيع حلها وليس التنبؤ بما سيقوم به الشيوعيون في منتصف القرن الحادي والعشرين. والمسألة المهمة اليوم: ما هي الحلول التي يستطيع الماركسيون السنغاليون تقديمها لشعبهم في وجه الازمة التي تعانيها البلاد، وهل ستكون هذه الاقتراحات مقنِعة بصورة كافية لكي تحظى باهتمام القوى الأخرى وتحقيق الوفاق والتعاون.

لذلك فاننا نتحدث على كل المستويات ـ مع الفلاحين والعمال ورجال الاعمال والزعماء الدينيين والسياسيين، بما في ذلك الحزب الحاكم: تعالوا نجلس حول «طاولة مستديرة» وليأتِ كل طرف بمشاريعه الخاصة. ونحن اذ نقترح مشروعنا نؤكد انه ليس سوى فرضية وليس حلاً جاهزاً. لأن الحل النهائي لاصعب القضايا التي تواجهها البلدان الافريقية ليس موجوداً اليوم عند أحد، لا عند اليمين ولا عند اليسار، وليس موجوداً في مؤلفات العلماء البرجوازيين ولا في اطروحات الماركسيين.

ان أكثرية دولنا تُعتبر تكوينات اصطناعية. وما دامت مسألة بقائها مطروحة بدون حل فلا يمكن التحدث حول أي ثورة. وما دام لا يمكن انقاذ البلاد من خلال تقديم مطالب فئوية ورفع بعض الفئات الاجتماعية إلى المرتبة الأولى، فمن الضروري تكوين رؤية وطنية واجماع الأمة. لنفترض ان الحكومة ستسقط غداً فمن سيحل محلها؟ اذا كنا نحن فماذا سنفعل وما هو الوقت الذي سيسمح به الشعب والتاريخ لنا لكي نختبر الفرضيات غير

المتقنة؟ لهذا نقول اننا مع اجراء التحويلات ولكننا نهتم بالدرجة الأولى **بالمحافظة على الاستقرار**. هذه مفارقة ولكنه منطق الحياة.

خلال الجولة الأولى من المحادثات مع الحزب الاشتراكي أكدت ضرورة السعي إلى حياة سياسية متحضرة من أجل تجنب البربرية التي تهددنا. فالكلام لا يمكن ان يدور حتى حول حرب اهلية، حيث ثمة كالعادة معسكران واضحان متصارعان داخل البلاد، بل حول وضع يشبه أكثر ما يشبه الطراز اللبناني مع خليط مشوش من القوى التي لا تخضع لأي رقيب. وأكرر، مرة أخرى، من الضروري قيام **أوسع أشكال الديمقراطية** التي توفر امكانية تعبير الجميع عن آرائهم ومصالحهم بالوسائل السياسية. ويوافق العديد في بلادنا على هذه الفكرة.

اعتقد انه بعد ثورة اكتوبر وصف الجناح الثوري في الحركة العمالية، بصورة احادية الجانب تماماً، الحريات البرجوازية بانها أمر شكلي. وبرهن التاريخ وتجربة الشعوب ان المسألة ليست كذلك. اذ ان حرية الكلام والتنظيم والتظاهر والتنقل داخل البلاد وخارجها مكتسبات أساسية كان عدم تقديرها غير ممكن. يضاف إلى ذلك انه جرى دائماً ضمنا نحن الشيوعيين إلى الأنظمة السائدة في البلدان الاشتراكية، حيث لم يتمكن الناس من الافصاح عما يفكرون به، وحيث حرموا عملياً من كل الحقوق التي ناضلنا من أجلها في بلادنا. وقبل الانفجار الاعلامي كان من الممكن التذرع بـ «الدعاية البرجوازية الكاذبة»، ولكن الأمر اصبح ببساطة مضحكاً بعد ذلك.

لقد ظهر ان الاشتراكيين الديمقراطيين على حق، اذ استطاعوا رفع راية القيم الانسانية العامة أعلى من الجميع، على الرغم من انهم، عندما يكونون في السلطة خاصة، لا يظهرون دائماً بافضل مظهر ابداً، فمنهم مثلاً من خاض الحروب الاستعمارية «القذرة». ولكن ذلك جرى خارج الحدود الوطنية ولم يؤثر طبعاً في شعوب بلدانهم كما حدث بالنسبة لاعمال التنكيل الستالينية في الاتحاد السوفييتي.

لقد اتهمنا الاشتراكيين الديمقراطيين دائماً بالاصلاحية ووضعنا انفسنا في موقع الثوريين الثابتين. ولكننا نسينا تحذيرات لينين المتكررة من انه من الضروري التمييز بحزم بين الاساليب التي يجب استخدامها لتحقيق هذا الهدف السياسي الملموس أو ذاك، ومتى يجب استخدامها. **والحزب الذي يريد القيام بالثورة كل يوم محكوم عليه ليس بالفشل في النضال ضد العدو الطبقي فحسب، بل وبالانهيار الداخلي أيضاً**.

لقد استخدم الاشتراكيون الديمقراطيون بصورة صحيحة ميول الناس الطبيعية. فالشعوب تقوم بالثورة مرة وربما مرتين خلال قرن بصرف النظر عن نجاحها أو فشلها. ولكن الجماهير، وليس النخبة فقط، هي التي تريد دائماً وكل يوم تحسين الوضع وتطالب

بالاصلاحات. ونحن اذ رفضنا هذه الاصلاحات من حيث المبدأ في حينه «رمينا الطفل مع مائه». واليوم اذ نعترف بذلك **يمكن ان نجد حول العديد من المسائل المبدئية ليس نقاط التقاء فحسب مع الاشتراكيين الديمقراطيين بل وان نتفق معهم أيضاً**.

لقد وصفنا دائماً الحزب الاشتراكي في السنغال بانه حزب يمثل مصالح البرجوازية البيروقراطية والطفيلية. ونشر البنك الدولي قائمة باسماء الاشخاص الذين كدسوا رؤوس اموال كبيرة لا يريدون توظيفها في تنمية البلاد بل ينقلونها إلى الخارج لاستخدامها في المضاربات المالية. وقد افلس أكثر من عشرة بنوك سنغالية نتيجة للاختلاس. وتقع في أيدي حفنة من الاثرياء موارد تعادل تقريباً الميزانية السنوية العامة.

ولكن هذا التقويم للحزب الاشتراكي لا يمنع ادراك طبيعته المتناقضة. وهو كالحزب الديمقراطي المسيحي في ايطاليا يمثل مصالح البرجوازية ولكن لا يزال في الوقت نفسه أكبر قوة سياسية في البلاد تسير خلفها الأكثرية الساحقة من الشعب طوال تاريخ وجودها. والحزب لا يستطيع الا يأخذ في الاعتبار ميول قاعدته الحزبية التي تتكون من العمال والفلاحين وليس من الفئات البرجوازية الصغيرة في المدينة والريف فقط.

لقد اثر الانضمام إلى الاممية الاشتراكية تأثيراً عميقاً في الحزب الحاكم. ولهذا بالضبط وافق الرئيس السابق ليوبولد سنغور في حينه على اعتماد نظام التعددية السياسية. ونحن نعتقد ان اشاعة الديمقراطية في البلاد خلقت ظروفاً أفضل للدفاع عن المصالح الشعبية. وداخل الحزب نفسه تجري عملية صراع حامية وتظهر بقوة متعاظمة قوى تريد تجديد الحزب وجعله حزباً اشتراكياً ديمقراطياً فعلاً. وانصار هذا النهج يتفقون معنا حول العديد من المسائل.

بعد الانتخابات الاخيرة (شباط ١٩٨٨) تفاقم الوضع في البلاد بحدة وهدد بالانفلات من أي رقابة. وبالرغم من تعرض بعض القادة السياسيين. وأنا منهم، للاعتقال لفترة قصيرة فقد استطعنا تجنب الوقوع بما هو اسوأ، أي طغيان التنكيل والعنف. وهنا أرى أيضاً سعي الحزب الحاكم إلى الحفاظ على وجهه الاشتراكي الديمقراطي الجديد في البلاد والعالم. ولكن خيار الحزب الاشتراكي يكمن في انتهاج سياسة «التصحيح» بدون الوقوع في تجاوزات الدكتاتورية. والحياة ستبين هل سيبقى على هذا الطريق المعقول أم ان القوى المتطرفة ستحرف سير الاحداث باتجاه قمع المعارضة بواسطة العنف.

لقد تعودنا ان على المعارضة ان تقف بالضرورة ضد كل التدابير التي تقترحها الحكومة. فقد تكوّن نوع من أنواع **اوتوماتيكية الانكار**. ولهذا بالتحديد أثار القرار الذي اتخذه حزبنا حول البدء بالمحادثات مع الحزب الاشتراكي في ذروة الازمة صدمة حقيقية داخل الاوساط السياسية في السنغال. فالكل كانوا يعتقدون اننا لن نقدم على هذه الخطوة

ابداً ونسوا ان الحزب الجدي يحلل الوضع الواقعي داخل البلاد وخارجها ويحدد لنفسه ما هو ممكن وما هو مستحيل. وانطلاقاً من ادراك مسؤوليتنا التاريخية حققنا، في الواقع، انعطافاً ثورياً في السياسة.

صحيح ان الحزب الاشتراكي يعاني مصاعب ولكنه يملك قوى وموارد كافية. واذا اتخذنا في العلاقة معه موقفاً غير مسالم فان القضايا ستتفاقم، ويمكن ان يؤدي عدم الاستقرار إلى نشوء اصطدامات دموية، لهذا بالتحديد، فاننا، اذ نرفض السياسة الرامية إلى تعزيز الرأسمال الناتج عن المضاربة، نرى ان من واجبنا ارغام الحزب الاشتراكي، المضطر إلى أخذ ميول الجماهير الشعبية التي تؤيده في الاعتبار، الى الموافقة على صوغ برنامج عمل يقرب كل السنغاليين بعضهم من البعض الآخر.

يعير الاشتراكيون الديمقراطيون اهتماماً كبيراً لقضايا «العالم الثالث»، بما في ذلك افريقيا. وعلى الرغم من ان تناولهم ما زال اصلاحياً فانه يتضمن العديد من الجوانب المهمة. مثلاً موضوعة انه ينبغي على قارتنا ألا تنسخ الطريق الذي قطعته اوربا. وان افريقيا تعاني جداً من الناحية الايكولوجية. اذ ان التصنيع الحثيث يمكن ان يؤدي بسرعة إلى عواقب وخيمة لا علاج لها طبعاً. عندما يفتقر الناس إلى الطعام وعندما يكون ملايين الافارقة عاطلين عن العمل يمكن ان ننعت هذه الافكار بكونها تأملات باطلة لمثقفين «شبعوا». ولكن المسألة مطروحة بشكل صحيح من الناحية المبدئية.

وثمة جملة من القضايا التي لا يمكن تأجيل حلها حتى تحقيق الغد المثالي المنير لكل البشرية، بل تتطلب حلاً سريعاً. ونعتقد ان ليس الآن وقت للتنبؤ بالطريق الذي ستسلكه السنغال في المستقبل ـ الطريق الرأسمالي أو الاشتراكي. ونحن لا نناقش هذه المسألة مع الحزب الاشتراكي الحاكم بل حول كيفية اخراج البلاد من الازمة وانقاذها من الكارثة التي تهددها.

اعتقد ان الثورة الاشتراكية بالشكل الذي حصل في اكتوبر ١٩١٧ استنفدت امكاناتها. واقصد نظرية «الحلقة الضعيفة»، فعلى اساسها بالضبط وُضِع حد لسيطرة الامبريالية دون منازع. ولكن هذه الحلقة كقاعدة عامة ما زالت ضعيفة بعدما انتقلت إلى طريق الاشتراكية، وان انضمام بلدان جديدة اليها مستوى قواها المنتجة منخفض لا يسمح للنظام الجديد بالتفوق على النظام القديم والتمتع بقوة جذب الشعوب الأخرى.

لقد ظهر ان الطريق الذي سلكناه قبل البريسترويكا كان كاذباً. وهكذا لا نريد تكرار اخطاء الماضي. ويزداد عدد البلدان المتخلفة التي تعلن عن تمسكها بالاشتراكية، وتعول على مساعدة الاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية الأخرى الأكثر تطوراً والتي تعاني بدورها مصاعب كبيرة. وهي ببساطة لا تستطيع تحمل عبء اضافي، اذ سوف يعني ذلك

نهاية الاشتراكية عموماً. لان شعوبها لا تستطيع الحياة إلى ما لا نهاية بانتظار المستقبل المنير واستلهام شعارات الاممية في وقت تفتقر فيه إلى الحاجات الاولية.

اتوقع ان التطور اللاحق للبشرية سيسير بصورة مختلفة تماماً. فالبلدان الاشتراكية ستتكامل ضمن الاقتصاد العالمي الذي ما زالت تسيطر عليه الرأسمالية. ومن جهة أخرى تنشأ هنا أيضاً أوضاع غير متوقعة مشحونة بالانفجار.

حتى بداية القرن الحادي والعشرين سيكون عدد سكان «العالم الثالث» ٥ مليارات نسمة وسكان البلدان المتطورة ١,٨ مليار. **ولا يوجد في جدول الاعمال: أرأسمالية أم اشتراكية**. فقد علمنا لينين ان التحولات السياسية الاجتماعية تكون مفيدة فقط عندما تسهم في تطور القوى المنتجة. ونؤكد ان التجربة الاشتراكية في افريقيا لم تؤد حتى الآن إلى النجاح في كل البلدان التي طبقتها.

ان الطريق الواقعي يكمن في طرح فكرة اقامة نظام اقتصادي دولي جديد، بمساعدة الامم المتحدة وحركة عدم الانحياز والبلدان الاشتراكية والقوى المتبصرة التي يزداد تأثيرها في قلاع الرأسمالية. ولا يمكن حل قضايا الاقتصاد العالمي إلا بجهود البشرية المشتركة وبواسطة الديمقراطية وليس المواجهة ـ سواء أكان الأمر على مستوى الشرق ـ الغرب أم الشمال ـ الجنوب.

ان حزب الاستقلال والعمل السنغالي يرحب بالاستثمارات الاجنبية بشرط مراعاة الفائدة والمصالح المتبادلة. والرأسمال لن يأتي اذا أعلنا اننا نريد بناء الاشتراكية بمساعدته. فهو يمكن ان يوفر فرص العمل والتكنولوجيا ولكن يجب على البلد المستفيد ان يؤمن له ارباحاً ملائمة. وأنا واثق من انه يمكن اليوم، حيث تراجع خطر الحرب العالمية وتسود العالم نزعة نحو التعاون، يمكن حل قضايا البلدان مثل بلادنا على أساس معقول، بقوانا في المقام الأول وبمساعدة الاسرة العالمية أيضاً.

ان الحكومات التي يمكنها تسهيل مصير شعوبها بصورة أسرع وأفضل هي تلك التي تستطيع صوغ سلوك النهج السياسي الأمثل في الوضع العالمي الجديد الذي يعطي الاولوية لا لهذه الايديولوجيا أو تلك، بل للآراء المعقولة. لهذا نحن لا نناضل ضد الرأسمالية وحتى ضد سياسة «التصحيح» التي يفرضها علينا البنك الدولي. اننا نريد فقط ألا يدفع المحرومون والأكثر حرماناً ثمن هذه السياسة. فمن الخطر تكديس اليأس. فهو لا يساعد على اجراء تحولات عميقة، بل هو غير قادر إلا على ايقاع البلاد في الفوضى التي ستجر عواقب لا مثيل لها.

ومن الأهم وضع حد للنفسية الاتكالية التي اصابت للاسف بلدان التوجه الاشتراكي أيضاً. فكثيرون جداً في افريقيا هم الذين يأملون في حدوث المعجزات. ولكن لا

الرأسمال الاجنبي ولا البلدان الاشتراكية تستطيع حل قضايانا. فعلينا نحن واجب العمل وتثبيت الانضباط في العمل بوصفه القيمة الاساسية. فالطفيلية في المراتب الدنيا ليست أقل خطورة من طفيلية البرجوازية البيروقراطية. ويجب تقليص الدين الخارجي والعجز في الميزانية. ولا يمكن الاقتصار طوال الوقت على توزيع ما هو غير منتَج. **فاولاً الانتاج ثم التوزيع.**

ان حزب الاستقلال والعمل السنغالي يؤيد فكرة الاقتصاد الحر والمنفتح والديمقراطية الاقتصادية والسياسية الواسعة. ونقول «نعم» للرأسمال الخاص الاجنبي والمحلي. ونمد يدنا حتى للبرجوازية البيروقراطية. ونحن لا نطالب بتنظيم محاكمات مدوية للمختلسين. فليس هذا ما تحتاجه البلاد اليوم. فالافضل ان ترجع الاموال وتوظف في الانتاج بصورة مفيدة. فهذا أهم من التحقيق في كيفية تكديسها. ونحن لا نريد الانتقام بل نريد تقدماً فعلياً.

يخضع الشيوعيون السنغاليون الوسائل للاهداف. فاذا كان دخولنا إلى الحكومة سيخلق مصاعب اضافية للبلاد لاسباب مختلفة فاننا لن نصر على ذلك. ان مصالح الامة هي الشيء الرئيسي **والسياسة الصحيحة هي سياسة الممكن**. ولا نركز على التناقض بين اليمين واليسار، أو بين القوى الحاكمة والمعارضة. فكل من يستطيع ويريد اقتراح الطريق المؤدي إلى الخروج من الازمة يجب ان يحصل على حق الكلام والموقع في الاجماع الوطني.

ونرى ان رسالتنا الشيوعية تكمن في مساعدة الشعب وليس زج الجماهير في مغامرات تكلف الناس وبخاصة الناس الأكثر حرماناً غالياً جداً. أما كيف ستحل قضية اختيار الطريق غداً فهذه مسألة أخرى. يمكن ان يؤيد السنغاليون بصورة ديمقراطية الاشتراكية التي تناسب ظروفنا. والأمر الرئيسي اليوم هو توفير الشروط السياسية للعمل المنتج وتعبئة كل قوى الأمة.

واذ أعود إلى مسائل الحركة الشيوعية العالمية أود التعبير عن قلقي لتضعضع العلاقات بين الاحزاب الشيوعية في حين ان القوى الأخرى تعزز هذه العلاقات فيما بينها. ونحن نجري نقاشات حول الاممية البروليتارية والاممية الجديدة وما شابه. ولكني لم أسمع من أحد انه يجب تصفية علاقات التضامن عموماً. اعتقد ان غياب البنى التنظيمية في الحركة الشيوعية، خلافاً لأكثرية القوى الأخرى، هو الوجه الآخر للستالينية ونتيجة للاصابات العميقة التي لحقت بالشيوعيين من جراء اخطاء تلك المرحلة وجرائمها. واليوم علينا في فترة البريسترويكا البحث عن أشكال جديدة للتعاون والوحدة ضمن التنوع لكي نحفظ انفسنا بوصفنا تياراً فكرياً وسياسياً.

يضـاف إلى ذلـك ان طبيعة عصرنا والقضايا التي يولدها تحتم ان يكون التعاون والتضامن أوسع بكثير مما في السابق. وثمة اشتراكيون ديمقراطيون و «خضر» وقوى يسارية أخرى. وثمة في المعسكر البرجوازي غير قليل من العقلاء والاحزاب والتيارات التي تدرك انه لا يمكن مواصلة الحياة كالسابق وانه يجب **تغيير الأمور وتغيير الذات أيضاً**. وليس صدفة مثلاً ان يعلق مسؤول قسم بلدان افريقيا الاستوائية في أحد مؤتمراته الصحفية في داكار أمام الصحفيين المندهشين ما يلي تقريباً: **لا تفكروا ان البريسترويكا ستتوقف في موسكو**، فأي حكومة تعتقد اليوم أنها بمنأى عنها تجازف بمصيرها.

ليست الكـارثـة النـووية وحدها هي التي تهدد البشرية. فالمليارات الخمسة من الفقـراء يشكلون قوة هائلة تهـدد بالانفجـار. وهـذا سوق تصـريف يخسـره رأس المال العـالمي. واذا لـم يجـر رفـع قدرتهم الشرائية فان ارباح البرجوازية يمكن ان تكون في المستقبـل موضـع شك. وهنـاك قضـايا البيئـة والـرعـاية الصحية والتعليم والجـريمـة والمخدرات. وهناك في نهاية المطاف الكفاح ضد مأساة مرض نقص المناعة ـ الايدز.

ان كل ذلك يشكل أساساً موضوعياً للتعاون مع القوى البعيدة عن اليسار. وطبعاً يبقى دور اليسار وهو ضروري أيضاً. ولكن المسألة تدور حول شمول قوى أوسع بكثير وعملياً حول توحيد جهـود أكثرية البشرية أي كل من يفكر بصورة سليمة وكل من يهتم بمصيره وبمصير اطفاله.

يجب على الشيوعيين ان يجدوا موقعهم في هذا الاجماع العالمي الشامل وحينها يؤكـدون قدرتهم على الاستمرار بوصفهم تياراً اجتماعياً مؤثراً. **وتغيير البرامج والانظمة الداخلية والاسماء وحتى حل بعض الاحزاب لا يقضي على افكار الشيوعية وممارستها.** ومـا دامت القضايا التي ولدتها قائمة فلن تزول. والاستغلال غير مقبول ليس من جانبنا فحسب، بل من أكثرية المؤمنين أيضاً. ان التناولات وأساليب العمل مختلفة ولكن الهدف واحد ألا وهو بناء مجتمع عادل خال من اضطهاد الانسان لأخيه الانسان، مجتمع الحرية والمساواة الحقيقية والازدهار للجميع.

ان ما قلناه يطرح على خلفية التناقض ـ الذي اعتبره التناقض الاساسي كالسابق ـ بين العمل ورأس المال، وعلى الصعيد الدولي بين الرأسمالية والاشتراكية على الرغم من أن الاثنتين تتغيران بسرعة، وقلما توجدان بالشكل الخالص الذي وصفهما كلاسيكيو الماركسية.

ان القضية تكمن في ان البلدان الاشتراكية انتهجت في فترة معينة نهجاً يهدف إلى القـطع مع الاقتصـاد العـالمي. وحتى برنـامج التعاون العلمي التقني بين دول مجلس التعاضد الاقتصادي، مثلاً، وضع هدفاً له تأمين الاستقلال الكامل عن بقية العالم. وقد

نقضت الحياة مثل هذا التناول للاكتفاء الذاتي ووضعت البريسترويكا حداً له من حيث الجوهر، وهو أمر يلهمنا التفاؤل ليس إلا.

ان التكامل على مستوى الكوكب سيولد تحولات جديدة في آلية كلا النظامين ووظائفه. أما كيف وفي أي اتجاه، فهذا يرتبط بتوازن القوى وبالسرعة التي ستتمكن فيها البلدان الاشتراكية من التغلب على تخلفها التكنولوجي. ولكن في كل الحالات فان التصور القديم حول المباراة ـ المواجهة والعداء التناحري على طول الخط ـ استنفد اغراضه.

واليوم نحن بحاجة أكثر من أي وقت مضى لبحث خلاق مشترك عن اجوبة على الوقائع الجديدة لنهاية القرن العشرين. وحظنا سعيد في هذه الظروف انه ما زال حتى الآن ثمة موقع وحيد للقاء شيوعيي كل العالم ـ حول مجلتهم المشتركة «قضايا السلم والاشتراكية».

لقد تجددت مجلتنا كثيراً من حيث الشكل والمضمون. وعلى أية حال، يبحث القراء عن المجلة في السنغال اليوم، أما في السابق فقد كان توزيعها صعباً بسبب رتابتها والمحتوى النظري والمعلوماتي الضعيف لاكثرية مقالاتها وعجزها عن الاستجابة للقضايا التي تقلق الناس.

لقد اصبحت المجلة اليوم أكثر حيوية وغنى وتنوعاً. وهي تستطيع اليوم وفي المستقبل ان تضطلع بدورها البناء في خدمة البحث عن موقعنا كتيار سياسي على المستوى العالمي.



البحث عن السعادة و خلفاء بلا خلافة

اغناتينكو

ملاحظة

المهمة الاساسية لهذا العرض تقديم نموذج من الدراسات الاستشراقية السوفييتية. وليس كل ما في هذا العرض يعني اتفاقاً مع آراء المؤلف، بما في ذلك العرض المفرط في حياديته. الكتاب الأول (البحث عن السعادة: النظريات الاجتما ـ سياسية للفلاسفة العرب المسلمين.) أما بالنسبة لكتاب (خلفاء بلا خلافة) فقد حاولت، جهد الامكان، الابتعاد عن مناقشة آرائه إلا فيما يتعلق ببعض القضايا «الحساسة». وبهذا المعنى، فانني جاولت نقل وعرض آراء المؤلف الخاصة بصدد أغلب القضايا التي تناولها، بموضوعية، من أجل فسح المجال لمناقشتها من جانب مفكري الحركات الاسلامية السياسية (المعارضة) ذاتها.

لقد ظلت هواجس الدراسات الاسلامية في الغرب تتقاسمها كل من أرضية «الخلاف التاريخي» بين الشرق والغرب، وعالم السياسة المتمثل بصعود وانحلال الدول والحضارات. غير ان هذه الدراسات عرضة، كأية ظاهرة فكرية، للتغير والتطور، ما زالت وثيقة الارتباط بالمتحول السياسي. وفيما لو استثنينا جوانبها المترابطة والمعقدة، فانها، في الاطار العام، لا تشكل إلا ميدان اعادة تثوير الوعي، في محاولته ادراك الكل الانساني

في جزئياتـه العـديـدة (دون ان ينفي ذلك طابعه البراغماتي). والاسلام بكل مكوناته، خصوصاً تاريخه السياسي ـ الفكري، ما زال يشغل حيزاً كبيراً في الدراسات المعاصرة التي حددتها في الأغلب، الحركية الاجتما ـ سياسية والمتمثلة الآن بالحركات الاسلامية السياسية المعاصرة.

فاذا كانت الدراسات السابقة تنصبّ في إطار رؤية التأثير الحضاري للغرب في عالم الشرق «الاسلامي»، بوصفه حافز «الانبعاث الاسلامي»، فانه في وقت لاحق، بفعل تبلور الحركات الاسلامية كحركات سياسية مستقلة، أخذ ينصب في إطار ادراكها ككيانات مستقلة، كقوى اجتما ـ سياسية ـ فكرية شكّلت محاولات استيعاب مقدماتها التاريخية وآفاقها الاتجاه العام للدراسات المعاصرة. والاعمال التي قدمها الباحث المستعرب السوفييتي أ. أ. اغناتينكو، تنصبّ في هذا الاطار. (الكتاب الأول: «خلفاء بلا خلافة» طبعة دار ناوكا، موسكو ١٩٨٨ عدد صفحاته ٢٠٦، باللغة الروسية)، و(«البحث عن السعادة» دار ميسيل، موسكو ١٩٨٩، عدد صفحاته ٢٥٥)، يشكلان، ان أمكن القول، حلقة واحدة. الأول في إطار البحث عن الحركات الاسلامية السياسية المعارضة المعاصرة في العالم العربي، والثاني عن الآراء والنظريات الاجتما ـ سياسية للفلاسفة العرب ـ المسلمين.

البحث عن السعادة: المثال والواقع

ينطلق المؤلّف من المقدمات التاريخية ـ الحضارية التي رافقت نشوء وتطور الخلافة. ولم يغفل، في هذه العملية، دور الحركية الاجتماعية المتعددة الاطراف، التي شاركت في تعميقها قوى غاية في التباين من حيث قوامها القومي والفكري والاجتما ـ طبقي. فليس الفكر وتطوره منعزلين عن عالم السياسة، وليس الموقع السياسي هو اسلوب ومعيار الحقيقة. وهذا ما يفسح بدوره المجال أمام ابراز قيمة الخلفاء (المأمون خاصة) والمترجمين والمفكرين مجتمعين في تعميقهم عالم الروح الحضاري. فالدولة هي مقدمة الحضارة الضرورية، والحضارة بكل تنوعها تكتسب وحدتها في تنوعها اللامتناهي في ميدان موضوعاتها واطروحاتها وبرامجها. وهذا ما حاول المؤلف ابرازه من خلال تتبع تقاليد النظريات الاجتما ـ سياسية التي شكلت السعادة غايتها النهائية. وبالفعل، ليست الفلسفة، على الأقل في تلك المرحلة التاريخية، كما جرى وعيها من جانب الفلاسفة العرب ـ المسلمين (وتحت تأثير الثقافات الفارسية واليونانية والهندية) إلا وسيلة بلوغ السعادة، الفكرة ـ الغاية التي وجدت انعكاسها المعقول عند الاغلبية الساحقة من مفكري

العصر.

وقد شكّل الكندي بدايتها الاولية الرفيعة. فالكند ي وبابداعه الفلسفي المتعدد الجوانب كان مرحلة انعطاف في الوعي النظري (الفلسفي). ولم يكن ذلك بمعزل عن عالم الصراعات الاجتما ـ سياسية، التي حددت لدرجة كبيرة قضايا واطروحات الجدل الفكري، بما في ذلك في ميدان الفلسفة. ومن هنا فإن موضوعات الفلسفة كانت منذ بدايتها، مهتمة بقضايا السياسة، بل ان المعضلات الاجتما ـ سياسية شكلت احدى اجزائها المهمة (ص ٤٧). ولم يكن ذلك حصيلة الوعي المعضلاتي للفكر الفلسفي العربي ـ الاسلامي، بل بفعل الموقع الاجتما ـ سياسي للفلاسفة ذاتهم، والقائم في عدم اندماجهم في هرم السلطة. وفي هذا يكمن أحد مفاتيح ادراك واقع محاربة وتشريد وقتل الفلاسفة.

فلسفة المثال الاجتماعي

لقد قدمت الفلسفة العربية ـ الاسلامية في اطروحاتها وتحليلاتها الاجتما ـ سياسية وفي «مدنها الفاضلة» الصيغة النافية لعالم الرذيلة. وفي كل هذه العملية، وحّدت تاريخية الوعي والوجود الاجتماعي في ادراكها المتسامي. وهذا ما سيبرز بوضوح في آراء الفلاسفة اللاحقين كالفارابي واخوان الصفا وابن سينا وابن باجة وابن طفيل وابن رشد، أي الشخصيات التي تناولها اغناتينكو في كتابه.

فقد دعا الفارابي إلى وحدة الفلسفة والسياسة. وأكد على ان الدولة لا يمكنها القيام بمهمتها على أفضل وجه استناداً إلى الشعر أو الخطابة أو الطب أو أيما علم أو فن آخر بل تستطيع انجاز ذلك على اساس وحدة الفلسفة والسياسة (ص ٥٢). فالفلسفة يمكنها ان تعطي وتقدم تصوراً دقيقاً عن الوجود، بينما السياسة تتولى تنفيذها العملي. ومن هنا الدعوة لوحدة الشخصية في الفليسوف ـ السياسي، التي ستتخذ في مجرى تطور الفكر الفلسفي وتباين اطروحاته صيغاً عديدة، الا انها من حيث حوافزها الاولية ـ تقوم في سعيها لاقامة «المدينة الفاضلة». انه فيلسوف وعارف اخوان الصفا، انه النبي ـ الفيلسوف لابن سينا، انه متوحّد ابن باجة، انه فيلسوف ابن رشد. وبغض النظر عن غياب التشابه والوحدة المطلقة بين هذه الشخصيات، اذ ان لكل منها مقدماته الفكرية وبراهينه الخاصة في منظومات الفلاسفة، والتي تتباين احياناً تبايناً هائلاً، إلا أنها تلتقي في غايتها النهائية وفي حوافزها ووعيها الانساني.

فاذا كان الفارابي قد وجد حل المعضلة في بناء اسس «المدينة الفاضلة» من خلال

وحدة الفلسفة والسياسة، أي التركيز على الجانب العقلاني السياسي، لاقامة الوحدة الانسانية المثالية، التي تتطابق ومبادىء الهرمونيا الشمولية المدركة، باعتبار هذه الوحدة جزءاً من الكون (ص (٦٠)، فان اخوان الصفا، في محاولتهم بلوغ السعادة الحقيقية للجميع، طرحوا فكرة الوحدة الروحية، التي يشكل الروح العالمي مثالها المتجسد في عالم «المدينة الروحية»، التي يغض النظر عن التباين الجسدي لأعضائها، فانهم متوحدون في ادراكهم كون ارواحهم هي روح واحدة. انها محاولة السعي إلى الوحدة القائمة في حقيقة الروح. ولا يمكن بلوغ ذلك إلا من خلال التثوير الدائم للوعي. وقد عمقّ اخوان الصفا، كما يستنتج المؤلف، الثقة عند الناس العقلاء، بامكانية تغيير المجتمع من خلال تنوير كافة اعضائه (ص ١٢٧). في حين حاول ابن سينا، رغم تأثره الكبير بالفارابي، تقديم مثاله الاجتماعي وامكانية تطبيقه من خلال ابراز النبي ـ الفيلسوف ـ، أما ابن باجة، فان من الصعب فهم حقيقة آرائه الاجتما ـ سياسية دون استيعاب نظريته حول النفس. انها مفتاح نظريته (ص ١٥٨) في حين تجاهل ابن طفيل قضية «المدينة الفاضلة» كلياً بينما يصبح «حي بن يقظان» مثال بلوغ السعادة. انها ان أمكن القول وحدة الوجود الاجتما ـ سياسي والاخلاقي والمعرفي في عملية الالتقاء والوحدة بالحقيقة. فاذا كانت آراء ابن طفيل تعكس لحد ما ظاهرة انحلال وانحطاط الدولة والمجتمع وازدياد سيطرة الظلامية الدينية، وبالتالي بروز قوة «النزعة الفردية» في المعرفة والوجود الحياتي لبلوغ السعادة، دون ان يعني ذلك فقدانها نزعتها الاجتماعية، فان ابن رشد، سيعيد النظر في هذه القضية، أي اعارته الاهتمام من جديد لفكرة «المدينة الفاضلة»، والتي آلف فيها وطور آراء الفلاسفة السابقين، من أجل بلوغ السعادة الحقيقية.

الفلسفة والبديل الاجتماعي العقلاني: النزعة الانسانية والطوباوية

من كل ما سبق يبدو واضحاً التنوع والتباين في اطروحات الفلاسفة واساليب براهينهم في صياغة الفكرة النظرية عن المثال الاجتماعي. والقضية مما لاشك فيه. أعمق وأوسع من ان يحويها أي كتاب، بما في ذلك المستعرض الآن، بفعل تعدد وتعقد الاشكاليات المرتبطة بالموضوع، إلا ان المؤلف افلح في ابراز تاريخية ووحدة الفكر الفلسفي الاجتما ـ سياسي في ثقافة الخلافة على مثال السعي نحو بلوغ السعادة. وقد كشف في الوقت نفسه عن تعقيد هذه العملية. وهنا تجدر الاشارة إلى ان هذه العملية لم تكن سهلة لا في واقع تطور الخلافة التاريخي ولا في انعكاساته في الوعي النظري. ولعل معضلة العلاقة بين الدين والسياسة، بين الطابع الديني واللاديني في منظومات الفلاسفة

من بين معضلاتها الجدية بالنسبة للباحث وبالتالي من أجل ابراز الهوية الفعلية للمضمون الاجتما ـ سياسي لنظريات الفلسفة العربية الاسلامية.

فنظرية الفارابي، بنظر المؤلف، ليست دينية من حيث جوهرها (ص ٧٠). وان الفارابي يسير خارج إطار التقاليد الفقهية الاسلامية في موقفه من الزعامة (تركيبة السلطة وهرميتها). انه يستند إلى ما أبدعه الفكر الفقهي الاسلامي، إلا انه نظر اليه بوصفه محاولات ذهنية فكرية، وبالتالي فان اطروحاته وحلوله كانت من حيث موضوعيتها التاريخية، خارج إطار التقاليد الفقهية الاسلامية (ص ٨٥). وبهذا المعنى شكلت آراء الفارابي نقطة تحول جديدة في الوعي الفلسفي العربي ـ الاسلامي. وفي الوقت نفسه نقطة انطلاق جديدة اثّرت بصيغ متباينة على كافة الفلاسفة اللاحقين، ابتداء من ابن سينا حتى ابن رشد (ص ٩٩). بينما سار اخوان الصفا بطريق آخر. وعلى الرغم من انهما كانا (مع الفارابي) كما يعتقد المؤلف تحت تأثير نفس الافكار، إلا انهما يشكلان اتجاهين متباينين للتطور الفكري. وان ميزة اخوان الصفا، تقدم في كونهم أكثر قرباً إلى العقائد الدينية الاسلامية مقارنة بالفارابي (ص ١١٧). في حين كانت آراء ابن سينا بصدد المدينة الفاضلة، رغم اصالة الكثير من موضوعاتها، حصيلة تأثير آراء الفارابي وتأثير الاسلام الكبير عليه (ص ١٥١) الصيغة التي يمكن العثور عليها، كما يعتقد اغناتينكو، في آراء ابن رشد حول المدينة الفاضلة، مستنداً بذلك إلى ان ابا الوليد، قد اعار اهتماماً كبيراً للشريعة بوصفها اداة التنظيم الاجتماعي في «مدينته الفاضلة».

بصيغة أخرى اننا نقف أمام محاولات واتجاهات متباينة سعت من حيث الجوهر إلى هدف اجتماعي نبيل: البحث عن الوحدة في المثال. ولكن هل ظل هذا المثال اسير النخبوية الفلسفية وعالم التسامي الروحي؟ وما هي انكساراته في الممارسة الاجتما ـ سياسية للحركات والتحولات التاريخية القائمة آنذاك؟ وأين افلحت ولماذا فشلت في تحقيق مهمتها وغايتها؟ ان اسئلة كهذه وعديداً غيرها لم يفرد المؤلف فصولا خاصة بها. وليس ذلك إلا نتاج المهمة والبنية الخاصة بالكتاب، اذ لم يسع المؤلف إلا للكشف عن «طريق البحث عن السعادة» فهي الفلسفة العربية ـ الاسلامية. غير انه في استعراضه وتحليله لاراء الفلاسفة، قد أجاب، في حالات عديدة،عما هو جوهري فيما يتعلق بتأثير هذه النظريات آنذاك وآفاق تأثيرها،بما في ذلك في العالم المعاصر. فالحصيلة العامة التي يؤكدها اغناتينكو تقوم في الكشف عن طوباوية «المدن الفاضلة» وبالتالي استحالة تطبيقها. أما إلى أية درجة ادرك الفلاسفة ذلك، فتلك قضية لم يحددها بالضرورة كتابة أو عدم كتابة مؤلفات عن المدن الفاضلة. فالاخيرة ليست حصيلة الطوباوية، وليست سبباً لها. انها من حيث مجراها التاريخي المعرفي، نتاج تطور الوعي والممارسة الاجتما ـ

سياسية في تاريخيتها، والتي تضمّنت إلى جانب الطوباوية، قيمة انسانية رفيعة المستوى. فقد أشارت الفلسفة العربية ـ الاسلامية إلى طرق تحويل وتثوير المجتمعات القائمة آنذاك، إلى عقلنتها واخلقتها. وتضمنت بذلك، في أعماقها «امكانية انسانية هائلة» (ص ٢٤٣). وهي بهذا المعنى لم تشكل مرحلة مهمة في تطور الوعي الفلسفي العالمي من حيث اصالتها، بما في ذلك تأثيرها على تطور الفكر الفلسفي الاوربي، بل وأعطت لاوربا، راية الانطلاق في رحاب المعرفة والتطور (ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥).

غير ان ذلك لا يعني جمودها في عالم التاريخ المنصرم. فالحركة التاريخية في تطورها هي رجوع إلى المبادىء الاولية. وفيما لو حاولنا تطبيق ذلك على الحركات الاسلامية السياسية المعاصرة، التي تدعي انتسابها لعالم الاسلام وتراثه، فما هي سبل وطرق بلوغها «سعادة البشر»؟ وما هي برامجها؟ وإلى أية درجة استفادت من تراث (ها)؟ وبأي معنى يمكن الحديث حولها بوصفها «الممثلة الحقيقية» لعالم «الاسلام» السابق؟

فالاستقراء السابق «للتراث الاسلامي» في بعض تياراته الفلسفية ومقارنته بالفكر النظري للحركات الاسلامية السياسية المعاصرة في العالم العربي سيكشف للحال الفقر النظري للاخيرة. والقضية ليست في اتباع الكثير منها نزعة العداء للتراث الفلسفي ورميه خارج إطار التراث «الحق» للحضارة الخلافية، بل وفي حالة الاستفادة منه، فانها ترمي ما هو جوهري فيه من حيث اسلوب تعامله مع معطيات الحضارة التاريخية العالمية، أي انفتاحه وديمقراطيته الفكرية العالية ونزعته الانسانية الرفيعة المستوى. وحتى في حالة ترديدها فكرة وحدة (العلم والعمل) الجوهرية بالنسبة للفلسفة العربية الاسلامية، فانها ضيقّت هذا المبدأ إلى الدرجة التي أصبح العلم مجرد القرآن والسنة بينما العمل هو ممارستها، وحتى في حالة تركيزها على الطابع الاجتما ـ سياسي للعناصر التي افرزها الاسلام (والتي عادة ما تفهمها بصورة وحيدة الجانب)، فانها تعطي لاستيعابها الخاص طابع وممارسة «احتكار الحقيقة».

الحركات الاسلامية المعارضة واحتكار الحقيقة

ان احدى مميزات «خلفاء بلا خلافة» تقوم في محاولة ابراز هوية وطابع واتجاهات الحركات الاسلامية السياسية المعارضة. ولا يقصد المؤلف بذلك، سوى الحركات التي تضع نصب أعينها مهمة الاستيلاء على السلطة السياسية، أي المعارضة للانظمة القائمة. ومن هنا فان «احتكارها لحقيقة الاسلام» ليس إلا الصيغة الايديولوجية المتطرفة لبرنامجها البديل. ومن الممكن القول بان احتكار «الاسلام الحق» هو الصفة المميزة لاغلبية هذه

الحركات ان لم يكن لجميعها. فالاخوان المسلمون، على سبيل المثال، عندما يتكلمون عن «الاسلام الحق» فانهم لا يعنون سوى اسلامـ (هم). وفي هذا تكمن العناصر الجوهرية في دعوى تمثيلها الخلافة (خلافة النبي والقرآن والسنة). وهذا ما يعطي لتسمية الكتاب قيمة سياسية وايديولوجية، من حيث محاولته استقراء واقع الحركات الاسلامية في مختلف تجليات نشاطها الفكري والعملي. حقيقة ان تسمية «خلفاء بلا خلافة» تظل تثير اشكالات في وعي الذات العربي التقدمي المعاصر. اذ لا ينبغي النظر إلى الخلفاء والخلافة بوصفها «سلبية» التاريخ العربي. على العكس، ينبغي النظر إلى الخلفاء والخلافة في موقعها ودورها التاريخي ـ الحضاري. فخلفاء كأبي بكر وعمر وعلي والرشيد والمأمون... الخ هم على الدوام عناصر جوهرية في وعي الذات التاريخي، والقومي. فشتان ما بين خلفاء الحق ومدعي الخلافة!!. بل يمكن القول، بان العالم العربي المعاصر هو «خلافة» بدون خلفاء حق. والمعادلة التي تسعى الحركات الاسلامية المعارضة لقلبها، لا تتطابق بالضرورة مع «مثالها» التاريخي القديم. وليس ذلك لاستحالة العملية من حيث مظهريتها، بل لاستحالتها من حيث مضمونها النوعي في التاريخ المعاصر. بصيغة أخرى، ان الخلافة الحقة الممكنة هي خلافة العلمنة والديمقراطية. وان الحركات الاسلامية المعارضة بمهاجمتها عملياً أهم عنصري «المقر الثقافي» للعالم العربي المعاصر (العلمنة والديمقراطية)، فانها ستظل، في افضل الاحوال داعية «خلافة» وهمية. غير ان الاوهام في عالم السياسة تتحول إلى قوة سياسية. وفي هذا تكمن خطورتها، قوتها وضعفها

الحركات الاسلامية المعارضة: مواطن القوة والضعف

ان مما لا شك فيه، هو واقع ازدياد قوة وتأثير الحركات الاسلامية المعارضة في العالم العربي، خصوصاً عند تخوم عقدي السبعينات ـ الثمانينات. وقد سعى المؤلف لربط هذه الظاهرة الشائكة بعملية التطور الاجتما ـ اقتصادي والسياسي والثقافي، التي افرزت في تجلياتها الملموسة اسباباً فعالة، رئيسية ومساعدة، في اظهار الحركات الاسلامية المعارضة إلى الوجود. فقد ولد التطور الرأسمالي لبلدان العالم العربي الكثير من المعضلات الاجتماعية والنفسية والاخلاقية. ولعل من أبرزها ظواهر التمدين، وظهور الفئات الهامشية وحثالات البروليتاريا، وفقدان اواصر العلاقات التقليدية، مما خلق بدوره فراغاً «روحياً» عند أوساط شعبية عريضة، شكلت الاساس الاجتماعي لاغلبية الحركات الاسلامية المعارضة. وفي كل ذلك يستند اغناتينكو في اطروحاته إلى معطيات اقتصادية

وسوسيولوجية، حاول من خلالها الكشف عن الجذور الاجتماعية لهذه الحركات (ص ٨١). وقد اتخذ المؤلف من حركة أمل مثالاً للكشف عن هذه الظاهرة، رغم استفاضته في الفصل الأول من الكتاب عن تاريخ الحركات الاسلامية المعارضة في كل من مصر والسعودية وسوريا والعراق ولبنان وتونس والمغرب والجزائر (ص ٦ ـ ٧٣) مع اشارات وتحليل متباين السعة لاغلبية الاحزاب والمنظمات الاسلامية السياسية في العالم العربي (حيث يورد المؤلف ١٣٤ منظمة يفرد لها ملحقاً خاصاً في نهاية كتابه ص ١٩٥ ـ ٢٠٦) والذي يكشف دون شك عن تعقيد الظاهرة والتباين فيما بينها، وبالتالي ضرورة الحذر من التعامل معها على أساس «موحد». وهذا ما افلح اغناتينكو به، دون ان يعني ذلك غياب بعض بقايا الاحكام الايديولوجية (على سبيل المثال تسمية بعض عناوين الكتاب بـ «الطابور الخامس» حال الحديث عن الاخوان المسلمين، أو عناوين «التوجه الاشتراكي» تجاه بعض البلدان العربية)، أو بعض التقييمات الوحيدة الجانب، أو الايديولوجية المنزع (كما هو الحال في تعميمه للفصل المتعلق بدراسة تاريخ الحركات الاسلامية المعارضة في العالم العربي، اذ يجري تقييمها على أساس ممارستها من خلال استعراض بعض نشاطاتها فيما كتب عنها أو قامت به في غضون شهر حزيران عام ١٩٨٧ (ص ٦٩ ـ ٧٣)؛ الاخبار التي تكشف عن الهوية السلبية الكاملة للحركات الاسلامية المعارضة. والقضية ليست في صحة أو عدم صحة المعطيات والاخبار، بل في طرحها كوسيلة برهانية، مازال بالامكان استعمال الاسلوب ذاته تجاه الحركات التقدمية بمعنى «انتقاء» ما يمكن ان يؤيد اطروحاتها واستنتاجاتها.

فنشوء وتطور الحركات الاسلامية المعارضة، يؤدي بالمؤلف إلى ابراز ما دعاه بـ (مصادر القوة والضعف) فيها. وهو يؤكد على ان من بين أكثر هذه المصادر هي: تباين قاعدتها الاجتماعية (حيث تحتوي على المليونيرية والمعدمين) وقاعدتها الطلابية العريضة، وطابعها الطائفي ـ المذهبي.

علاقة الدولة بالحركات الاسلامية المعارضة

إلا ان الاستعياب الأكثر عمقاً لاسباب «انبعاث» الحركات الاسلامية المعارضة غير ممكن دون ادراك تاريخية وآلية علاقة الدول والسلطات بالحركات الاسلامية المعارضة. وهنا تجدر الاشارة إلى عدم تجانس علاقة الدول بالحركات الاسلامية وازدواجيتها. ففي مصر الناصرية غير ما هو عليه الأمر في مصر الساداتية. إلا ان لكل منهما ازدواجيته الخاصة. فعبد الناصر سعى لتطويعها وتدويلها (دمجها بمؤسسات الدولة)،

محاولاً بذلك اضعاف دورها. إلا انها العملية ذاتها التي فسحت المجال أمام الحركة الاسلامية المعارضة لأن تنشط من خلال مؤسسات الدولة والادلجة الدينية لـ «الاشتراكية العربية». أي نشر افكار الحركات الاسلامية واضفائها على اشتراكية عبد الناصر. وقد استنتج اغناتينكو استنتاجاً سليماً يقول بأن الاستعمال المزدوج للدين قد أدى إلى نتائج مزدوجة (ص ١١). أما في مرحلة السادات، فان التعامل مع الحركات الاسلامية والدين بلغ درجة اللعبة السياسية الفاضحة. لقد حوّل السادات الاسلام إلى وسيلة سياسية وايديولوجية مباشرة (ص ١٣). غير ان هذه اللعبة السياسية، كما يؤكد اغتاتينكو بصواب، لم تكن نتاج السياسة الساداتية، بقدر ما انها تمتلك تاريخيتها الخاصة بها. فالسادات لم يعمل في فضاء خال. فالتركة الناصرية كان لها، كما في ميادين عديدة، آليتها وتراثها الخاص. والسادات لم «يفلح» إلا في ايصالها إلى أقصى درجاتها مما جعله يقدم رأسه على طبق بيديه. ولم يكن نصيب الدول العربية الأخرى أفضل في هذا الميدان. حقيقة ان افول السادات والثورة الايرانية، قد «ابدع» شعور الحذر واعادة النظر في الممارسة السابقة، دون ان يفقدها آليتها السابقة. وليس ذلك إلا نتاج الطبيعة الطبقية والفكرية للانظمة ذاتها. ويقدم المؤلف امثلة ملموسة عديدة عن السعودية والعراق وتونس والمغرب والبلدان العربية الأخرى. فصدام حسين، على سبيل المثال، الذي أعلن مراراً بان الايديولوجية البعثية ليست ديناً جديداً، بل ايديولوجية علمانية، والذي قمع الحركة الاسلامية المعارضة بقوة بما في ذلك اعدام محمد باقر الصدر (١٩٨٠/٣/٣١) وسن قانون الاعدام لمن ينتمي لحزب الدعوة، لم يمنعه أثناء ذلك وفيما بعد ان يحاول ابراز «هويته الاسلامية». فقد أعلن صدام حسين (١٩٧٩/٨/٨) عن ان العراقيين هم احفاد الامام علي بن ابي طالب. أما هو فمن احفاد الامام علي (ص ٣٧). وفي وقت لاحق سوف يأخذ في تعمير الاماكن المقدسة، والاشتراك في الاحتفالات الدينية. ولا يشكل استثناء في هذا الميدان مواقف النظام التونسي (بورقيبة) العلماني، بمعنى عدم تجانسه. والمؤلف مصيب عندما يشير إلى ان مواقف الانظمة هذه لم تكن بمعزل عن سعيها لمحاربة القوى الديمقراطية والثورية. غير انه يستلزم ان نضيف هنا، ان هذه المواقف ليست مجرد حصيلة هذه الغاية السياسية. اذ ان بعض تعقيداتها تكمن في العملية التاريخية للتطور المعاصر للبلدان العربية. ولعل مثال بلدان المغرب العربي يمكن ان يسلط الضوء على بعض جوانبها. فالنظام التونسي، الذي اتبع العلمنة، وسعى لاظهار وتطوير «القومية التونسية» كان مضطراً للرجوع إلى جذورها، التي لم يكن بالامكان «ابداعها» خارج إطار التراث العربي ـ الاسلامي. ولهذا وجد نفسه، شاء أم أبى مضطراً إلى التخبط في هذه المفارقة المعضلاتية. أما في الجزائر، فان هذا الرجوع، كما هو الحال نسبياً في المغرب،

قد تركز وتمحور في بعض تجلياته حول ظاهرة التعريب. والمؤلف يشير إلى طابع هذه العملية المتناقض، ويربط جزئياً بين ظاهرة التعريب وتطور تأثير الحركات الاسلامية المعارضة (ص ٦٧). وبغض النظر عن الاشارة العامة، والصحيحة من حيث مظهريتها، إلا انها تثير أشكالاً لم يتناوله المؤلف. فالظاهرة المتناقضة ليست سلبية على الدوام. وفي الحالة المعنية من الأدق استعمال مفهوم التناقض الطبيعي في الظاهرة، بفعل الحالة التي مرت بها الجزائر والمغرب العربي بشكل عام. أي انها العملية الضرورية، الطبيعية في الرجوع إلى المصادر الاولية، وان ذلك يستثير بدوره تنشيطاً نسبياً للتراث الاسلامي. غير ان ذلك لا يعني وجود صلة ضرورية فيما بين ظهور وتطور الحركات الاسلامية المعارضة وعملية التعريب. فالأخيرة قد حدثت في الواقع في كافة البلدان العربية، وان بمستويات متباينة. فالتعريب هو جزء من عملية الوعي القومي الحضاري، بل يمكن القول بان الحركات الاسلامية تلعب دوراً تقدمياً بهذا المجال، أي على تمام المعاكسة مع مقابلها (الفرنسة). ولهذا فان المعطيات التي يقدمها اغناتينكو بالاستناد إلى (الموند ديبلوماتيك) الفرنسية، التي حاولت ان تربط حركة المعارضة الاسلامية وتطورها بعملية التعريب التي جرت في السبعينات بالمغرب، استناداً إلى «واقع» تغلغل الاخوان المسلمين في صفوف مدرسي اللغة العربية لا تعبرّ إلا عن طفح ايديولوجي ومصالح سياسية وثقافية ضيقة. فالمشرق العربي ليس «مصدر» الرجعية الاسلامية للمغرب العربي - وهذا ما ينطبق على المطعيات التي يقدمها اغناتينكو بصدد التعريب في الجزائر. بمعنى انه ينظر إلى الظاهرة من حيث طابعها المتناقض، بابراز عاملها السلبي. حقيقة انه يتكلم حول تأثيرها في تنشيط الحركات الاسلامية، وهذا واقع، إلا انه يغفل عمقها وافقها الديمقراطي والثوري، بل والعلماني. فالمؤلف يشير إلى ان توجهات وعلاقة الطلبة تختلف باختلاف اللغة المدروسة. فموقف المتعلمين بالعربية مقارنة بمن يتعلم بالفرنسية يبدو أكثر رجعية تجاه المرأة (بصدد الاختلاط بالمدارس، حيث نسبة الاجابة المستحسنة كالتالي: الدارسون بالعربية ٦٣٪ بينما الدارسون بالفرنسية ٨١٪ أما بصدد اشتراك النساء في السياسة فالاوائل ٣٤٪، بينما الثواني ٦١٪) (ص ٦٨). وبغض النظر عن ان هذه المعضلات ليست الأكثر جوهرية في واقع الجزائر، وبغض النظر عن ان المؤلف لم يورد نسبة الردود بصدد معضلات أخرى أكثر «مصيرية»، فان هذه القضية ذاتها أعقد من ان تحصر في الاطار الآنف الذكر. فاللغة قد تلعب دوراً محدداً في بلورة بعض الصياغات الفكرية، إلا انها تبقى وسيلة التعبير، وبالتالي لا وجود لصلة ضرورية فيما بين الوعي والموقف الاجتما - سياسي واللغة. فاللغة الالمانية لم تعق في ظرف معين ان ينطق اغلبيتها بالفاشية، ولم تمنع الروسية ان يردد الروس عبارات ثورية في المرحلة الستالينية لذبح المعارضة من كل

شاكلة وطــراز. بصيغــة أخــرى ان القضية هنـا غاية في التعقيد، من حيث مضمـونهـا التــاريخي ـ اللغـوي والتــاريخي ـ الفكــري والتاريخي ـ الثقافي. وفي ظروف المغرب العربي فقد تداخلت كافة هذه الجوانب، مما يجعل من العربية والعربي ـ الاسلامي وسيلة وحدة التاريخي في كل تجلياته، ولكن كمصادفة ضرورية تمتلك، بغض النظر عن كل زوائدها «السيئة» قيمة تقدمية.

غير انه فيما لو تركنا «الموضوعي» في تحليل الظاهرة المدروسة فان محدودية التصور للتراث وفنطازية الانظمة عادة ما تضعها في شراك وهم الفعلي. إلا ان المعضلة «التونسية» الآنفــة الذكر (ولحد ـ ما الجزائرية) ليست إلا معضلة الانظمة الأخرى، والتي تقوم في «تسييسهــا» الــدين كوسيلة ذرائعية. وهــذا ما تؤكده تجربة المغرب العربي ككل. وهي تعكس في نهــاية المــطاف الــطابــع الجـزئي والمتردد، كما يؤكد اغناتينكو، للمشاريع الاجتما ـ سياسية التقدمية (ص ٥٠). وفي الواقع، فان أحد الاسباب الجوهرية في هذه العملية المتناقضة، يكمن في غياب الديمقراطية أو طابعها الهامشي. بل يمكن ان نجزم، بان علاقة السلطات بالحركة الاسلامية والدين سلباً و«ايجاباً»، هو نتاج للعلاقة الهامشية والقمعية تجــاه الديمقراطية. اذ حتى في حالات «دفاع» الدولة عن الديمقراطية، فانها تستغل ذلك لممارسة القمع ضد معارضيها الأكثر خطورة في اللحظة المعنية. وهذا ما حاول المؤلف كشفه على مثال موقف النظام المغربي من محاكمة واعدام بعض أعضاء الحركة الاسلامية التي اغتالت عمر بن جلون (١٨/١٢/١٩٧٥)، أحد قياديي الاتحاد الاشتــراكي التقــدمي للقــوات الشعبية. فالنــظام الملكي لم يعاقب المغتالين إلا حالما تحسس خطرهم عليه. فهو لم يحاكم قاتلي بن جلون إلا بعد سنوات. وليس ذلك دفاعاً عن الــديمقراطية ولا حباً باليسار المغربي، بقدر ما كان يسعى تحت يافطة الدفاع عن الديمقراطية إلى تصفية الحساب مع المعارضة الاسلامية. وهذا ما سيبرز بوضوح في تلك الملاحقات التي عمت، بعد انتصار الثورة الايرانية، قوى اليسار ككل، بحجة محاربة القــوى المتــطرفة. اذ لم يكن من بين عدد المعتقلين (١٨٠٠ شخص)، كما ستلاحظ الصحافة لاحقاً، سوى سبعين عضواً من أعضاء الحركات الاسلامية (ص ٥٨). كل ذلك يسلط الضوء، إلى جانب أمور عديدة أخرى، على طبيعة وآفاق مواقف الدول من الحركات الاسلامية المعارضة. وهذا بدوره سيظل يفسح المجال أمام ظهورها المتجدد. ان موقف الدول من الحركات الاسلامية والدين في ظروف العالم العربي المعاصر تشبه،كما يكتب اغناتينكو، لعبة الشطرنج التي يلعب كلا الفريقين فيها باللون الابيض. اللعبة التي يشكل طرفها الآخر موقف هذه الحركات من الدول ذاتها.

الحركات الاسلامية المعارضة والموقف من الدولة

ان أول ما يلفت الانتباه بصدد تحليل موقف الحركات الاسلامية المعارضة من السلطة، هو طابعها المتناقض والمتباين. والمؤلف، حالما يستعرض تاريخ الظاهرة، يبدأ بمصر السادات، ويحاول الاجابة عن السؤال الذي أثار دهشة الكثير في وقتها. وهو: لماذا وقع السادات «ضحية» ما كان يسعى هو لأن يكون سنده القوي؟ تماماً كما ستدهش الثورة الايرانية في وقت لاحق الباحثين حول قواها المحركة وقيادتها. اذ ان التصورات السابقة كانت منصبة في إطار اظهار «رجعية» و«سلبية» الحركات الاسلامية، وبالتالي طابعها الاسنادي للانظمة الرجعية. غير ان سهولة الاجابة الممكنة لا تقوم في ان صراع القوى الرجعية فيما بينها ممكن كما هو الحال بالنسبة للقوى اليسارية (على مستوى الاحزاب والدول)، بل وفي تلك الآلية أو المقدمات الاجتما ـ اقتصادية والسياسية والفكرية لظاهرة الحركات الاسلامية المعارضة، سواء فيما يتعلق بظهورها وتطورها وموقفها من السلطات، أو موقف السلطات منها. وعندما يتتبع اغناتينكو هذه القضية على أساس حادثة مقتل السادات، فانه يسعى للبحث عن جذورها فيما قبل ذلك، أي منذ بدايات تأسيس حركة الاخوان المسلمين، وبالذات في علاقة الحركة بالضباط الاحرار ما قبل وبعد الثورة.

لقد ساهم الاخوان في ثورة ١٩٥٢. وتعامل عبد الناصر مع الاخوان على أساس ديمقراطي باطلاق سراح السجناء من أعضاء المنظمة، إلا ان التطورات اللاحقة، قد ابرزت إلى الامام «تناقض» الحركات الاسلامية (الاخوان) والسلطة الناصرية. انها الظاهرة التي يمكن ملاحظة خطوطها العامة. في أغلبية، بل جميع البلدان العربية. ولم يستند المؤلف في استنتاجاته العامة وأحكامه على مقولات واطروحات مسبقة وعمومية، بل تتبع هذه الظاهرة في أغلب البلدان العربية، محاولاً الكشف بصورة ملموسة عن أسباب هذه المعارضة. ففي مصر الناصرية تحددت، بشكل عام بازدياد التناقض في مصالح واطروحات (برامج) كل منهما (ص ٨). بينما في زمن السادات، رغم كل «التعاون» فانها ظلت تحمل في طياتها شرارة العداء والحذر. فلا السادات ظل واثقاً إلى النهاية بالحركات الاسلامية ولا الأخيرة بامكانها ان تتفق معه على كل ما يقول ويفعل. فقد حول السادات الاسلام إلى وسيلة سياسية وايديولوجية مبتذلة، ثم ان تاريخه السياسي القديم والمعاصر لم يتفق، بل يتعارض في قضايا كثيرة،وجوهرية أحياناً، معها. اضافة لذلك فان الحركات الاسلامية المعارضة، من حيث انحداراتها الاجتماعية وسيكولوجيتها، فقد جمّعت شحنة العداء والاحتجاج الاجتماعي، وشكلّت في ظروف مصر أحد منافذه المهمة. وان مقتل السادات لم يضع حداً لمعارك الحركات الاسلامية المعارضة ضد النظام (ص ١٩).

الظاهرة التي تمتلك الكثير من القواسم المشتركة مع مثيلاتها في بلدان العالم العربي الأخرى. وهذا ما جعل المؤلف يؤكد، في نهاية استعراضه تاريخ الحركات الاسلامية المعارضة، إلى ان هذا الفصل لم ينجز بعد (ص ٦٩). ولم يعن المؤلف بذلك فصل الكتاب فحسب، بل وفصل المعارك.

مميزات الحركات الاسلامية المعارضة

بغض النظر عن واقع تمايز هذه الحركات من بلد عربي لآخر، إلا انها تمتلك الكثير من الصفات والمميزات المشتركة. ومما يلفت الانتباه كون أغلب عناصرها القيادية (باستثناء نسبي للحركات الشيعية) ليست من «رجال الدين» أو «علماء الدين». ولهذه الظاهرة المميزة اسبابها وانعكاساتها العديدة. فهناك أسباب لها صلة ببنية الاسلام الداخلية وتعاليمه، أي فقدان الهرمية التنظيمية الصارمة، اضافة إلى حرية الفرد الشخصية في التعامل مع النصوص والتراث الاسلامي «دون ضوابط»... الخ وقد حاول المؤلف الكشف عن هذه الاسباب وتأثيرها على مثال الكثير من وقائع وتجربة الحركات الاسلامية المعارضة (خصوصاً الاخوان المسلمين).

ويورد اغناتينكو استناداً إلى الصحف والكتب الكثير من الامثال الملموسة. غير انه في حالة تجاوزنا استعراض كل المميزات الواقعية للحركات الاسلامية المعارضة، فان ما هو جامع لها في الاطار العام، بنظر المؤلف يقوم في تناقضها الداخلي بفعل تباين قاعدتها الاجتماعية، وتباين أشكال وعيها الديني السياسي، اضافة إلى غياب برامجها الاجتماـ سياسية الواضحة، مما يجد انعكاسه في تقلباتها السياسية وكوامن انشقاقاتها الدائمة.

أسباب انشقاقات الحركات الاسلامية المعارضة

مما هو ملفت للنظر ظاهرة الانشقاق الدائم في الحركات الاسلامية المعارضة. غير ان لهذه الانشقاقات طابعها «الوطني» و«العقائدي» والسياسي. وهي بذاتها لا تخضع لقاعدة موحدة. انها تظهر في الاطار العام كتعددية سياسية داخل الحركة الاسلامية المعارضة، يحددها في الأغلب اشتداد الصراعات السياسية الداخلية، كما هو الحال عند الاخوان المسلمين. إلا ان هذه الانشقاقات ليست على الدوام حصيلة «الاجتهاد» الفكري، بل ونتيجة للتدخل «الخارجي» أيضاً. فانشقاقات الحركات الشيعية في العراق ولبنان لم تكن بمعزل عن التدخل الايراني. فحركة حزب الله وظهورها المستقل هو في

بعض محصلاته الفعلية نتاج التأثير الايراني، سيما وان قيادته سبق وان ربيت في بوتقة أمـل. غير ان ذلـك لا يعني اولوية التأثيرات الخارجية. فمثال حزب الله وحركة أمل له تعقيداته الخاصة. فالمصادر الاولية-(الفكرية ـ التنظيمية) لهما قد سبق وان نشأت تحت تأثير الحركة الشيعية العراقية (ص ٤٧). إلا ان عقائدية الشيعة وتراثها الفكري السياسي يفسح المجـال للحـديث حول طابعها الما فوق «وطني». إلا ان ذلك لا يعني غياب «الـوطنية» فيهـا وامكانية اشتداد الصراعات والانشقاقات فيما بينها على هذا الاساس. فحزب الله يبرز كما لو انه ما فوق وطني، بمعنى تأكيد «شيعيته»، والتي تعني في حالات كثيرة مطابقتها في السياسة والفكر للنظام الايراني (الحركة الخمينية). بينما سعى نبيه بري إلى تأكيد لبنانية الحركة (ص ٤٧). في حين اتخذت الانشقاقات في الحركات الاسلامية المعـارضـة الأخـرى حوافز وأسباب أخرى. وبغض النظر عن كل حيثيات الظاهرة فان الانشقاق اصبح من بين أهم مميزاتها الكبرى، والتي تعطي للحركة الاسلامية المعاصرة طابع القوة، وفي الوقت نفسه تشير إلى كوامن ضعفها. وليست حالات القوة والضعف ههنا سوى انعكـاس لمـوضـوعية التنـاقض القـائم في ممـارستهـا. ولعل موقفها من «القوى الامبريالية» والكيان الصهيوني ما يوضح ذلك بجلاء.

الحركات الاسلامية المعارضة وموقفها من الامبريالية والصهيونية

رغمَ اعلان الحركات الاسلامية عداءها الشديد للامبريالية والصهيونية إلا انها، في بعض ممـارساتها تخدمهما موضوعياً . وذلك ما حاول المؤلف تتبعه من خلال ابراز موضوعية هذه الخدمة. فالقضية ليست في امكانية واستغلال الكيان الصهيوني للتطرف الـديني والطائفي داخل فلسطين لقمع الحركة الوطنية، بل ولتشديد الصراع «اليهودي ـ الاسلامي»، ومن ثم اعطاء الصراع طابعاً دينياً.

ويستغـل الكيان الصهيوني ظاهـرة التـطرف والارهـاب المميز لبعض الحـركـات الاسلامية ومحاولة لصقها بالحركات الوطنية التحررية العربية ككل. اضافة لذلك يجد الكيان الصهيوني في الطائفية الدينية وسيلته المحببة. فالصراع الديني ـ الطائفي (خصوصاً في لبنان) يخدمه للبرهنة على عدم امكانية توقع تعايش اليهود والنصارى والمسلمين في فلسطين. فلبنان هو «الاعتراض الافضل» للكيان الصهيوني وبالتالي رفض اقتراح منظمة التحـرير الفلسـطينية حول الـديمقـراطية العلمـانية في فلسطين، ما دام لبنان بمسلميه ونصرانيه يبرهن على ان «وجود مجموعات قومية طائفية متباينة في ظل ديمقراطية واحدة غير ممكن».

ويقـدم المؤلف الكثير من المعطيات التي تبرهن على مساعدة الكيان الصهيوني للرجعية الاسلامية (والمسيحية أيضاً) وما قدمته وتقدمه هذه الحركات بدورها للامبريالية الامريكية (ص ١٤٨ ـ ١٥٥). غير ان هذا «التسيب الموضوعي» في جريان الرياح على غير ما تشتهي سفن الحركة الاسلامية المعارضة، لا يعني غياب وحدتها الداخلية.

وسائل وأساليب نشاط الحركات الاسلامية المعارضة

ان الحركات الاسلامية المعارضة، كظاهرة متعددة الاطراف والاشكال والمضامين ما زالت تثير محاولات نظرية لتحديد اساليب «صورتها الموحدة». واغناتينكو يسعى لابراز هذه الصـورة من خلال تقـديم الاسس العـامـة التي بمسـاعـدتهـا يمكن تصنيف هذه الحـركات، حيث يفرز من بين اهمها: طابع علاقتها المتبادلة مع الدولة، ونمط وعيها الـديني السياسي، وانتماءها الطائفي المذهبي، ومستوى خضوعها لهذه الدولة أو تلك، وحدودها الجغرافية، وأشكال ووسائل نشاطها، وأخيراً مستوى تأثيرها الاجتما ـ سياسي (ص ١١٩ ـ ١٢٢).

ويشكل الاهتمام بدراسة أشكال ووسائل نشاطها، الجانب العملي فيها، والذي يعكس، إلى جانب تنظيميتها، المحتوى الفكري لاساليب نشاطها السياسي. وتمتلك هذه الحـركات ، بغض النظر عن تباينها، صفات ومميزات مشتركة في نشاطها العملي السياسي. فالحركات الاسلامية المعارضة، منذ بدء نشاطها الفعال، الذي شكلت حركة الاخـوان المسلمين أحـد تياراتـه الكبـرى، قد صاغت اسـاليب ووسائل لكسب التأييد الجماهيري، الذي تأثرت به، بهذا القدر أو ذاك، أغلبية الحركات المعاصرة. وبغض النـظر عن تعـرض نشاطها وتركيبتها التنظيمية لتغيرات عديدة، فان احدى سماته ظلت قائمة، وهي وجود تنظيم رفيع المستوى في القيادة وتسيب في القاعدة (ص ٩٦). ولكن فيما لو تجاوزنا الاسباب العديدة لهذه الظاهرة وتناولنا ما هو مميز لها في نشاطها العملي اليومي، فانها تتبع أساليب شبه موحدة في كسب اعضائها الجدد، مبني في حيثياته الاولية على ثلاثية: دراسة الشخصية والتدرج معها وأخيراً امتحانها (ص ٩٩). فالاخوان على سبيل المثـال، صاغوا في مجرى ممارستهم العملية درجات الانضمام بالصيغة التالية: الانضمام العام، ثم الانضمام الاخوي، ثم الانضمام العملي وأخيراً درجة المجاهدة. وقد وافق ذلك تراتبية تنظيمية مناسبة.

وتشكل التربية القتالية ـ النفسية للاعضاء الاتجاه الأول حيث يتبعها التربية الايديولوجية. إلا ان وسائل وأساليب نشاط هذه الحركات لا تتحدد بذلك فقط. اذ تستغل الحركات الاسلامية المعارضة الوسائل العلنية للضغط على الدولة (استغلال مواقف السلطات المزدوجة تجاه الدين، الدخول في المنظمات المهنية الرسمية، استعمال المنظمات والجمعيات الخيرية)، أما في المرحلة الأخيرة فقد ازداد استعمالها للارهاب والاغتيال السياسي (اغتيال سهيل طويلة، مهدي عامل وحسين مروّة. . .) اضافة إلى أخذ الرهائن وكذلك استعمال «القوائم السوداء» في التصفيات الجسدية. (ص ٩٨ ـ ١١٥). ولا تعكس هذه الوسائل الأخيرة سوى الطابع المأزقي لها، والذي حاول المؤلف الكشف عنه من خلال تتبع ما يدعوه بالازمة الايديولوجية للتطرف الاسلامي.

فالحركات الاسلامية المعارضة تعكس،في واقع أزمتها، أزمة التطور المعاصر في العالم العربي، إلا انها في الكثير من ممارساتها لا تعمل، في الواقع،إلا على تعميق هذه الأزمة.

د. ميثم الجنابي



الدوغمائية / سحر العبودية

تأليف: خوان غرفاسيو باز

حتى الفترة الأخيرة كان لدينا عدد قليل نسبياً من مؤلفات الماركسيين حول الجمود العقائدي. وقد ساعدت عملية اعادة البناء والعلنية في الاتحاد السوفييتي على ظهور مؤلفات يدور الحديث فيها حول هذه الظاهرة التي تعتبر مسؤولة إلى حد كبير عما يسمى بأزمة الماركسية.

ان خوان غرفاسيو باز مؤلف الكتاب مجال العرض «الجمود العقائدي بين السحر والعبودية» شيوعي ذو تفكير ماركسي لينيني رفيع، اختصاصه طبيب في التحليل النفسي ويشغل مناصب قيادية في مراكز الابحاث الاجتماعية المختلفة.

ولا تكمن قيمة هذا البحث العلمي في الكشف عن مصادر التفكير العقائدي الجامد في مجتمع التناقضات الطبقية التناحرية فقط، بل انه يستعرض وبنجاح تجلياته وعواقبه في المجتمع الاشتراكي وفي نشاط الاحزاب الشيوعية أيضاً. كما يعود الفضل للمؤلف لانه عرّى هذه المسألة بصراحة. وبتعبير مجازي قام بتشريح هذا «الورم الخبيث» جداً بمبضع جرّاح، هذا الورم الذي تكاثر وانتشر في المرحلة الستالينية بشكل خاص. وهي عملية مؤلمة ولذلك يثير الكتاب مشاعر الالم. يقول المؤلف «. . . سوف اركز بقدر ما تسمح به قواي على اجتثاث النباتات الضارة التي تكاثرت بصورة خطرة على طريقنا الذي فقدنا عليه عدداً كبيراً من الرفاق» (ص ١٣).

يؤكد الكتاب ان الجذور التاريخية للجمود العقائدي لم تنمُ في الوسط اليساري. ويكتب في معرض شرحه لاسباب ظهور الجمود العقائدي: «ليس الجمود العقائدي ولم يكن مطلقاً شذوذاً في التفكير أو مرضاً ما من الامراض التي تصيب الافكار النظيفة والتي يمكن للمفكر ان يحصن نفسه منها عبر استخدام القواعد المنطقية والعقل السلم أو مناهج العلم المجربة. كما انه ليس مجرد ثمرة لاختراع انتهازي لاصحاب السلطة يستخدمونه للدفاع عن مصالحهم من الجماهير الساذجة. لقد تشابك الجمود العقائدي مع الدين والسلطة منذ زمن بعيد. ويتجلى الميل العقائدي الجامد لدى الانسان مع ايمانه الديني والثقة بالسحر. كما يكتسب الجمود العقائدي أشكالاً أكثر تنظيماً وكمالاً مع ظهور المجتمع الطبقي والدولة والبيروقراطية وفئة الكهنة» (ص ٢٦).

وبعد هذه التأكيدات يعرض لنا المؤلف كيف ان الدولة التي أوجدها الانسان تبتعد عنه تدريجياً وتكتسب معنى خاصاً خارقاً. وبدءاً بعصر الفراعنة في مصر حتى الثورة الفرنسية التي قدست الديمقراطية والحرية، كان مفهوم المبدأ يغتني تدريجياً بمضمون ملموس. وعند ذلك فانه يحمل طابعاً قطعياً، الأمر الذي يسمح بتنظيم العلاقات بين الناس وبخاصة بين المعدمين والاثرياء بصورة تفصيلية. علماً بان الأكثر قدرة وسطوة يشبه نفسه بالآلهة.

واذ يطور هذا الموضوع يستعرض الباحث ظواهر العقائدية الجامدة التي انتقلت من الدولة البرجوازية إلى أول دولة اشتراكية، ويركز بشكل خاص على «عقيدة التقدم المطرد» التي برزت تحت تأثير الثورة الصناعية، والتي سارت البشرية بموجبها في طريق التقدم الظافر دون أية تراجعات. وكما يشير الكتاب فان هذه العقيدة لم تتعرض للتغيير عند الانتقال من المجتمع البرجوازي إلى المجتمع الاشتراكي. وفي الوقت نفسه ينتقد المؤلف الرأي القائل بان تطور الاشتراكية هو حركة مستمرة نحو الشيوعية.

ويقارن باز بين العقائدية الدينية والعقائدية السياسية المتعلقة بشكل خاص بالمرحلة التي تلت ظهور الاحزاب الشيوعية. كما يستعرض بتعميم ناجح المسلمات الاساسية للكنيسة الكاثوليكية. وبعد ان نتعرف عليها،نحن الذين نعاني مجمل التبدلات والتغيرات في الماركسية المعاصرة، نشعر كما لو اننا نرى صورتنا السالبة من النوعية الممتازة. ويشير المؤلف بكل وضوح إلى ان هدفه ليس نقد الدين بل العكس بالاحرى: «ان العقائدية الجامدة جوهر الدين الاساسي... ومن جهة أخرى... لا تعتبر بأي شكل من الأشكال شرطاً لوجود الاشتراكية والاحزاب الماركسية. ففي الحالة الأولى ثمة علاقة انسجام واتساق وفي الثانية لا وجود لهذه العلاقة. وربما يكمن في ذلك أحد أسباب القدرة الابداعية الفائضة، أحياناً، للمجتمع الديني العقائدي الجامد. عندما اتذكر الكنائس ذات الطراز

الغوطي لا يمكنني إلا ان اقارنها بذلك «العقم» وبسيطرة الذوق الرديء اللذين لحقا بالفن المعماري السوفييتي في العشرينات بسبب العقائدية الجامدة الستالينية» (ص ٤٥).

وفي رأيي ان باز يتعمق، منطلقاً من ذلك، في مواضيع جذابة وممتعة مثل الجمود العقائدي ونظرية المعرفة، قضايا السلطة، نظرية الذاتية ومفهوم الاسطورة، الدين والايمان، المثل العليا والذات والخطاب العقائدي الجامد. ويعتمد المؤلف خلال استعراضه لها على نظرية الطبقات والصراع الطبقي، منتقداً من يحصر هذه النظرية في مجرد تصادم الفئات الاجتماعية على قاعدة المصالح الاقتصادية. «تتحقق كل سلطة على أساس وعبر الذوات، الأمر الذي يعطي لها بعداً اجتماعياً وشكلاً ذاتياً أيضاً. وهي تتأصل في الذوات الاجتماعية الملموسة وتتلاعب بمخاوف الانسان ومطامحه، بما في ذلك طموحه إلى السلطة» (ص ٥٠).

يعتقد الباحث انه من أجل دراسة النظرية الذاتية لابد من استخدام منجزات الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم اللغة والتحليل النفسي. ويكتب باز بصدد التحليل النفسي: «سوف استخدم الافكار المقتبسة من التحليل النفسي مرات عديدة. غير انني لا اعتبر ان بامكاني بهذه الطريقة اعادة الاعتبار ولو بالحد الأدنى لهذا العلم والعلوم الأخرى التي قلل الجمود العقائدي من أهميتها. كما لا اقصد المبالغة أكثر من اللازم باهمية تطور هذه العلوم، على الرغم من ان هذا ما أقوم به في الواقع. والحقيقة هي . . . ان التحليل النفسي بالضبط حقق أكبر النجاحات في تفسير الجمود العقائدي على أساس نظرية الذات. . .» (ص ٥٢).

يرى المؤلف ان مفهوم «الرغبة» ظهر على أساس صلة العنصر الموضوعي، أي البيئة المحيطة بالانسان الذي يخلق الاوهام، ويرجع إلى فكرة ماركس: ان «. . . مطالبة الانسان بالتخلي عن الاوهام حول وضعه تعني مطالبته بالتخلي عن الوضع الذي تكون الاوهام ضرورية فيه» (ص ٥٣). ويشير الكتاب: «لدى كل ثورة اساطيرها ورموزها التي تحفز وتعمم عواطف جميع المشاركين فيها ومطامحهم» (الصفحة ذاتها).

واذ يقوم الباحث بتحليل ظهور الاسطورة بشكل عفوي أو نشرها من قبل قمة السلطة، فانه يؤكد على انها لا تتعارض مع التاريخ الواقعي، وانما تساعد على تأويله المتحيز من أجل الوصول إلى اهداف ايديولوجية. وبهذا الشكل تؤدي الاسطورة وظيفة مزدوجة ـ الفضح والاخفاء. وكالعادة تتعلق الاسطورة مباشرة بصورة قائد يجسد احلام الشعب ونضاله. والحقيقة ان الشعب السوفييتي ربط بناء الاشتراكية بصورة ستالين، وما أدى اليه ذلك من نتائج مهلكة ليس في الاتحاد السوفييتي فقط. ويشير الكتاب إلى الفرق بين احترام الشخصيات البارزة والاعجاب بها وبين تأليهها. ولا شك في ان قادة ثوريين

مثل خوسيه مارتي واوغوسطو ساندينو وفارابوندو مارتي وتشي غيفارا في امريكا اللاتينية والذين يجسدون التقاليد الديمقراطية والشعبية كانوا سيرفضون بحزم أدنى محاولة لتأليههم.

وفي معرض بحثه للعلاقات بين الذات والحزب يستخدم المؤلف التشابه في التحليل النفسي لظاهرة علاقة الابن بوالديه. ففي الحقيقة يقترن في إطار الاسرة الحب الذي تجسده الأم بالقانون الذي يمثله الأب. وعضو الحزب يرى في تنظيمه الأم الحامية والرؤوف والأب الصارم والمسامح في الوقت نفسه. نقرأ في الكتاب: «اذ يتنافس الأب والابن على حب الأم ـ الزوجة فانهما يشكلان زوجين حنونين. ويعرف كل واحد نفسه من خلال الآخر، ويطوران عِزة النفس غير الطبيعية. يدخل الأب في الاسرة القانون، أي المنتوج الاجتماعي الذي يبدو للابن انه ثمرة نشاط الأب. وهنا يحدث انعطاف حاد وحماسي، فالأب الذي يمنع ويحرِّم يصبح موضوعاً للحب، ولابد من الخضوع له كي يصبح الابن محبوباً لديه» (ص ٦١). وكما سيتوجب على الابن ان يحلل ويفهم علاقته مع الأب الذي فرضه عليه القدر، فانه ستبقى لديه امكانية التوجه إلى «الأب المثالي» دائماً. اعتقد ان الفكرة الواردة في الكتاب والقائلة ان اعضاء الحزب الشيوعي السوفييتي اصيبوا بعد المؤتمر العشرين للحزب بخيبة أمل عميقة ولكنها مفيدة اذ ترافقت مع ظهور أمل ووهم جديدين.

ثم يقوم الباحث بتعميمات واستنتاجات حول الستالينية، ويشرح لماذا اكتسب هذا المصطلح في يومنا هذا معنى مغايراً. فاذا كان يحمل حتى الماضي القريب طابعاً ايجابياً، فانه اليوم ذو مضمون سلبي جداً. ولدى تحديد التناولات الممكنة لفهم مسألة الستالينية، استخدم باز مواد مختلفة من ضمنها تقرير نيكيتا خروشوف أمام المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي والذي يصفه المؤلف بانه «نقد ستاليني للستالينية». ويرى ان النقد تركز في هذا المؤتمر على اخطاء ستالين بالاساس، دون تقديم تحليل عميق لنشاط ووضع بنى الحزب وهو ما كان ضرورياً. كما يشير إلى اسماء قادة بعض الاحزاب الشيوعية الذين بذلوا كل جهدهم بهدف ابعاد تهمة الانحياز السابق إلى الستالينية عن انفسهم، ويعترف بفضل خروشوف الذي بادر لمكافحة هذه الظاهرة.

ويشير الباحث انه لا يكفي الاعتماد على الحالة النفسية الشاذة لستالين أو على الوصف الذي قام به لينين في حينه، أو على تصرفات ستالين المرضية الشاذة في المرحلة الاخيرة من حياته. ويكتب قائلاً: «لا يدور الحديث حول الانتقاص من دور الفرد في التاريخ كما عنون بذلك بليخانوف ـ أول ماركسي روسي كتابه الرائع. ان ستالين شخصية تاريخية كبيرة. . . كان بالنسبة للبعض دكتاتوراً مستبداً ولآخرين من أمثال مؤلف سيرة حياته

دويتشر في مصاف الثوريين العظام المستبدين مثل كرومويل وروبسبير ونابليون. بل ان هناك من يشبه ستالين ببطرس الأكبر صاحب السلطة القيصرية المطلقة الذي أدخل التحولات البرجوازية في روسيا الاقطاعية الارستقراطية بالقوة» (ص ١٤٣).

ويتطرق الكتاب إلى مواضيع أخرى مثل طبيعة البيروقراطية في عصر الستالينية والتناول المبسط لبناء الاشتراكية في الريف عن طريق مصادرة ممتلكات الاغنياء الكولاك والمتوسطين. وبالمناسبة فان ستالين اقتبس هذه الفكرة من تروتسكي دون ان يذكر اسمه. كما يدور الحديث حول عدم التطابق بين المسلمات الايديولوجية في التقارير والقرارات بين الواقع الملموس لحياة الاتحاد السوفييتي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. ثم يكتب المؤلف حول ملاحقة رجال العلم والفن وعن الابرياء الذين ماتوا في السجون ومعسكرات الاعتقال.

بودي ان اختتم هذا العرض بالتحذير الذي تضمنه الكتاب، وهو مبرر من وجهة نظري: «ان بنى الستالينية المتشعبة والمعقدة موجودة في الوقت الحاضر بين الانقاض. ومن الممكن استخدام بعض اجزائها لبناء «كنائس» عقائدية جامدة جديدة كما حصل مع انقاض الهياكل الصنمية... » (ص ١٤٥).

يساهم عمل الباحث الارجنتيني في تطوير ذلك النقاش الحي الجاري اليوم في الاحزاب الشيوعية وفي التيارات السياسية الأخرى الطامحة إلى التجدد.

خورخي بيرغستين

عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الارجنتيني.



الشيوعية الاوربية:
ايجابيات التجربة التاريخية وسلبياتها

نظمت لجنة قضايا الحركة الشيوعية العالمية وتبادل خبرة العمل الحزبي في مجلة «قضايا السلم والاشتراكية» «طاولة مستديرة» مكرسة لتحليل منشأ وتطور وأهمية النظريات التي اطلق عليها في حينه اسم «الشيوعية الاوربية». وقد قدمت في هذه الندوة تقارير من قبل الدكتور في علوم الفلسفة داميان بريتيل (اسبانيا)، الدكتور في علوم التاريخ ادريانو غويرا (ايطاليا)، والدكتور في علوم الفلسفة غريغوري فودولازوف (الاتحاد السوفييتي).

ننشر ادناه ملخصاً للنقاش الذي دار بين أعضاء مجلس تحرير المجلة ومقدمي التقارير.

رفيق سمهون. ان «طاولتنا المستديرة» هذه مكرسة لأحد أكثر المواضيع حدة. وقد شغل الحركة الشيوعية والعمالية خلال فترة طويلة من الزمن، قدمت حوله تقييمات مختلفة، متعارضة في أحيان كثيرة. وتحملنا على مناقشة هذا الموضوع اليوم رياح العلنية، التي بدأت تقتحم جميع النوافذ والابواب التي كانت مغلقة في السابق، وكذلك القناعة بانه لم تعد هناك مواضيع محظورة في نقاشات الشيوعيين، وان الحقيقة ليست حكراً على أحد.

وهكذا ـ موضوعنا اليوم هو الشيوعية الاوربية. ما هي العوامل الذاتية والموضوعية التي اشترطت ظهورها؟ ما هي تجلياتها في الحياة الحزبية الداخلية، وفي النشاط الدولي

للاحـزاب الشيوعية في اوربـا الغربية؟ كيف كانت ردود فعل الحركة الشيوعية ازاء هذه الظاهرة؟ أمن الصحيح تفسير نظرية الاشتراكية العلمية انطلاقاً من المؤشرات الاقليمية، أم ان الحـديث يدور بالاحـرى حول استخـدام القـوانين العامة في الظروف الملموسة المختلفـة؟ تلك هي طائفة من الاسئلة التي من المحتمل بروزها في مجرى النقاش. فلنحاول الاجابة عنها.

ايجاد المخرج من الازمة

غـويرا . ان تاريخ الشيوعية الاوربية يبدأ، برأيي، بكونفرنس عام ١٩٧٤ في بروكسـل، عندما ظهر التطابق في مواقف الاحزاب الشيوعية في اسبانيا وايطاليا وفنلندا وفـرنسـا وبعض البلدان الأخرى. في السنوات التالية ازدادت هذه المواقف تقارباً على أسـاس فكـري مشتـرك، الأمـر الذي تجلى على وجه التحديد في كونفرنس الاحزاب الشيوعية والعمالية الاوربية في برلين (عام ١٩٧٦)، حين استخدم بيرلينغوير للمرة الأولى مصـطلح «الشيوعية الاوربية». وكـانت ذروة تطور هذه العملية في لقـاء زعماء الحزب الشيوعي الايطالي والحزب الشيوعي الاسباني والحزب الشيوعي الفرنسي في مدريد (عام ١٩٧٧). ووافقت على الافكار التي أعرب عنها آنذاك مجموعة من الاحزاب الشيوعية في اوربـا الغـربية، وكـانت قريبة منها أيضاً مواقف شيوعيي اليابان وعدد من بلدان امريكا اللاتينية. فما هو الاساس الذي قامت عليه هذه الوحدة في الآراء؟

لقد قامت، بالدرجة الأولى، على السعي إلى الفهم الاعمق للاسباب التي جعلت الحركة العمالية في الغرب عاجزة عن الانخراط في عملية التحولات الثورية، التي دشنتها ثورة اكتوبر في روسيا.

وبـرز رأي يؤكـد ان النمـوذج السـوفييتي للاشتـراكية لا يصلح لبلدان الرأسمالية المتطورة. من هنا نجمت اعادة التفكير في تجربة الاتحاد السوفييتي، المبنية على الفهم الجديد للعلاقة بين الاشتراكية والديمقراطية، التي تتطلب نظاماً متعدد الاحزاب، يسمح بتناوب السلطة وتعاقب القوى السياسية على الحكم.

ويمكن القول ان الشيوعية الاوربية سعت إلى استيعاب تقاليد الحركة العمالية، التي تركـز على النضـال من أجـل الـديمقـراطية والتعـددية، هذا النضال الذي ادعت الاشتراكية الديمقراطية لنفسها حق احتكاره.

وقد تطلب الأمر دراسات اضافية وقراءة جديدة لتاريخ تطور الاشتراكية، وتحديداً ذلك الفصل المرتبط بتعاقب الثورات الروسية الثلاث. فكل واحدة منها انما هي عبارة عن

عنصر من عناصر عملية واحدة. وانه لمن الخطأ التاريخي اليوم، مثلاً، النظر إلى ثورة شباط ١٩١٧ بمنظار ايديولوجيي الثلاثينات. ونشأت ضرورة العثور على التقاليد الشيوعية، التي تتصف، في الوقت نفسه، بمعاداة الستالينية.

في الوقت ذاته جرت محاولات لتطبيق افكار الماركسية النمساوية وفق الواقع المعاصر. ودرست تجربة الجبهات الشعبية لفترة ما قبل الحرب، التي شهدت سبلاً لتغيير المجتمع تختلف عن السبيل الروسي. ودرست أيضاً مرحلة ١٩٤٤ - ١٩٤٧، عندما تطورت في الغرب الايديولوجيا الديمقراطية المعادية للفاشية، هذه الايديولوجيا التي وحدت الشيوعيين مع القوى التقدمية الواسعة.

وأصر عدد من الاحزاب الشيوعية في الغرب على ضرورة الاصلاحات الديمقراطية في البلدان الاشتراكية. واجريت الدراسات لازمات الخمسينات والستينات في المجر وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا. وأثار اهتماماً خاصاً لدى شيوعي البلدان الغربية الاعتراف الأول في بولونيا بالاتحاد النقابي المستقل في بولونيا «التضامن»، وبحق العمال في الاضراب، الأمر الذي اعتبر خطوة نحو المجتمع التعددي.

وظهرت عناصر معينة لوحدة الآراء في تناول الاحزاب الشيوعية الكبرى في اوربا الغربية للعلاقات الدولية. وتعرضت القيادة السوفييتية لنقد جدي لأنها سحبت الصراع الطبقي على هذه العلاقات. فقد أعلن الحزب الشيوعي الايطالي بحزم انه يتناول مسائل السياسة العالمية بمعزل عن المواقف الطبقية، وان الخطر النووي يتطلب نظاماً جديداً للعلاقات الدولية بصورة مبدئية. وأدان أعمالاً للفترة البريجينيفية، مثل نشر الصواريخ الجديدة في اوربا، والتدخل في شؤون تشيكوسلوفاكيا وافغانستان، ومحاولات اقامة حلف عسكري - سياسي في افريقيا. وطرحنا الموضوعة القائلة بان نهج ايطاليا والحزب الشيوعي الايطالي ينبغي ألا يكون معادياً للامريكيين ولا للسوفييت.

ولكن على الرغم من كل ما يجمع بين الاحزاب الشيوعية الاوربية فانها تبنت وجهات نظر وتناولات متباينة جداً حول هذه المسائل أو تلك، اعاقت تحولها إلى حركة موحدة. فالاحزاب الشيوعية في ايطاليا واسبانيا وفرنسا، مثلاً، اختلفت إلى حد كبير في تقويم تلك القضايا الحادة الناجمة عن الاحداث الثورية في البرتغال مثل دور الجيش والعلاقات بين الشيوعيين والاشتراكيين، وامكانات التعاون مع البرجوازية.

في تلك المرحلة غدت الشيوعية الاوربية هدفاً لهجمات شرسة من الخارج، وشنت حملة دعائية ضد «التحريفية»، وشجعت محاولات انشاء مجموعات داخل بعض الاحزاب تعارض النظريات والممارسة الشيوعية الاوربية.

وبمساعدة الشيوعية الاوربية حاولت بعض الاحزاب الشيوعية في الغرب، التي

ظلت لفترة طويلة قبل ظهور الشيوعية الاوربية في حالة ازمة، القيام بالخطوة الأولى لتصحيح الوضع، وبالدرجة الأولى لتقديم جواب اشتراكي عن قضايا العالم المعاصر ومنها الخطر النووي، الازمة الايكولوجية، الانفجار الديموغرافي، الخ.

وسرعان ما اتضح ان حل هذه القضايا يتطلب جهوداً مشتركة من قبل جميع القوى اليسارية: الاتحاد السوفييتي وبلدان الاشتراكية الأخرى، الاحزاب الشيوعية والإشتراكية والاشتراكية الديمقراطية في الغرب، في حين ان انصار الشيوعية الاوربية ارادوا العثور على الحل من الداخل، مركزين فقط على تجديد الاحزاب الشيوعية. وفي النتيجة وقعت هي نفسها في ازمة. لذا سار شيوعيو البلدان المختلفة فيما بعد كل في طريقه الخاص.

وبدخول الحزب الشيوعي الايطالي في نقاش مع الرفاق الاسبان، دعا إلى عدم اقامة أي مركز أو منظمة منفصلة على أساس الشيوعية الاوربية. واعتبر انه لا يمكن العثور على جواب لتحدي العصر في حدود ما يسمى بالحركة الشيوعية العالمية. وتلخصت الفكرة في التخلي عن جميع الطموحات إلى دور الطليعة السياسية أو الايديولوجية، وفي تنظيم الحوار مع الاشتراكيين والقوى اليسارية الأخرى، من أجل البحث عن تناولات مشتركة لقضايا العالم المعاصر.

غ. **فودولازوف**. ينشأ لدي، كما لدى الكثيرين، السؤال الآتي: لماذا لم تؤد هذه الخطوة الايجابية، المتمثلة في رأيكم بالشيوعية الاوربية، إلى تطورات مماثلة في الممارسة؟ بل حدث العكس: فاغلبية الاحزاب وجدت نفسها بعد اعلان انتمائها إلى الشيوعية الاوربية، اسيرة الازمة بهذا القدر أو ذاك.

أ. **غويرا**. لقد كانت الشيوعية الاوربية نتيجة لازمة الحركة الشيوعية وفي الوقت نفسه محاولة للخروج منها. وهذه الازمة التي نشأت في مجرى النقاش مع الحزب الشيوعي الصيني وتفاقمت نتيجة للركود في الاتحاد السوفييتي، اصابت افكار الاشتراكية وصورتها نفسها، وفي رأيي انه لم يتم مطلقاً حتى الآن التغلب على هذه الازمة.

ونتساءل الآن: أمام ماذا يقف الناخب الشاب في البلدان الغربية؟ انه يرى ان الحركة الشيوعية تعاني ازمة، وهذا ما يتحدث عنه زعماؤها بصراحة، وانه تجري في العديد من البلدان الاشتراكية اعادة النظر في تجربة الماضي، التي كانت تقدم سابقاً بصورة وضاءة فقط. ومن الطبيعي ان لا يسارع إلى رفع الراية الحمراء وهو ذاهب إلى الاقتراع. فهو يمكن ان يسير خلفنا في الهجوم، ولكنه لا يرغب في التراجع أو ممارسة النقد الذاتي.

وعلى أية حال، فان جميع القوى اليسارية تعاني المصاعب، لكونها لا تستطيع الرد على مناورات اليمين ونجاحاته بالشكل المطلوب. وينبغي ان نأخذ عاملاً هاماً آخر في الحسبان ـ فازمة الديمقراطية في الغرب تتجلى، بالدرجة الأولى، في ان النظام الحزبي

القائم في الغرب يفتقد الرقابة على الدولة، ويبدي عجزاً عن ادارتها بصورة فاعلة. ولذا فان الحركات الجديدة الناشئة، من طراز «الخضر»، تجتذب الجماهير بصورة متزايدة. واذا كان الشيوعيون يفقـدون التـأثير السياسي فالمسؤولية لا تقع على عاتق الشيوعية الاوربية، التي كانت محاولة لمواجهة الازمة.

هـ. موهيكا (الحزب الشيوعي الفنزويلي). يبدو لي انه بوجود الشيوعية الاوربية أو بعدم وجودها، ما كان بامكان الحركة الشيوعية ان تتفادى الازمة التي لا تشمل الاحزاب الشيوعية في اوربا الغربية فحسب، بل وفي امريكا اللاتينية والبلدان الاشتراكية والمناطق الأخرى أيضاً. وتبين الدراسات السياسية الجدية ان الاحزاب اليسارية التقليدية، بما فيها الاحـزاب الشيوعية، تحـظى بدعم يأخذ في التناقض في الوعي الاجتماعي، وبصورة خاصة بين الشبيبة، بينما تتزايد أسهم «الخضر» وحتى اليمين المتطرف في بعض الاحيان. وأنا على يقين من أن البيريسترويكا السوفييتية تشير إلى المخرج الفعلي من هذا الوضع. فهل لها، في رأيكم، سمات مشتركة مع الشيوعية الاوربية؟

سيف علي مقبل (الحزب الاشتراكي اليمني) أكمل هذا السؤال. اذا كانت الشيوعية الاوربية تعني البريسترويكا، فما هي أوجه الشبه بينها وبين تلك البريسترويكا الجارية اليوم في العديد من البلدان الاشتراكية وفقاً للظروف الخاصة في كل منها؟

أ. غويرا. اعتقد ان التشابه موجود. وما أود التنويه به، أولاً، هو ان زعماء البريسترويكا يكفـون عن تقسيم الـديمقـراطية وفقـاً للدلالة الاجتماعية («اشتراكية»، «برجوازية» وما شابه)، وانما ينظرون اليها بوصفها قيمة انسانية عامة. وهذا بحد ذاته كاف للتأكد من التقارب بين البريسترويكا والشيوعية الاوربية. ويمكن الاشارة أيضاً إلى سمة عامة مهمة أخرى، هي انتقاد الماضي، بهدف التغلب على الستالينية. وهو انتقاد يؤدي حتماً إلى معارضة ستالين بلينين، وبالعكس. وهذا أمر طبيعي، ومع ذلك، اعتقد انه لدى التفريق بين اللينينية والستالينية ينبغي تجنب طرحه في ذلك السياق الايديولوجي، الذي يمكن ان يكبح البحث الخلاق في المجال النظري.

ب. راميلسون (الحزب الشيوعي البريطاني). أود الاشارة إلى ان الفرضيات الاساسية للشيوعية الاوربية التي جرى الحديث عنها هنا، أي التعددية وعدم فصل الديمقراطية عن الاشتراكية وتناوب الاحزاب على السلطة، الخ ـ انعكست في الخمسينات في وثيقة الحزب الشيوعي البـريطاني «طـريق بريطانيا إلى الاشتـراكية»، على الـرغم من اننـا لم نقبـل المصـطلح نفسـه مطلقـاً. وعمـوماً، لا أفهم كيف ان بعض الاحزاب الشيوعية اعترف بالمفهوم الذي اخترعه الصحفيون البرجوازيون والذي لا يتسم بطابع علمي. فكل ما هو ايجابي فيه، سبق وصاغته الحركة الشيوعية نفسها منذ زمن بعيد. أما الشيوعية الاوربية فقد

ادخلت الفكرة الغربية عن الماركسية حول التخلي عن الدور القيادي للطبقة العاملة في تحويل المجتمع. في حين ان هذا الدور يبقى دون تغيير. وأود ان أشير أيضاً إلى ان مصطلح :الشيوعية الاوربية: لم يمت، للاسف، حتى الآن. فكثيراً ما يستخدمه ممثلو الجيل الفتي من الشيوعيين، بل وحتى بعض الاحزاب الشيوعية.

أ. غويرا. يمكن القول ان المصطلح نفسه فرض علينا من الخارج. ولكن العملية التي صار هذا المصطلح يعنيها، نشأت داخل ا لحركة الشيوعية نفسها. وحقيقة ان العديد من افكار الشيوعية الاوربية ورد سابقاً في وثيقة الحزب الشيوعي البريطاني، تؤكد الطابع الطبيعي لهذه العملية. أما بالنسبة لدور الطبقة العاملة فاود الاشارة فقط، دون الدخول في التفاصيل، إلى ان تصورنا الجديد عن الترابط بين الديمقراطية والاشتراكية يتطلب اعادة النظر فيه.

ب. فورخ (الحزب الشيوعي النمساوي). ان مناقشة هذا الموضوع ليست، في رأيي، بالأمر الملح عموماً. لقد رفض الحزب الشيوعي النمساوي الشيوعية الاوربية بوصفها تجلياً للتحريفية اليمينية في الحركة العمالية. وقد كانت محاولة ليس لاعطاء تحليل ماركسي لمهمات النضال المعاصرة من أجل تحويل المجتمع، بل محاولة للتكيف، من المنطلق اليميني، مع تلك المرحلة من «الحرب الباردة» وايجاد التبرير النظري لذلك. ووجهت سهام النقد إلى الاتحاد السوفييتي في أمل مخادع باكتساب عطف جديد والحصول على امكانية المشاركة في الحكومة.

لقد تمسك حزبي بالماركسية اللينينية والاممية البروليتارية بصلابة، أما دعاة الشيوعية الاوربية فالصقوا تهم «الستالينية» بكل من لم يوافق على نهجهم. ولم يمنع ذلك الحزب الشيوعي النمساوي من تطوير التحليل الماركسي اللينيني للوضع في البلاد، ومن ادخال موضوعة نظام تعدد الاحزاب في ظل الاشتراكية بالوان نمساوية، وكذلك القيم الديمقراطية الأخرى، كحرية التعبير والابداع والبحث العلمي وغيرها، في برنامجه.

في حين ان الشيوعية الاوربية ادعت احتكار هذه القيم، وصورت مرحلة الستينات والسبعينات من تاريخ الاحزاب المختلفة معها سلسلة متواصلة من الاخطاء، الأمر الذي انعكس في مداخلة الرفيق غويرا.

اذا اردنا تقويم الماضي بصورة صحيحة واستخلاص العبر للحاضر والمستقبل، فينبغي تناول التاريخ بصورة متوازنة وموضوعية. أجل، لقد وقعت اخطاء. ولكن تحققت نجاحات كبيرة في الوقت نفسه. ويفضل البعض تناسي ذلك الآن. أولم يكن لقاء هلنسكي والوثيقة التي صدرت عنه نجاحاً؟ ألم يقدم الاتحاد السوفييتي والاحزاب الشيوعية الاوربية والقوى التقدمية الأخرى قسطاً حاسماً في التحضير له؟ ولكن نعلم انه بعد احداث

تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ اعلنت بعض الاحزاب ذات المنحى الشيوعي الاوربي انه يمكن الآن نسيان النضال في سبيل الأمن والتعاون، واقدمت على قطع العلاقات مع الاحزاب الأخرى. فهل كان هذا صحيحاً؟ ألم تكن خاطئة تلك المواقف المتطرفة التي أقدم عليها زعماء الشيوعية الاوربية في النقاش مع الاتحاد السوفييتي؟ لقد كانت هذه اخطاء جدية، في رأيي.

وينبغي ألا ننسى ايضاً الانجازات، كالاعتراف الدولي بجمهورية المانيا الديمقراطية وبالحدود التي نشأت في اوربا بعد الحرب العالمية الثانية. وتنظيم التعاون بين الحزب الشيوعي السوفييتي والاشتراكيين الديمقراطيين. وكان بيان فلاديفوستوك الذي وقعه بريجنيف وفورد واعترفت فيه الولايات المتحدة بمبدأ التعايش السلمي، تقدماً هائلاً. ويمكن ذكر انجازات مهمة أخرى، فلماذا، ايها الرفيق غويرا، تتحدث دائماً عن «الازمة»، دون الاشارة إلى النجاحات التاريخية في النضال من أجل السلام ونزع السلاح والأمن والتعاون بين الشعوب؟

أ. غويرا. في وضع التجديد الجاري في الاتحاد السوفييتي اليوم، اعتقد انه لا حاجة لأن تغوص الحركة الشيوعية في حساب ايجابيات التجربة التاريخية وسلبياتها، بديهي ان فيها الكثير من الايجابيات، كالتي أشرنا اليها مراراً أيضاً.

خ. لافا (الحزب الشيوعي الفيليبيني). نعلن الآن من حين إلى آخر اننا لا ندعي احتكار الحقيقة. الحقيقة انني لا اعلم من ادعى ذلك في الماضي، ولكن يبدو ان ذلك حصل في الواقع. والآن، تنبذ كل الاحزاب هذا الاحتكار. ولكن أين هي الحقيقة؟ ألم يحن الوقت للحوار، وللبحث معاً عن حلول للقضايا؟

أ. غويرا. لا يمكن لاحد ادعاء احتكار الحقيقة. فلتولد هذه الحقيقة في خضم النقاش.

خ. باريوس. (الحزب الشيوعي السلفادوري). ما هو، من وجهة نظر الشيوعية الاوربية التناسب بين الطريق الاصلاحي والطريق الثوري نحو الاشتراكية؟

أ. غويرا. اعتقد انه لا حاجة الآن لطرح المسألة بنفس الحدة التي كانت تطرح فيها في الماضي: الاصلاح أم الثورة؟ انها ليست خياراً بين أمرين، انها قضية. ففي موسكو، مثلاً، يتحدثون اليوم عن الاصلاحات الثورية. أما الشيوعية الاوربية، فهي لم تنف الاصلاحات، ولكنها اشارت في الوقت نفسه إلى عدم فاعلية الاصلاح الذي تنادي به الاشتراكية الديمقراطية.

مصطفى عزاوي (حزب التقدم والاشتراكية في المغرب). اعتقد ان الشيوعية الاوربية كانت رداً ضرورياً وطبيعياً على الازمة الداخلية في الحركة الشيوعية. فلماذا كان

هذا الرد غير كامل؟ المسألة، في رأيي، ليست في ما قاله منتقدو الرفيق غويرا، بل في ان الاحزاب الشيوعية الاوربية كانت تفتقر إلى التناولات ذات الطابع الشمولي. فقد كانت تتسم إلى حد كبير بالمركزية الاوربية، الأمر الذي تجلى، مثلاً، في تجاهل قضايا «العالم الثالث».

أ. **غويرا**. ان انتقاد الشيوعية الاوربية بانعدام الرؤية الشمولية انتقاد مبرر إلى حد كبير. وقصر النظر هذا، وتحديداً الاستخفاف بقضايا «العالم الثالث» لا يميز الشيوعيين وحدهم، بل والحركات الأخرى في اوربا الغربية.

بين الأمس والغد

د. **بريتيل**. ان المهمة الملحة للشيوعيين في اسبانيا، وكما اعتقد، في أي بلد رأسمالي عالي التطور- هي صيانة التقاليد الايجابية للحركة الشيوعية وتطويرها، بما في ذلك التجربة التجديدية في السنوات المنصرمة. وينطبق ذلك على الشيوعية الاوربية أيضاً، بصرف النظر عما اذا كان المصطلح نفسه يستخدم في ذلك الوسط الجغرافي الذي نشأ فيه أم لا، أو انه وضع في الارشيف.

ان التاريخ يهمنا دون شك، ولكن ما يثير قلقنا بالدرجة الأولى: هو الحاضر والمستقبل. ولذا يرتدي قدراً من الأهمية معرفة الاستفادة من الماضي القريب، وتطوير كل التجربة التاريخية، كل ما هو طليعي وابداعي في ميدان النظرية والممارسة السياسية، كل ما هو مهم بالنسبة للحزب الشيوعي الاسباني اليوم ولا يفقد أهميته بالنسبة للغد.

ان الشيوعية الاوربية ظاهرة عادية، طبيعية في الحركة الشيوعية في تلك البلدان، كاسبانيا، لأنه ينبغي في رأينا النظر اليها، بالدرجة الأولى، باعتبارها تطبيقاً خلاقاً للماركسية وتطويراً لها في ظروفنا. علماً بان الحديث لا يدور حول ظاهرة زائلة، بل متطورة باستمرار. وأنا ألح على ذلك لأنه تجري باستمرار محاولات لتصويرها وكأنها غريبة عن الشيوعية، كظاهرة مضرة ناجمة عن النزعة القومية والعداء للسوفييت، الخ. اذا كنا منذ عدة سنوات نحجم عن استخدام مصطلح «الشيوعية الاوربية»، فذلك ليس لأنه لا يشكل مصطلحاً علمياً بالمعنى الدقيق للكلمة فحسب، بل وكذلك لأنه تعرض لهذا النوع من الهجمات.

لقد اعتبر البعض انه مادام المصطلح غير دقيق، فالنظرية التي يعبر عنها لا يركن اليها. ولكن الأمر ليس كذلك في الحالة التي نحن في صددها. فالشيوعية الاوربية في بلادنا كاتجاه نظري وسياسي أخذت تنتشر منذ اواسط الخمسينات، عندما بدأ الحزب

الشيوعي الاسباني يصوغ الاطروحات السياسية الجديدة التي تأخذ في الحسبان ضرورة التغلب على روح الحرب الاهلية وخلق الظروف للتحالفات الواسعة على أساس «الوفاق الوطني»، وكذلك التحولات الجذرية في الحركتين العمالية والطلابية، وفي حياة المجتمع الثقافية. وفي السنوات الأخيرة أخذ يتطور نقد الجمود العقائدي الستاليني والستالينية عموماً. وجرى التأكيد ان الجمود العقائدي القديم والجديد، اللذين صدرا في أحيان كثيرة عن القوى اليسارية، وليس التحريفية، كانا ويبقيان العدو الاساس للحزب.

لقد شكل تعليل الحزب الشيوعي الاسباني لسياسة «الوفاق الوطني» في عام ١٩٥٦ بداية التطبيق الخلاق للماركسية الثورية وفق ظروف اسبانيا الجديدة. وقبل التوقف عند بعض القضايا المتعلقة بهذه العملية، أود التأكيد بان اطروحات الحزب السياسية والنظرية حول مسائل تكوين اللجان العمالية والحركة العمالية الجديدة في نهاية الخمسينات ومطلع الستينات اضطلعت بدور خاص في مرحلة النضال ضد دكتاتورية فرانكو.

ان الشيوعيين الاسبان هم أصحاب المبادرة في الجمع بين التحركات العمالية والاضراب الوطني العام الذي كان يشارك فيه ايضاً الطلاب والفلاحون وممثلو رأس المال الصغير والمتوسط والمثقفون العلميون ـ التقنيون الخ. وقد اعتبر هذا الاضراب شكلاً عصرياً جديداً للانتفاضة الشعبية. وتأكدت فاعليته بصورة ساطعة في مجرى الاحداث التي لا تنسى في أيار ـ حزيران ١٩٦٨ في فرنسا، وهي بالمناسبة احداث لا نزال مقصرين ازاءها. انها تستحق الدراسة الجدية والعميقة.

اضافة إلى ذلك، فان حزب الشيوعيين الاسبان، بوصفه منظمة علمانية مدنية، لم يكن منفتحاً للايديولوجيا الماركسية فحسب، بل وكذلك لتلك التيارات، كالمسيحية، وكانت وحدة الحزب تعني التفاف اعضائه حول المهمات السياسية الواردة في البرنامج.

وكانت احدى اطروحات الحزب الشيوعي الاسباني تمس مسائل الدولة، واذا توخينا قدراً أكبر من الدقة ـ قضايا الهيمنة فيها، خصوصاً ما يتعلق بمهمات التحويل الديمقراطي لجهاز الدولة، وتقارب القوى السياسية والاجتماعية، وتشكيل حلف اليسار الموحد كبديل تكتيكي واستراتيجي من السلطة. هذه هي مساهمة الشيوعيين الاسبان الأكثر الحاحاً وأهمية في النظرية والسياسة. وقد أكدت انتخابات عام ١٩٨٩ ذلك بكل وضوح.

لقد كان لابد للفهم الجديد لنظرية الحزب الشيوعي الاسباني وممارسته من ان يمس الحزب نفسه. من المفهوم ان المركزية ظلت قائمة في ظروف العمل السري، ولكن تقلصت إلى الحد الأدنى، وفي الوقت نفسه وسع النقاش وأشكال العمل الديمقراطية الأخرى على جميع الاصعدة.

هذه التغيرات وغيرها ساهمت في تحويل الحزب إلى منظمة طليعية موجهة، ذات

اسلوب جديد في العمل، ومناخ آخر، وحتى توجه آخر للممارسة الحزبية كلها.

وفي الوقت ذاته اقترح الحزب الشيوعي الاسباني تناولات جديدة للعلاقات بين الاحزاب الشيوعية. فاعلن مبدأ الوحدة في التنوع، ونبذت فكرة المركز القائد، الذي طمح، في رأينا، اليه حتى النصف الأول من الثمانينات الحزب الشيوعي السوفييتي، على الرغم من انه لم يعلن ذلك.

كما اننا نعتبر فكرة احلال مفهوم التضامن العالمي مكان مبدأ الاممية البروليتارية فكرة لا تقل أهمية وابداعاً. فقد وقعت في العالم تحولات كبيرة واتسع نطاق القوى المناهضة للامبريالية إلى حد كبير. واصبح مبدأ الاممية البروليتارية بالياً لأن عملية التضامن العالمي لم تعد تقتصر على البروليتاريا وحدها.

وفي ميدان السياسة الدولية ابتعد الحزب الشيوعي الاسباني عن محاولات التدخل في شؤون الدول والاحزاب الأخرى، وأدان من دون مواربة ما يسمى «مبدأ بريجنيف»، ووقف بحزم ضد فكرة الأمر الواقع في اوربا، معتبراً ان مهمة الثوريين في القارة القديمة أيضاً تتلخص في تحقيق التجديد والتقدم الاجتماعي. وفي الوقت نفسه أعلنا بكل وضوح ان العلاقات بين الدولتين الكبريين لا تحمل طابعاً طبقياً وانه لا يمكن ان يكون ثمة منتصر أو خاسر في الصراع فيما بينهما.

وكان لابد وان يتساءل الحزب الشيوعي الاسباني: ما هو نموذج الاشتراكية الذي نود رؤيته في بلادنا بعد اقامة نظام الحريات الديمقراطية؟ ان لبنية السكان الاجتماعية ولتقاليدهم الثقافية خصوصيتهما. فلا تزال ماثلة في ذاكرة أوسع فئات المجتمع الاسباني حقيقة انه تطورت في البلاد في غضون الحرب الوطنية الثورية (١٩٣٦ - ١٩٣٩) ثورة ديمقراطية عميقة، خلقت مقدمات معينة للسير نحو الاشتراكية. ولم يحدث شيء من هذا القبيل في البلدان الاوربية الأخرى. ان الواقع الاسباني يفرض علينا ان نأخذ في الحسبان القضايا الفعلية للافق الاشتراكي في ظروفنا. علماً بأن النموذج الستاليني أو الستاليني الجديد، الذي كان قائماً في معظم الدول الاشتراكية التي تعيش وضعاً صعباً جداً اليوم، لم يكن يلائم بأي شكل من الأشكال لا الحزب الشيوعي الاسباني ولا القوى الديمقراطية الأخرى.

ان المسألة ليست في كون الحزب الشيوعي الاسباني حاول التدخل في الشؤون الداخلية للبلدان الأخرى. فقط طرح مسائل ذات طابع داخلي، بالدرجة الأولى، كان الجواب عنها يتطلب وضوحاً سياسياً ونظرياً. ولكننا نعترف في الحقيقة ان نقدنا لبعض القادة السابقين للاشتراكية القائمة كان احياناً غير مدعم بالحجج بصورة كافية.

لقد كنا ولا نزال نفهم ان النظام الاشتراكي في ظل اضفاء طابع عام على وسائل

الانتاج الاساسية واعادة الانتاج يضع في المقام الأول تطور الديمقراطية بوصفها قيمة ذات طابع استراتيجي لا تكتيكي. وبالتالي، فان الدولة الاشتراكية ينبغي ان تكون دولة قانون تصان فيها حقوق الانسان بأوسع معانيها. وبديهي ان الشغيلة، من أجل الدفاع عن حقوقهم، ينبغي ان يتمتعوا بحق الاضراب واستخدام قوة الضغط الجماعي، عندما لا تؤدي المفاوضات إلى النتيجة المرجوة.

ان الاشتراكية المنتصرة بمشاركة اغلبية السكان الساحقة ينبغي ان تكون نظاماً متعدد الاحزاب، توجد فيه معارضة ويفترض امكانية تغيير السلطة. لذا فاننا ندعو إلى فصل الحزب الشيوعي عن الدولة، وتخليص المجتمع من الايديولوجيا الرسمية.

لقد استقبلت الاطروحات النظرية ذات الطابع الشيوعي الاوربي التي قام بها الحزب الشيوعي الاسباني على نحو متباين في الحركة الشيوعية. فأيدتنا مجموعة كاملة من الاحزاب الشيوعية. وابلغنا البعض بقراره عدم المشاركة في أي نقد رسمي لموقف الحزب. أما بالنسبة لنقادنا، كميخائيل سوسلوف مثلاً، الذين ساهموا في الاتجاهات الانقسامية في الحزب، فانهم في أغلب الحالات لم يكونوا يعلمون عملياً ماذا ينتقدون.

ثمة ضرورة لمعالجات نظرية ماركسية جديدة للقضايا التي بدأت الشيوعية الاوربية بدارستها، مع أخذ التغيرات الجارية في المجتمع الرأسمالي المتطور الآن في الحسبان. وتبقى ملحة أيضاً قضية النضال ضد الجمود العقائدي القديم والجديد، الذي يشكل كارثة حقيقية للاحزاب الشيوعية في الغرب، ولبلدان الاشتراكية واحزابها.

وأخيراً، الملاحظة الأخيرة. ان تحقيق التحولات في البلدان النامية لا يكفي لتغيير وجه الكوكب، كما يعتقد البعض. فالاشتراكية ستسود على الصعيد العالمي الشامل، اذا ما انتصرت أيضاً في الدول الرأسمالية الصناعية، وبالدرجة الأولى في اوربا. لذا، فانني أشير مجدداً إلى انه من المهم جداً تطوير النظريات التي اطلق عليها اسم الشيوعية الاوربية في السبعينات.

غ. **فودولازوف**. لقد حددت بوضوح الفارق بين الشيوعية الاوربية والستالينية. فهل بامكانك اظهار الفارق بين الشيوعية الاوربية والاشتراكية الديمقراطية بمثل هذا الاقناع؟

د. **بريتيل**. اعتقد ان ليس ثمة سمات مشتركة بينهما، هذا اذا أخذنا، بالطبع، جوهر الظاهرتين في الاعتبار. ففي اسبانيا، مثلاً، شارك الاشتراكيون خلال ٤٠ عاماً بصورة ضعيفة في مقاومة الفرانكوية، في حين ان الشيوعية الاوربية تشكل عاملاً مهماً في النضال المعادي للفاشية. ومهما كان من أمر فان الاشتراكية الديمقراطية هي احدى دعائم المجتمع البرجوازي، في حين ان الشيوعية الاوربية هي ماركسية، انها نظرية الشيوعيين وسياستهم، انها التحولات في اسبانيا والبلدان المتطورة الأخرى. لذا فان كل محاولة

للمساواة بينهما انما هي خطأ سياسي .

ب . **فورخ** . انني كشيوعي ارتبط بالحزب الشيوعي الاسباني منذ الحرب الاهلية، كنت اراقب بقلق تطوركم «الشيوعي الاوربي» والممارسة السياسية النابعة منه . فقد كان يكمن فيها جنين الانقسام والازمة، اللذين عاشهما الحزب في مرحلة الانتقال إلى نظام الحكم الديمقراطي البرجوازي . لقد كنت شاهداً على المجابهة في المؤتمر التاسع للحزب الشيوعي الاسباني ، عندما حذف تعريف الحزب بوصفه حزباً ماركسياً لينينياً على الرغم من رأي الاقلية الكبيرة العدد . وبذلك غرست بذرة الانقسام .

وراقبت بقلق كيف تخلت قيادة الحزب الشيوعي عن مطالب الاصلاح الزراعي والتأميم وابعاد انصار فرانكو السابقين من جهاز الدولة، وكيف انضمت إلى «حلف مونكلوا» ، الذي كان حلفاً اجتماعياً من حيث الجوهر، والتزمت فيه بتهدئة الشغيلة، الذين وقعوا ضحايا «العلاج» الجذري للاقتصاد على الطريقة الرأسمالية . واتخذ هذا الموقف بأمل التحول إلى قوة حكومية . وكان هذا جذراً آخر للانقسام ، الذي أدى إلى انخفاض عدد الاصوات التي نالها الحزب في الانتخابات ، بصورة كارثية .

وبما ان ثورة نيسان ١٩٧٤ في البرتغال لم تكن تتفق مع مخطط قادة الحزب الشيوعي الاسباني فانهم انتقدوا، مع الحزب الشيوعي الايطالي ، بحدة الحزب الشيوعي البرتغالي وتضامنوا علناً مع ماريو سواريش، الذي تزعم حملة القضاء على مكتسبات الثورة. هكذا كانت في الواقع الاممية «الشيوعية الاوربية» الجديدة . ألم يكن هذا خطأ بالغ الخطورة؟

د . **بريتيل** . ايها الرفيق العزيز فورخ ، انني اذ اثمن عالياً اهتمامكم بشؤون حزبنا ، أجد نفسي مضطراً للتذكير باننا لم نجتمع هنا لمناقشة اخطائه الفعلية والوهمية ، بل لمناقشة قضية الشيوعية الاوربية . وعلى هذه القضية ركزت الاهتمام . فاذا كان الحزب يرتكب الاخطاء، فان ذلك لا يعني ان الشيوعية الاوربية خاطئة بحد ذاتها . ان اخطاءنا وهفواتنا لا ترتبط في الاساس بها، وعلى كل حال لا يجوز تفسير هذه النظرية على أساس هذه الاخطاء . في بعض الحالات طبقنا هذه النظرية بصورة سيئة ، ولذا ارتكبنا الاخطاء . من بينها ، تحديداً ، انتقاد الحزب الشيوعي البرتغالي . أما الآن فلدينا معه علاقات رائعة تقوم على التضامن الاخوي .

د . **لوبيش (الحزب الشيوعي البرتغالي)** . ان حزبنا ينطلق من مواقع الماركسية اللينينية . وهي بالنسبة لنا نظرية مفتوحة ، تتوجه نحو المستقبل، ومدعوة لاغناء نفسها باستمرار. انطلاقاً من هذه المواقع ، حققنا ، مع سائر القوى التقدمية في مجرى الثورة البرتغالية ، مجموعة من التحولات الاجتماعية ، التي لا تزال الاحزاب الشيوعية في البلدان

الأخرى تناضل من أجلها اليوم. ان برنامجنا يقول بالتعددية والحريات الديمقراطية بوصفها قيمة ذات طابع شمولي - وباقامة التحالفات الاجتماعية والسياسية الواسعة.

على الرغم من ان الشيوعية الاوربية كانت توضع في معارضة حزبنا، فاننا لا ندخل اليوم في جدال مع من دعا اليها. وبديهي ان لا مكان لهذا الجدال هنا أيضاً. وقد سعى الحزب الشيوعي البرتغالي على الدوام إلى اقامة علاقاته على أساس بناء مع الاحزاب الأخرى التي كانت تعتبر شيوعية اوربية. فقد كانت الخلافات قائمة، ولكننا عملنا على الحيلولة دون تحولها إلى هجمات متبادلة وفرض وصفات طرق التطور على بعضنا البعض.

ان حزبنا لن يتقبل الشيوعية الاوربية. فنحن لم نكن نفهم تماماً ماذا كانت تعني. ونعتقد ان انصارها انفسهم لم يفهموها حتى النهاية، الأمر الذي اظهره لقاؤهم في مدريد، وهو اللقاء الذي يرفض عدد من المشاركين فيه بعض استنتاجاته.

من المستبعد ان يكون مبرراً التأكيد بان ثمة ما هو مشترك من حيث الجوهر بين الشيوعية الاوربية والبريسترويكا. فاذا كانت البريسترويكا عودة إلى اللينينية، فان الشيوعية الاوربية انما هي مبدأ يعلل القطع معها. واعتقد ان علينا ألا نركز على الخلافات، بل العمل معاً على تحليل الحقائق الجديدة، واستيضاح الاسباب الموضوعية والذاتية لنشوء ظاهرات التأزم في الحركة الشيوعية، من أجل ان نصوغ، بروح الاحترام المتبادل ومع أخذ الظروف الملموسة التي تعمل الاحزاب في ظلها في الحسبان، البدائل سواء لهجوم النزعة المحافظة أو لمحاولات الاشتراكية الديمقراطية اضعاف مواقع الشيوعيين. وأنا على يقين من اننا يمكن ان نحقق بذلك نهوضاً جديداً في حركتنا.

خ. لافا. لقد أكدتم، ايها الرفيق بريتيل، مراراً ان الشيوعية الاوربية هي ماركسية العصر، ولكنكم لم تأتوا على ذكر اللينينية البتة. فما هي حقيقة الأمر؟

د. بريتيل. ان التخلي عن اللينينية عموماً ما هو إلا غباء، أشبه بفصل هذه الشخصية أو تلك عن ثقافة البشرية. لقد توقفنا عن تسمية حزبنا حزباً ماركسياً لينينياً، لأنه جرى اقناع الناس في اسبانيا خلال سنوات الفرانكوية كلها، بان الشيوعيين سيقودون البلاد تحت راية اللينينية إلى حرب اهلية جديدة. وبديهي ان لا أحد يريدها عندنا، حتى ولو انتهت بانتصار الاشتراكية، وهو أمر لا يصدق. ولكننا لا نتخلى عن تراث ماركس وانجلز ولينين والمنظرين الثوريين الآخرين.

رفيق سمهون. تحدثت عن نظام اشتراكي متعدد الاحزاب ومعارضة تفترض تغيير السلطة. ومن المعروف ان لكل حزب سياسته وايديولوجيته. فهل تسلم في هذه الحالة

بوجود ايديولوجيات مختلفة في هذا النظام أم بايديولوجية اشتراكية ذات أشكال وتجليات مختلفة؟

د. **بريتيل**. اننا نسلم بوجود معارضة ديمقراطية لا تتبنى مبادىء الماركسية اللينينية نظراً لكونها تشكل تيارات أخرى كالمسيحية، مثلاً.

تقديم تقويم ديالكتيكي موزون

غ. **فودولازوف**. يتساءل بعض الرفاق: هل ثمة حاجة اليوم لمناقشة تجربة الشيوعية الاوربية؟ هذه مسألة لم تعد ملحة، على ما يبدو، اذ اثارت ضجة فيما مضى وانتهى أمرها، كما انها كانت حتى الأمس القريب مادة للخلافات والنزاعات الحادة. ولذا، هل من معنى الآن لاثارة موجة خطرة من النقاش، بعد ان هدأت الخواطر؟

اعتقد ان ثمة معنى لذلك. أولاً، لأن مبدأنا الماركسي المشترك القائل بضرورة تحليل تجربتنا باستمرار، يتطلب ذلك. وليس تحليلها عندما تصل بنا إلى حافة الهاوية، بل في كل خطوة نخطوها في نشاطنا. ثانياً، ان الحديث لا يدور حول افكار ثانوية قليلة الاهمية، بل عن نظرية كبيرة، بارزة تبنتها بهذا القدر أو ذاك احزاب تضم في صفوفها اغلبية شيوعيي العالم غير الاشتراكي.

وأخيراً، ثمة حجة أخرى في صالح مناقشة هذه القضية اليوم. فمن الضروري، في رأيي، اعادة النظر بحزم في التقويم السلبي الصرف للشيوعية الاوربية، الذي كان يصدر عن قسم كبير من الاوساط العلمية الماركسية العالمية، وبالدرجة الأولى، اوساط العلم السياسي «الرسمي» في بلادي.

والمقصود، بالطبع، ليس التغيير الميكانيكي لجميع التقويمات: الاستعاضة عن السلبي بالايجابي، وبالعكس. بل ان الحديث يدور حول التقويم الديالكتيكي العلمي الموزون في ضوء التنازلات الجديدة لحقائق العالم الماصر، وموقع الشيوعيين فيه في ضوء التفكير الجديد والنظرية الجديدة للنضال من أجل التقدم الاجتماعي.

وهكذا، ما الذي يمكن ان يقال في حق نظرية الشيوعية الاوربية؟

أولاً، لقد كانت في تلك السنوات أكبر وأبرز محاولة لطرح وحل القضايا المرتبطة بظهور الحقائق الجديدة في العالم، بالوضع العالمي الانعطافي وبظاهرات التأزم في عدد من الدول والمناطق، بما فيها البلدان الاشتراكية.

ثانياً، انعكست فيها مهمة نظرية بالغة الأهمية للعديد من الاحزاب، هي التحرر من الستالينية بجميع اقانيمها. وغدا الميل الشيوعي الاوربي اختراقاً جدياً على هذه الجبهة.

وثالثاً وأخيراً، بدأ بفضلها إلى حد كبير يتكون مناخ جديد في الحركة الشيوعية، مناخ أكثر ديمقراطية، مع قدر أكبر من الحرية وتعددية الآراء. وهي لم تعلن فقط، بل وبينت في الواقع ان لا أحد يحتكر الحقيقة، وانه لا يوجد ولا يمكن ان يكون هناك حزب يقوم بدور المفسر الوحيد للماركسية. وان كل وحدة فكرية وسياسية ينبغي ان تكون وحدة طوعية في التنوع.

والآن، لأتحدث، وباختصار شديد، عن النقص الكبير في افكار الشيوعية الاوربية، وهو نقص تجلى في أعمال دعاتها وممارستهم. اعتقد انه يتلخص في ظهور وتطور ميل تحول فيه السعي إلى التحرر من الستالينية إلى محاولة نفي اللينينية. وقد كانت قوة هذا الميل تتفاوت لدى هؤلاء أو اولئك، ولكنه كان موجوداً. وهذا، في اعتقادي، اضعف إلى حد كبير الامكانات التحويلية للافكار الجديدة.

والمهمة الكبرى لتطورنا النظري هي، في رأيي، فصل اللينينية عن الستالينية، وتبيان انهما نظريتان اجتماعيتان ـ سياسيتان وفلسفيتان متعارضتان ومختلفتان بصورة مبدئية. ان هذا التناول المنهجي وحده المؤهل لتأمين فهم الستالينية وللتغلب عليها في الوقت نفسه. واعتقد ان قسماً كبيراً من مؤلفي الشيوعية الاوربية استخف بالقدرات الكامنة للاساس اللينيني ولـ «زخم اكتوبر» في بلادنا. ولذا كان نيسان ١٩٨٥ والاندفاعة الحاسمة للقوى اللينينية والديمقراطية مفاجئاً لهم بعض الشيء.

واستدرك هنا لأقول انه من غير الصحيح القاء تبعة هذا النقص كاملة على عاتق منظري الاحزاب المذكورة. ان المسؤولية الرئيسية عن انعدام التحليل الشامل لجوهر الستالينية وجذورها تقع على عاتق الباحثين السوفييت الذين لم يبدأوا الاقتحام الشامل لهذه القضية إلا منذ خمس سنوات.

خ. لافا. نحن نحتاج، بالفعل، إلى تحليل جدي وموضوعي لتاريخ الحركة الشيوعية العالمية بعد الحرب، بما في ذلك التناقضات السوفييتية ـ اليوغسلافية والنزاع السوفييتي ـ الصيني والشيوعية الاوربية، من أجل الكشف عن الاسباب الاساسية للقضايا الناشئة ـ فاحزابنا تستلهم افكار ماركس وانجلز ولينين، ولذا من المستغرب ان تأخذ الخلافات هذا النطاق. اعتقد ان التصريحات حول التخلي عن احتكار الحقيقة لا تكفي: فالحركة الشيوعية العالمية ستربح أكثر لو ان الاحزاب الشقيقة، وخصوصاً قياداتها، طبقت هذه التصريحات في الممارسة بدلاً من حوار الطرشان الذي نقوم به.

هـ. موهيكا. لدي سؤال، ربما يكون ساذجاً بعض الشيء. لماذا انتظر الاختصاصيون في ميدان العلوم الاجتماعية، ومن بينهم اعضاء في الحزب الشيوعي السوفييتي، حتى نيسان ١٩٨٥، لكي يبدأوا الحديث عن هذه الأمور الصحيحة؟

غ . **فودولازوف**. لم يكتف الجميع البتة بـ «الانتظار» . فقد كان في ميدان العلوم الاجتماعية عدد لا يستهان به من المؤلفين الذين عملوا في سنوات الركود على انقاذ شرف الفكر الاجتماعي (على الرغم من ان ممثلي العلم «الرسمي» ازاحوهم بصورة جدية) . ان هؤلاء المؤلفين لم ينتظروا نيسان ١٩٨٥ ، بل انهم مهدوا له التربة باعمالهم وكتاباتهم ونضالهم الصعب في تلك الاعوام .

خ . **اريسالا (الحزب الشيوعي الكولومبي)**. انني أوافق على التقويم الايجابي للشيوعية الاوربية من حيث مساهمتها المحددة في نظرية وممارسة النضال ضد المنهجية الستالينية . فهلا ذكرتم لنا بصورة أكثر ملموسية تلك القضايا التي جرى حلها، جزئياً أو كلياً، بمفاهيم الشيوعية الاوربية؟

غ . **فودولازوف**. أشير، بالدرجة الأولى ، إلى صوغ نظرية الطريق الديمقراطي إلى الاشتراكية . التأكيد الدائم بان الاشتراكية هي الديمقراطية الناجزة، وبان الديمقراطية ليست فقط الطريق إلى الاشتراكية بل ومحتواها السياسي أيضاً . والفكرة المهمة الأخرى هي نظرية الاممية الجديدة . كما ادخلت افكاراً قيمة كثيرة أيضاً على استراتيجية تحالفات الطبقة العاملة والشيوعيين ، ومثمر أيضاً التحليل الذي اجراه منظرو الشيوعية الاوربية للتغيرات في بنية الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية المتطورة ولاشكال التحركات الثورية وبواعثها . واعتقد ان نقدهم للاشتراكية القائمة تضمن الكثير من الأمور الصحيحة .

ف . **غامبوا (حزب طليعة الشعب في كوستاريكا)**. ان نظرية وممارسة الشيوعية الاوربية تطرح ضرورة ايجاد جواب واضح عن مسألة التناسب بين الشيوعية والاشتراكية الديمقراطية . ما هي في رأيكم السمات الرئيسية للاختلاف والتشابه فيما بينهما؟

غ . **فودولازوف**. ان الفارق الرئيسي بين الشيوعيين والاشتراكيين الديمقراطيين الذي كان قائماً دائماً ولا يزال، هو الفارق بين استراتيجية الثورة واستراتيجية الاصلاحات . ولكن التصور حول نمط التحولات الثورية في البلدان الرأسمالية المتطورة يتخذ سمات جديدة في الظروف الراهنة . والحديث يجري عن نظرية الثورة السلمية والتغير التدريجي للبنى الرأسمالية وتتلخص الصعوبة في ان الشيوعيين لم يصوغوا هذه الاستراتيجية بصورة ملموسة ومفصلة بقدر كاف حتى الآن، على الرغم من وجود الكثير من الافكار الممتعة جداً . فالرفاق الايطاليون، مثلاً، صاغوا مصطلحاً جديداً هو «الطريق الاصلاحي» . وهو ليس طريقاً ثورياً، كما فسر في السابق، ولكنه في الوقت نفسه ليس اصلاحياً على الطريقة الاشتراكية الديمقراطية . انه طريق الاصلاحات الديمقراطية الاجتماعية والسياسية العميقة، التي تؤدي باتساق إلى تكون بنى جديدة للاشتراكية .

وبكلام آخر، اعتقد ان خصائص التطور الاجتماعي المعاصر في بلدان الغرب

تجعل المنطقة الفاصلة بين الشيوعيين والاشتراكيين الديمقراطيين اضيق وأقل حدة. ولكن ثمة على وجه الخصوص تقارب في مواقفهم على صعيد النضال ضد العسكرية، ومن أجل بقاء البشرية، وحل القضايا ذات الطابع الشمولي وتحويل الانتاج العسكري إلى انتاج مدني.

رفيق سمهون. من المعروف ان الشيوعية الاوربية سعت إلى تغيير المجتمع الرأسمالي. ولكن ذلك لم يحدث، بل حدث شيء آخر: تراجع الاحزاب التي سارت على نهج الشيوعية الاوربية. ولكن هل من الصحيح التأكيد بان هذا التراجع ناجم عن الشيوعية الاوربية بالذات؟ ألا تعتقدون ان الحديث يدور على الارجح حول الكثير من العوامل الأخرى ذات الطابع الموضوعي والذاتي، وظهور حقائق جديدة تخلف الشيوعيون إلى حد ما في فهمها؟

مصطفى عزاوي. لقد تكون لدي انطباع بانكم تتهربون من النقاش المباشر مع هذه المواقف أو تلك من مواقف الشيوعية الاوربية. فلربما تعتقدون ان العلاقات بين الاحزاب هي فوق المواقف النظرية المبدئية؟ اعتقد ان علينا التغلب على هذا التناول.

غ. فودولازوف. لا، ابداً، انني لم أقم بدور المدافع عن الشيوعية الاوربية غير الناقد لها. فقد أشرت إلى جملة من النواقص الجوهرية، في رأيي، التي اتسمت بها. ولكن، بالفعل، لم أجد من المفيد تقويم المواقف السياسية لهذا الحزب أو ذاك بصورة ملموسة جداً. وذلك للسبب الآتي، تحديداً. أورد أحد الكتاب الساخرين البولونيين الظرفاء جداً، أعني ي. ليتس، قولاً مأثوراً: «يمكن دائماً العثور على رجل من الاسكيمو، قاطن الشمال، يحاول تعليم سكان أفريقيا الاستوائية كيف ينبغي ان يعيشوا». وأنا لا أريد ان أكون في الموقع المضحك لهذا الرجل. فينبغي ان تكون هناك حدود في نقد الآخرين.

انني اوافق الرفيق رفيق سمهون الرأي في ان الشيوعية الاوربية ليست هي السبب الرئيسي للضعف المعين الذي انتاب مواقع عدد من الاحزاب الشيوعية الاوربية الغربية. فلنطرح على انفسنا هذا السؤال البسيط: هل حققت تقدماً كبيراً تلك الاحزاب التي رفضت هذه النظرية وأنتقدتها بحدة؟ ان المصاعب والمعضلات وتجليات الركود ظهرت في الحركة الشيوعية قبل ظهور الشيوعية الاوربية بزمن بعيد، وبمعزل عنها. وكما سبق وقيل، كانت الشيوعية الاوربية احدى المحاولات لوقف هذه العملية، ولكن كما تشير الاحزاب نفسها التي تؤمن بها، محاولة لم تكن كاملة في كل جوانبها، لذا لم تكن مثمرة بقدر كاف.

ان المرحلة الراهنة مرحلة انعطافية في تطور النظرية الماركسية. اذ تجري اعادة النظر (أي «مراجعة») في العديد من الموضوعات والاطروحات الصحيحة في العصور الماضية، ولكن لم تعد ملائمة اليوم، وتظهر تقويمات وتناولات جديدة.

وينبغي في هذه الظروف، في رأيي، ان نكون أكثر حذراً في استخدام يافطة «التحريفية». فثمة خطر بالصاق هذه التهمة بالجهود المبذولة في إطار التطوير الخلاق لنظريتنا. أليس من الأفضل ان نكف ولو إلى حين، عن الصاق التهم، دون ان نوقف النقاشات الفكرية؟

كاظم حبيب (الحزب الشيوعي العراقي). ان الحزب الشيوعي السوفييتي يقوم اليوم بعمل كبير جداً ليس لاعادة بناء العلاقات السياسية والاقتصادية فحسب، بل والمفاهيم النظرية أيضاً. وفي هذا الصدد تهمني المسألة الآتية: ألن يسعى الحزب الشيوعي السوفييتي إلى «ادخال البريسترويكا» إلى الاحزاب الأخرى؟ واذا ما استخدمت هنا الطرق القديمة دون حساب الاوضاع الخاصة والامكانات المتوفرة لدى الاحزاب الشيوعية في مختلف البلدان، ألا تعتقدون بان هذا الميل يمكن ان يختلف مع جوهر البريسترويكا؟

غ. فودولازوف. بالطبع. لا أحد يحتكر الحقيقة، لذا لا يملك أحد الحق في فرض موقفه على الآخرين. وإذا ما حاول أحد ما في مكان ما القيام بذلك، فاعلموا انه ليس من ممثلي البريسترويكا، انه ومن هم على شاكلته ليسوا سوى ستالينيين يتزيون بازياء البريسترويكا. وفي الوقت نفسه اعتقد ان العرض النزيه والصريح للاسس الفكرية للبريسترويكا، لنظرية التفكير الجديد، والدفاع عن هذه الافكار، وتدعيمها بالحجج الأمر الذي يتطلب مناقشة مشتركة تفترض الانتقاد، الخ ـ ان هذا كله لا يمت بصلة إلى فرض الآراء. والحزب الشيوعي السوفييتي الداعي إلى الوحدة في التنوع، في ظروف استقلالية جميع الاحزاب الشقيقة، يوافق بالكامل على المبادىء الديمقراطية للعلاقات داخل حركتنا.

رفيق سمهون. يبدو لي ان لقاءنا الذي جرى في جو رفاقي صريح، كان مثمراً جداً. لقد ناقشنا جملة من المسائل التي كانت حركتنا تتخذ بشأنها مواقف صارمة جداً، بل وتصل أحياناً حد المجابهة. وطرحت اليوم تقويمات وآراء مختلفة، بما فيها آراء متعارضة. وهذا أمر طبيعي. فقد تأكدنا من ان موضوع المناقشة وتفسيره في مختلف الاحزاب يتسمان بالتناقض أيضاً. وهذا ما جعل تبادل الآراء، الذي جرى بدافع السعي إلى الاستماع إلى آراء بعضنا البعض وفهمها، أكثر فائدة، دونما احتكار للحقيقة، والبحث في الوقت نفسه عن هذه الحقيقة من خلال التعاون الخلاق.


أدب وفن

غوركي وبولغاكوف

في المقدمة التي كتبها الناقد السوفييتي يفغيني سودوروف لرواية بولغاكوف الشهيرة (المعلم ومرغريتا) ترد العبارة التالية: «حظيت اقصوصة بولغاكوف الخيالية الهجائية «البيضات القاتلة» (١٩٢٤) التي يسخر فيها من روح المغامرة لدى بعض المواطنين القياديين المتمسّحين بالسلطة السوفييتية والمندسّين فيها بتشجيع مكسيم غوركي واستحسانه».

وهي عبارة ملتبسة حقاً، مقطوعة عن سياقها، لا تجد مرجعاً لها في نص أو واقع أو تاريخ، وحين تلتبس العبارة ويصبح التقييم اتهاماً تتحول الكتابة إلى دسيسة صغيرة تعلن فضيحتها لا فضيحة الآخر. وفضيحتها هي ان تصيّر غوركي هدفاً، وبولغاكوف بندقيةً، والناقد قنّاصاً والادب ساحة رمايةٍ.

لن اتوقف عند المقدمة، ولا عند كاتبها، فهي لا ترقى إلى منزلة رواية شهيرة كرواية بولغاكوف ولا يحضر الذاكرة منها غير تلك العبارة الناتئة التي تريد ان تجعل باطلها يقيناً ووعيٍ قارئها صفحة بيضاء.

اودّ ان أبيّن أيضاً أنني لست في معرض الدفاع عن غوركي، فالمقالة التي تنشرها الثقافة الجديدة (عبادة الشخصية: اختلال عقلي) كفيلةٌ بالردّ، ولا عن أدبه الذي هو من الاتساع ما يجعله عصيّاً على التقييم العابر، ومن التأثير ما يجعل

إنكاره ضرباً من الادعاء، ومسألة التقييم، هي بعد هذا وذاك، مسألةٌ ذوقيةٌ محضة، في أساسها، ولكنها تتعدى الذوق حين تصبح حكماً وعمليةً في غاية التعقيد تتطلب معرفة وموقفاً جمالياً واضحين.

ولكنني أتساءل في حدود العبارة ذاتها: ما روح المغامرة؟ ما علاقة غوركي بالمواطنين المتمسّحين «المندسّين» وما مرجعها؟ الاقصوصة؟ ولكنها خيالية؟ وتفسيرها على هذا النحو نوعٌ من «الاندساس» ـ اذا استعرنا لفظة الناقد ـ تنكرهُ الوقائع الكثيرة التي يُفترض بالناقد ان يكون على بيّنةٍ منها، أو ان يكون شديد الاحتراس في تقييمها، اذا كانت على جانب كبيرٍ من الغموض.

لقد قيّم مایاكوفسكي أدب بولغاركوف تقييماً سلبياً، وكذلك فعل الآخر، واتجه كلاهما في المسرح اتجاهين مختلفين: مایاكوفسكي باتجاه مايرخولد، وبولغاكوف باتجاه ستانسلافسكي، فهل يحقّ لنا أنْ نستنتج من ذلك ما استنتجه الناقد؟

ولم تكن علاقة بولغاكوف بستانسلافسكي أقل تشابكاً، فالاخير هو الذي وقف إلى جانب بولغاكوف، وهدّد بغلق المسرح الفني إنْ لم تُعرض مسرحية (أيام آل تورين) المتعاطفة مع البيض، وفي المقابل فان بولغاكوف قدّره تقديراً عالياً، ولكنه، أي بولغاكوف، عرّض به من جهة أخرى في رسالةٍ مريرة أرسلها إلى صديقه بوبوف، بمناسبة الذكرى الثانية على عرض مسرحيته تلك (مجلة «الاداب السوفييتية» العدد الخاص ببولغاكوف الصادر عام ١٩٨٨ باللغة الفرنسية).

ويعتقد الكاتب السوفييتي فلاديمير لاكشين في مقالة له في المجلة المذكورة أنَّ ذلك يرجع إلى طابع العلاقات الفنية التي ميّزت مشاهير الكتاب المعروفين بتعصبهم لفنّهم.

ويتّفق معه ناقدٌ آخر هو الكسندر كاراغونوف إذ يوعز مشكلات بولغاكوف إلى الصراع الأدبي الذي طبع الأدب السوفييتي بطابعه في العشرينات والثلاثينات دون ان ينفي الموقف السياسي لبولغاكوف الذي اتّسم بالتناقض.

وليس أدلّ على هذا الصراع من موقف الجمعية الروسية للكتاب البروليتاريين، إزاء مسرحية (أيام آل تورين)، إذ دعت إلى منع عرضها في المسرح الفني بموسكو.

هذه الجمعية ذاتها كانت موضع انتقاد غوركي في المؤتمر الأول للكتّاب

السوفييت عام ١٩٣٤.

وتبدو عبارة الناقد يفغيني سودوف التي أوردناها في مطلع حديثنا أشدّ التباساً حين نعلم أنّ الدراسات العديدة عن أدب بولغاكوف وحياته لا تشير إلى أية علاقة مباشرة تربطه بغوركي، وان صراعاته انحصرت في إطار عمله المسرحيّ، إذ إنّ رواياته لم تر النور إلاّ بعد وفاته، وهي اهمّ أعماله.

أما علاقة بولغاكوف بالسلطة التي يُتهم بها غوركي، وبستالين بالذات، فانها على درجة كبيرة من التعقيد، فقد كتب بولغاكوف رسالتين إلى ستالين الذي اجابه على الرسالة الثانية هاتفياً، طالباً منه عدم السفر الى الخارج والبقاء في البلاد والعمل في المسرح الفني

ويذكر الناقد الكسندر كاراغانوف الذي مرّ ذكره، والذي يرأس لجنة اتحاد الكتاب السوفييت لجمع تراث بولغاكوف، أنّ ستالين التزم جانب بولغاكوف.

أما المفارقة الباعثة على الغرابة حقاً فهي ان بولغاكوف كتب ـ قبل سنةٍ من وفاته أي عام ١٩٣٩ ـ مسرحيةً بعنوان (باتوم) في مديح ستالين الشاب الذي اشترك في تنظيم إضراب العمال في مدينة باتوم.

كلّ هذه الملابسات تؤكد أنّ حشر غوركي في سياق غريب عنه انما هو اجتراءٌ على الحقيقة وذو طابعٍ فضائحي، لابدّ من توضيحه خاصةً بالنسبة إلى قارئنا العربي الذي قرأ رواية (المعلم ومرغريتا) والمقدمة مترجمتين، والذي قد يتعامل مع هذه العبارة اخلاقياً أو سياسياً في رفضه لها أو قبوله بها.

إن هذه الصفحات القليلة المكرسة لغوركي ليس غايتها لدفاع عنه لأنّ غوركي ليس متّهما وانما الاحتفاء بذكراه للانطلاق إلى ما هو أكثر راهنيّةً: اشكالية علاقة المثقف بالسلطة أو الحزب، التي تأتي تكملة للمحور الذي طرحته الثقافة الجديدة تحت عنوان (الثقافة والقمع) في عددها الذي صدر في كانون الثاني الماضي من هذا العام.

عبد الكريم كاصد

عبادة الشخصية: اختلال عقليّ

لماذا لم يتحدث مكسيم غوركي أبداً

فاديم بارانوف* ترجمة : فاضل السلطاني

زار مكسيم غوركي «نابولي» في نيسان/ ابريل، العام ١٩٢٤، في وقت كانت الصحف الايطالية تنقل التقارير حول نتائج الانتخابات التي اكتسح فيها الفاشيون اغلبية المقاعد.

كتب (غوركي)، في رسالة إلى الكاتب افسيفولود ايفانوف العام ١٩٣٣، سنة مجيء الفاشيين إلى الحكم: «افكر بنفسي، بشكل عام، وكأنني رجل محجوز. ألستُ ابدو كذلك؟ لقد وصلت إلى النقطة التي اعاني فيها من نوبات غضب شديد في الليل. وعندما أكون وحيداً افكر بالانحطاط الانساني الذي اصبح صفة مميزة جداً لعصرنا. واحلم، اذ تعميني وضاعة الانسان، ودناءته، وبلاهته المزدهرة هنا وهناك، كم سيكون الأمر رائعاً لو هشمنا الانوف البشعة لبعض «خالقي» التاريخ المعاصر..»

كان يمزح، بالطبع، فيما يخص مهنة «التهشيم»، ولو ان ذلك قد اصبح في المانيا وايطاليا ممارسة روتينية.

كان (غوركي) يتذكر جيداً مقتل غياكومو مايتوتي في حزيران من العام ١٩٢٤، والذي نُفذ بعد وقت قصير من القائه خطاباً لاذعاً أدان فيه وحشية الفاشية. بعد ذلك بوقت قصير، شرع قانون عقوبة الاعدام في ايطاليا.

في ذلك الوقت، في كانون الثاني من العام ١٩٢٥، ارسل غوركي رسالة إلى الوطن يقول فيها: «تبدو الاشياء مظلمة هنا. ويبدو ان هناك قتالاً وشيكاً».

* دكتور في العلوم (فقه اللغة).

وما عناه بالقتال ليس «تهشيم الانوف» وانما شيء آخر أكثر خطورة بكثير.

وعندما اقتحموا بيته في «سوريتو»، وفتشوا غرفة سكرتيرته، ماريا بوغبرغ، ارسل رسالة احتجاج إلى موسوليني. ولكن كم تبدو الحوادث المؤسفة هذه تافهة في وجه التاريخ المتكشف أمام عينيه. في ذلك الوقت نادى، موسوليني، بصراحة، بعبادة الحرب باعتبارها اساس الاختبار الحقيقي للقدرات الانسانية.

واعادت «الاخبار الحديثة»، وهي صحيفة روسية شعبية يصدرها بافل مليوكوف، نشر مقال ظهر في الصحيفة الايطالية «امبريو»، بعد وقت قصير من عودة، موسوليني إلى ايطاليا. قالت الصحيفة: «الليلة تبدأ الثورة الفاشية (ثورة؟) التي ينبغي ان تعمل بسرعتها لتصل إلى الكمال. ويجب التخلص من كل المعارضين للفاشيين في ايطاليا حتى آخر فرد. انتقموا من المرتدين! الليلة هو الموعد الأخير (**ليس متقدماً، ليس متأخراً**)، نحو وضع نهاية لليوتوبيا السخيفة التي ما يزال البعض يغذيها بقوله ان كل شخص يملك رأساً فوق كتفيه قادرٌ ان يفكر بنفسه. ايطاليا تمتلك رأساً واحداً، الفاشية تمتلك عقلاً واحداً، وهو قائدنا. أما بالنسبة للمنشقين، فسنقطع رؤوسهم دون رحمة.»

وضع (غوركي) خطاً تحت عبارة يوتوبيا التفكير بنفسك. ماذا لو حققوا غاياتهم لا سمح الله؟ ماذا سيحصل لعنان الذين سيجبرهم الدكتاتور على الطاعة؟، والذين سيتبعون، بخضوع وغفلة، كل اوامره؟ ان العقل ليرفض ان يعبر عن فكرة كهذه.

لم يستطع غوركي ان يعرف حينئذٍ، أية فاشية رهيبة، غادرة - وفي المقام الأول الفاشية الالمانية -، سيعرفها العالم قريباً جداً والذي لم يستطع ان يتنبأ به أيضاً هو نوع رد الفعل الذي سيحدثه انبثاق الايديولوجيا الفاشية، والذي سينتشر في الغرب وحتى في الاتحاد السوفييتي...

وأنا اخشى، ونحن نفكر بمكسيم غوركي، وآرائه، وحياته في الثلاثينات، باننا لا نقدر تماماً صعوبات الوضع الذي كان يمر فيه.

غالباً ما كان اصدقاء (غوركي) واقاربه الذين يختلفون إلى بيته في ايطاليا، يسألون عما يفكر به بخصوص التطهيرات والانتهاكات التي يتعرض لها المثقفون السوفييت في الثلاثينات. وكانوا يسألونه لماذا لا تمنع كل هذه التناقضات والتعسفات؟ ماذا كان يستطيع ان يقول جواباً على ذلك؟ هل ان نقد الحكومة المعلن من الخارج، حسب نظرة الغرب، قد يكون مضراً أكثرمن كونه نافعاً؟ كان أكثر المثقفين البارزين، في تلك الفترة، يفكرون بطريقة مماثلة.

كتب ستيفان زفايغ، على سبيل المثال، إلى رومان رولان: «ان غوركي واع تماماً لحقيقة ان العالم كله ينتظر شهادته. فالسوفييت يتوقعون ان يسمعوا منه تقييماً بينما يستبق منه

الآخـرون الادانـة. انه لا يقول أي شيء. واولئك الذين يستطيعون ذلك يفهمون ارادة صمته. فكيف تستطيع ان تلوم طفلك اذا اصبح مختلفاً تماماً عما كنت تتوقع. ان الوضع الذي يجد نفسه فيه لهو وضع تراجيدي بكل ما في الكلمة من معنى. . »

كل ما حدث في روسيا كان، بالنسبة لغوركي، متبايناً بشدة مع الحياة في ايطاليا. كان بامكانه رؤية ذلك بوضوح أكثر من أي شخص آخر لم يسافر إلى ذلك البلد، ويستمد معلوماته من الصحف.

«عَقْد ساحر. لا أجد وأنا انظر إلى نضالكم البطولي والشجاع شيئاً يمكن ان اقارن به، وانا في وضع يؤهلني للمقارنة. يبدو من هنا، بشكل خاص، أي نوع من البشر انتم.» هذه الكلمات من احدى الرسائل التي ارسلها غوركي إلى الوطن.

وتدل رسالة أخرى ارسلها إلى اندرين بوفنوف، مفوض الشعب للتعليم في روسيا الاتحادية، دلالة واضحة على مزاجه، لقد كتب الرسالة في الخامس من شباط، العام ١٩٣٣، قبل مغادرته ايطاليا، وجاء فيها: «لقد قرأت خطب المشاركين في الجلسة الكاملة - اشارة إلى الاجتماع المشترك الكامل للجنة السيطرة المركزية، للبولشفيك، المنعقد في ٧ - ١٢ كانون الثاني - وشعرت بالفرح ثم بالحزن لانني لست معكم ايها الرفاق. انني هنا حيث تصبح رائحة العفونة أكثر ثقلاً وحيث أشعر بالمذبحة القادمة.»

كان التـاريخ يبـدو حينئذٍ أكثر شؤماً مع بداية الاحداث المرعبة في بلاده. وكان اصدقاء غوركي وكل المتعاطفين مع الاتحاد السوفييتي يتحدثون عن ذلك باهتمام متزايد، لانهم كانوا ينظرون إلى روسيا الجديدة باعتبارها بديل الفاشية الوحيد القابل للحياة. كتب ستيفان زفايغ إلى رومان رولان: «نصف اوربا تحت الحكم الاستبدادي، والعالم الحر قد سُحِق وفي ايطاليا، وروسيا، والمانيا، رُبّي الجيل الشاب، الذي سيتولى السلطة قريباً، ليعيش وفق صيغ ثابتة، وليس وفق افكاره الخاصة به. وما اخافه أكثر من أي شيء آخر، وما يبدو انه سيحدث، ان الناس يصبحون معتادين على ذلك. . . »

لقد سمّى زفايغ روسيا بـ «البلد الأكثر اثارة للاهتمام، البلد الذي يتخطى بقية العالم في كمال الحياة.»

ولكنه، ايضاً، لاحظ بمرارة انه تأسس في روسيا ما دعاه بـ (نموذج موسوليني اعلى من الدكتاتورية) [من المثير للاهتمام ان نلاحظ ان اندريه جيد قد أشار في مذكراته، بعد الحرب العالمية الثانية، ان «النازية يمكن ان تهزم فقط بتوتاليتارية مناهضة للنازية»].

كان رومان رولان، بصراحة أقل وحذر أكثر، يشارك زفايغ في انطباعاته حول روسيا التي زارها في العام ١٩٣٥، بناء على دعوة مكسيم غوركي. وقد قال انه قابل جوزيف ستـالين ونيكـولاي بوخـارين، وياغـودا وغيرهم من القادة السياسيين البارزين، وكذلك

اصدقاء عائلة غوركي حيث بقي في بيتهم لمدة ثلاثة اسابيع. لقد كانت فكرة الثورة، وفقاً لرولان، قد استحوذت على الناس، وكان يمكن رؤية ذلك، على سبيل المثال، في الاحتفالات الجماهيرية في موسكو حيث يحمل الرياضيون نصف العراة شعاراتهم بكبرياء (كانت المناسبة استعراضاً عسكرياً اقيم في ٣٠ حزيران، ١٩٣٥، وحضره غوركي ورومان رولان).

وردّ زفايغ بما عُرف عنه من شكوكية خاصة: «لا أرتاب، للحظة، في الحماسة التي اشعلت الشباب الروسي مثل اللهب. الشيء الوحيد الذي اخافه ان يعطف هذا الانفعال القوي نفسه رؤوس الشباب نحو المانيا الفاشية. اني، عموماً، انظر إلى هؤلاء الشباب الرائعين الذين يوحدهم الحماس نفسه، بشكٍّ وخوف. لانهم ينسون كيف يفكرون بشكل مستقل، وتجرفهم فكرة عامة يُغذَّوْن بها..»

وبعد موت غوركي مباشرة عبّر زفايغ عن غضبه وسخطه على المحاكمات السياسية التي تزايدت في موسكو. لقد اصبحت تنبؤاته الاسوأ حول ما سيأتي «تأليه دكتاتور»، حقيقة واقعة.

لم يكن هذا الانطباع، بالنسبة لرومان رولان شيئاً غير عادي. فقد ملك الادراك نفسه، وتحدث مع غوركي بصدده، وحاول، فيما بعد، ان يحذر ستالين عند زيارته لموسكو. ولكن، واحسرتاه!، بدون جدوى، فحجة ستالين ان مكائد الاعداء تنتشر بسرعة، ليس بدون مساعدة من الخارج. لقد تحدث (رولان) عن «الحزن العظيم المخفي» الذي رآه في عيون غوركي عندما قابله في موسكو. وهذه علامة واضحة على ان غوركي بدأ الآن يرى الاشياء بشكل مختلف عن رحلاته الأولى إلى روسيا. لقد فهم أكثر، ولكن كان يتعين عليه ان يبقى صامتاً.

عُقد الاجتماع الكامل للجنة المركزية في كانون الثاني، العام ١٩٢٤ ونظر في «الاخطاء» التي ارتكبها كارل رادك وهو عضو في الحزب الشيوعي دعا إلى فكرة اتحاد مع الاشتراكيين الديمقراطيين، وتحدث ـ بشكل معقول تماماً ـ عن خطر الفاشية.

أما بالنسبة لستالين، فقد كان يرى ان هناك حاجة لنضال ضار ضد الاشتراكيين الديمقراطيين. لقد كلفت المحاكمات السياسية الشائنة في الثلاثينات الاتحاد السوفييتي خسارة باهضة لهيْبته في عيون المجتمع الدولي.

وكان ستالين، في الوقت الذي يتهم الاشتراكيين الديمقراطيين بميول فاشية، يمارس، في الحقيقة، حياة مزدوجة، ويسعى إلى التواطؤ مع قادة المانيا وايطاليا. في العام ١٩٣٣، بعد سنة من مجيء هتلر إلى السلطة، وقّع ستالين وموسوليني معاهدة للصداقة،

وعـدم الاعتداء، والحياد، أُلغيت فقط في ٢٢ حزيران، ١٩٤١ . وأكثر من هذا، عقد اجتمـاع سري، في غابـة ليست بعيدة عن موسكـو، بين أمين سر ستـالين والسيد فون تواردوفسكي، مستشار السفارة الالمانية في موسكو. وقدم التقرير الأخير المرسل إلى برلين وصفـاً للقاء مع «صديق سوفييتي». وحدث هذا على خلفية قضية «حريق الرايخستاغ» المشين. والتي عُرضت على المحكمة في «لايبزك» حينئذٍ.

هل كان بامكـان غوركي ان يتصـور ان انتخابه لمجلس السوفييت الأعلى، وفقاً للدستور الجديد، سيوجب عليه ان يقف إلى جانب حقوق عشرات الاشخاص وليس فقط شخصاً أو شخصين وان يرسل قائمتين بمئة وواحد وثلاثين ومئة وعشرين اسماً إلى بيريا ومالينكوف؟ وهل كان بامكانه ان يصدق ان المحاكمات الرهيبة، المرعبة للعقل، في بلده ذاته، في مدى سنتين ونصف، ستجعل قضية «رايخستاغ» تبدو وكأنها لعبة؟

وهل كان بمستطاع أي شخص، في ذروة احلامه، ان يتصور ما حصل في العام ١٩٣٧، عندما برَّر ستالين، علنياً، «ليلة السكاكين الطويلة»، ليلة (٣٠) ايلول المرعبة، العام ١٩٣٤؟ أو ان ستالين بعد عامين من ذلك، في (٢٣) آب العام ١٩٣٩، سيشرب نخب هتلر؟ «مادام الشعب الالماني يحب الفوهرر كثيراً جداً، فانني أشرب بصحته.»؟

بدأ غوركي، بعد الاعمال الفاشية الدموية في المانيا، يفكر، أكثر فأكثر، بطبيعة عبادة الشخصية واصولها. وتحدث مرة إلى اقربائه المقربين قائلاً: «انها لظاهرة معقدة، ولكني واثق تماماً انها، جوهرياً، اعتلال عقلي.

عنـدما تنتفخ الأنا، خارج كل تناسب، ومثل السرقوم* الذي يفسد ويشوّه العقل. والانسـان المبتلى بهذا المرض، ينمو عنده الذاتي بافراط بينما يضمر الجماعي. ومن الواضح، إنه مرض مزمن ممكن ان يتقدم.

كما ان الانسان المصاب بهذا الاختلال يطور، بسرعة، جنون العظمة عنده، ومع ذلك يرافقه كالظل لبقية حياته وحْشٌ آخر - هوس الاضطهاد. وهكذا لا يعود هذا الانسان موجوداً. . .»

وبعد توقف قصير أضاف: «أما بالنسبة للمجد الذي يراه والمديح الذي يُغنى له، والذي يشجعه هو. . فكل هذا له طبيعة مادية ويعمل كالسم»

وتحـدث غوركي، أيضاً عن موقف لينين تجاه التمجيد، وعن اعتراضاته الحازمة على كل أشكال المديح، والتملق، وكل الزوائد التي ترافق عادة الاحتفالات اليوبيلية. وتذكر كيف ان لينين غادر مرة القاعة التي جرى فيها اجتماع لمناسبة ميلاده الخمسين. واستذكر غوركي ايضاً كيف منع ماركس اقامة أي نصب تذكاري فوق قبره، وكيف ترك (انجلز) وصية عبّر فيها عن رغبته بدفن رماد جثته في البحر إلى الأبد. ولاحظ (غوركي)

ان هذا لم يحدث صدفة. فكل العقول العظيمة التي خدمت الشغيلة، أرادت ان تستمر هذه الخدمة بعد وفاتها، لأنها كانت تدرك جيداً الضرر الذي يلحق تحويل أي شخص إلى معبود. كل شخص بلا استثناء، لأن غوركي لم يكن يعني هتلر، أو نابليون، أو الاباطرة الرومان فقط. فهناك أمثلة أخرى، تطل عليك من أوراق الصحف، وتسمعها في الراديو.

* ورم خبيث ينشأ في النسيج الضام.

عقد فرع رابطة الكتاب والصحفيين والفنانين الديمقراطيين العراقيين في جمهورية اليمن الديمقراطية اواسط الشهر الماضي مؤتمره الرابع بمشاركة لفيف من المثقفين اليمنيين والعرب، وقد القيت في بداية اعمال المؤتمر تحية منظمة الصحفيين اليمنيين ومنظمة الحزب الشيوعي العراقي كما قدم عدد من الشعراء السودانيين واليمنيين بعضاً من قصائدهم، ثم جرت بعد ذلك مناقشة التقارير التي اعدتها الهيئة الادارية عن حصيلة عملها خلال الفترة التي اعقبت المؤتمر الثالث وتم في ضوء المناقشات اتخاذ عدد من القرارات والتوصيات التي تهدف الى تعزيز جهود ووحدة المثقفين العراقيين في الدفاع عن الثقافة الوطنية التقدمية، وفي ختام اعمال المؤتمر جرى انتخاب اعضاء الهيئة الادارية الجديدة كما جرى انتخاب مندوبي الفرع للمؤتمر العام الثالث للرابطة والمقرر عقده في غضون الشهور القليلة القادمة.

مكسيم غوركي... قارئا

فالنتينا اسمولوف ترجمة : د. رزاق عبود

في ١٩٩٠/٣/٢٨ تكون قد مضت ١٢٢ عاماً على ولادة مكسيم غوركي. كلنا نعرف الكاتب غوركي، ولكن نظرة إلى القاريء غوركي تكشف سمات عديدة للمبدع الباحث بلا كلل، الذي قال ان أجمل ما فيه يعود إلى الكتاب.

عالم قراءات غوركي هائـل : سيرافنتس، ليف تولستوي، شكسبير، بوشكين، موليير، تشيخوف، شيلر، دوستويفسكي، رومان رولان، شولوخوف، هاينه، مايكوفسكي، وكتاب من الماضي . . . كل واحد منهم بقدر ما يجذب اهتمامه، يترك آثاراً في روحه وفي نتاجاته.

تتـذكـر الكاتبة الايطالية سيبلا اليرمو لقاءها في اواخر العشرينات بالكاتب الكبير وحديثها معه وتتعجب من سعة اطلاعه غير الطبيعي واهتمامه العميق بالثروة الأدبية للعالم كله : «لا يوجد كتاب مهما كان، في الفلسفة أو اللاهوت غير معروف لديه». الحديث تناول حلقة واسعة من الكتاب من جويس إلى زفايغ. تشير اليرمو ان غوركي قدّم تقييمات عميقة وواضحة للقراءات تعكس تأملات جدية عميقة ومستمرة لكل كتاب، وعمل بلا كلل متعلماً من أي استاذ في الفن. في مقالته «إلى م. م. بريشفين» في عام ١٩٢٦ كتب «. . . كقاريء تعلمت الكثير من قراءة كتبك. ! . وحتى اليوم أتعلم لا منك وحدك وانت الكاتب المتمكن، بل حتى من ادباء يصغرونني بخمس وثلاثين سنة، بدأوا الكتابة لتوهم ومواهبهم لم تصقل بعد بالخبرة. ولكن اصواتهم ترن بطريقة جديدة، بقوة ورقة».

بفضل عمله الذهني الهائل وتعطشه إلى المعرفة اصبح غوركي مفكراً موسوعياً، بدائرة معارف واسعة جداً، معارف نادرة في مجال الادب الروسي والعالمي، ذا ذوق فني متنوع ومتطور جداً. انه ينتمي إلى صنف القراء الذين ولد عندهم مبكراً «شغف القراءة».

في سيرة حياته تحدث غوركي كيف تمكن من فن القراءة. انه يشير إلى اسم ميخائيل اكيموفيتش سموري، الذي كان له دور كبير في ايقاظ اهتمامه بالكتاب. لقد امتلك سموري ـ كما يقول غوركي ـ اغرب مكتبة في العالم: «كارتها وزن إلى جانب نيكراسوف، آن رادكليف مع مجلد من «المعاصر»، كذلك كان هناك سلسلة «ايسكرا» لعام ١٨٦٤، «صخرة الايمان» وكراسات عن اللغة الاوكرانية». كان تعلقه بالكتاب قوياً جداً وقد قاده الاهتمام القوي المتنامي بالقراءة ان «يقتنع بالاهمية العظيمة للكتاب وان يعشقه». «في العاشرة من عمري بدأت أكتب يومياتي، حيث كتبت انطباعاتي عن الحياة والكتب».

في ذلك الوقت كان القراء العاديون منغمسين في الادب الرديء، وفي روايات «المغامرات» عن النبلاء الافاضل، والامراء والبارونات وحياتهم «الجميلة»، عن تابعيهم الاشرار، الخبثاء، الحاذقين. هذه الكتب تتناقض بشدة مع الحياة التي خبرها الصبي، مع الحياة العادية، المبتذلة، الحزينة والضجر الدائم: «الدلال، السماور، الجزر، الدجاج، الفطائر، الاعياد، مراسيم الدفن، تخمة حتى الاذان والشرب حتى التقيؤ ـ هذا كان جوهر حياة الناس الذين بدأت أعيش وسطهم».

الروايات اظهرت حياة أخرى. حتى عناوينها تكفي ببلاغة للتعبير عن مضمونها: ـ «المسلمة الحسناء التي ماتت عند قبر زوجها»، «أيدٍ مليئة بالذهب والزهور والدم»، «المرأة الجهنمية»، «المتوفية الحية»، «برميل الذهب» وغيرها.

في سوق الكتب سادت القراءات المجردة التي تصور سطحية ووضاعة العلاقات البشرية. ولكن القاريء الشاب اليوشا بيشكوف تقبلها من البداية بحماس. اليك كيف يصور تأثير رواية كسافيه ديومنتبن «مأساة باريس»: «كل شيء في هذه الرواية كان واضحاً وبسيطاً للغاية، وكأنَّ ضوءاً مختبيءً بين السطور يشعل الخير والشر، يساعدنا ان نحب ونكره، يحملنا ان نتابع المصائر البشرية المحتدمة، المحاكة في نسيج متين».

لكن غوركي القاريء يدرك بسرعة تقنية روايات المغامرات، التي يمكن معرفة من سينتصر فيها من الصفحات الأولى. بعد الادب ذي الموضوع المسلي والخداع والعنف حيث بطل الرواية يملك طاقة غير محدودة وخطوات واضحة، وقعت بين يدي الشاب رواية الاخوان كونكور «الاخوة زيمغانو»: «... قرأتها بنفس واحد، في ليلة واحدة، وتعجبت من شيء، لم أكن أعرفه حتى تلك اللحظة، من جديد وقعت على قصة بسيطة حزينة.

لم يكن فيها شيء محير، أي شيء خارجي يسترعي الانتباه. من الصفحات الاولى بدت جدية وجافة كحياة القديسين... بكيت بمرارة...». يتذكر بحرارة أيضاً كتاب غرينود «قصة حقيقية لصعلوك صغير» منحته الكثير من البهجة والسعادة. بعد ذلك بفترة وقع على «كتاب صحيح» حقيقي «يوجيني غرونده» لبلزاك. يحلل بطرافة كيف أثر فيه هذا الكتاب بعمق: «جدي كان شخصاً قاسياً وبخيلاً، ولكن لم أره، لم افهمه هكذا جيداً، كما رأيته وفهمته بعد ان قرأت رواية بلزاك «يوجيني غرونده». أب يوجيني الشيخ غرونده، أيضاً بخيل وشخص قاس ويشبه جدي إلى حد كبير، ولكنه أكثر غباءً وليس مشوقاً كجدي... كان هذا اكتشافاً كبيراً ـ كتاب يمتلك امكانية ان يريني في الانسان ما لا أراه ما لا أعرف عنه».

غوركي وهو يقرأ كتب جورج اليوت، واويرباخ وشبيلخاغن توصل إلى استنتاج ان النقود بالذات مهما كانت ـ انكليزية، المانية أو روسية تخدم غرضاً واحداً مشعلةً بين الناس الصغائر والعداوات الحقيرة. في اشاراته إلى النزعة المحافظة يطوّر بمتعةٍ وعمق هذه الفكرة.

الادب المقروء حتى ذلك الحين لا يشبه ما استوعبه آنذاك: «عند غونكور، غرينود وبلزاك لم يكن هناك انذال ولم يكن هناك اخيار. كان هناك ببساطة اناس احياء باعجوبة...».

«هذه الكتب غسلت روحي منظفة اياها من الانطباعات القادمة اليها من واقع مر وبائس...» هذا ما يقوله غوركي عن (قصة عائلية) لاكساكوف، والقصة الشعرية الروسية الرائعة (في الغابات) و (مخطوطات صياد) الجميلة، ومجلدات غريبيونكا وسولوغوب، وقصائد فينيفيتونوف، اوديونسكي، تيوتجيف وغيرهم من الشعراء والكتاب.

الكتب تولد عنده مسعى نحو شيء رفيع، منقطع عن اطر الحياة اليومية. «بالاضافة إلى الضبابي برت هارت وروايات الشوارع قرأت الكثير من الكتب الجديّة التي ايقظت فيّ الرغبة إلى شيء غامض مبهم، اهم بكثير من كل ما رأيته».

يقدم مكسيم غوركي تحليلاً شيّقاً لتأثير الادب عليه وبشكل معقد، ديالكتيكي، متناقض: «في داخلي عاش شخصان: واحد خاف قليلاً بعد ان عرف الكثير من الاوساخ والطين. فاخذ يتعامل مع الحياة، والناس بعدم ثقة، لا يبالي بكل شيء حتى بنفسه. هذا الشخص تمنى حياة هادئة، منعزلة، بين الكتب، بدون بشر، بالدير، ببيت صغير وسط الغابة، ببلاد فارس، ووظيفة حارس ليلي في مكان ما في اطراف المدينة. بعيداً عن الناس...

أما الثاني المعّمد بروح مقدسة من الكتب الشريفة والحكيمة، مراقباً القوة المنتصرة

للحياة اليومية الفظيعة، فقد شعر كم من السهل على هذه القوة، ان تقطع رأسه، ان تسحق قلبه بنعلها القذر. فتحوّط متوتراً صارفاً اسنانه، مشهراً قبضته، متهيئاً دائماً لكل نقاش أو قتال. هذا أحب وتأسف فعلياً، واذ تشبه ببطل الروايات الفرنسية الشجاع، اخرج سيفه من قرابه واتخذ موقفاً قتالياً».

توصّل غوركي إلى استنتاج بانه تحت تأثير الكتب وتجربته الخاصة فهم منذ وقت مبكر، ان مقاومة الشخص لمحيطه تجعل منه انساناً.

في مصير غوركي كقارئ يوجد شيء توجيهي، تحذيري. انه في عمق رؤيته الرمزية التي تتكشف عندما يقرأ رواية بلزاك «الجلد المسحور» وقصةُ فلوبير «قلب نقي» سواء في معاناته في احساس الصبا القوي المتولد من كتب غليب اوسبنسكي أو بالتأثير العظيم لابداع بوشكين... «انه أول من رفع اسم الكاتب إلى أعالي لم يشهدها أحد قبله...». مكسيم غوركي يقيم عالياً اشعاره «الملحمية والحكيمة». «الموجهة بمزاح كبير». انه يعرض أحسن القصص التاريخية في الادب الروسي، غير متخطاة حتى الآن». في قصصه التاريخية وغيرها - يستنتج غوركي - من الصعب احصاء كل المهارات المكتوبة من قبل بوشكين: «ابداع بوشكين، واسع، مجرى باهر من الاشعار والنثر، كما لو انه أشعل شمساً جديدة على البلاد الباردة والمظلمة...».

عندما قرأ القصة الشعرية «ديمون» للكاتب ليرمونتوف عن مصممي الايقونات في معمل التاجر افغيني سابانوف ذُهِلَ غوركي من التأثير الجبار للشعر الحقيقي على قلوب الناس.

انه كقارئ حساس بشكل غير طبيعي نحو اصالة الاسلوب الفني. وبخلاف بعض معاصريه، الذين يؤكدون ان ابداع تشيخوف تشاؤمي يخلو من القيم الجمالية، فانه يشير إلى ان فن تشيخوف يؤكد المثل العليا للجمال.

كتب مرّةً إلى تشيخوف: «... الحس الحاد سيدرك دائماً... الطعم الرقيق الصارم والصحي لـ «الحقيقي»، لما هو مطلوب وقيّم فعلياً والموجود دائماً في كل واحدة من زجاجاتك».

يرى غوركي ان براعة تشيخوف تكمن في الدقة المدهشه واللغة الموفقة، في تعابيره الموجزة، في براعته العجيبة في التخلص من الكلمات والجمل الدخيلة».

أمّا عندما يتحدث عن البراعة الفنية عند تورجنيف وغونجاروف فانه يلاحظ، ان حضور هذين الكاتبين في كتبهم لا يحس تقريباً، فهم يُنشئون ارضية واسعة حول الابطال ويستخدمون المناظر الطبيعية ووصف مسرى الافكار ولعبة الاحساس البشري بشكل واسع.

عمالقة الأدب هؤلاء يتوصلون ببراعة لجعل الشخصيات تبدو كأحياء، «لحد الخداع نوعاً ما. لدرجة انه عندما تقرأ كتبهم يتراءى لك الابطال كلهم وقد بعثت بهم الحياة، بطريقة عجيبة خارقة من القوة السحرية للكلمة، انهم يحيطون بك، يلمسونك وأنت تشعر من الاعماق بمعاناتهم، تضحك وتبكي معهم، تحقد عليهم وتحبهم، تسمع اصواتهم، ترى تألق السعادة والضباب الرطب للحزن في عيونهم، تعيش وتتعاطف معهم أو تدفعهم عنك وكل هذا جميل، موجع لحياة حقيقية، إلا انها أكثر فهماً وجمالاً».

أمّا الكاتب نيكولاي ليسكوف فغوركي يصفه انه أيضاً ساحر الكلمة ولكنه يصل الملموسية الحقيقية للشخصيات بوسائل أخرى. انه لا يكتب بشكل طيع وانما يحكى «كلماته الروسية البسيطة، النقية منتظمة الواحدة إلى الأخرى في سطور ممتعة جداً، انها مرة ساهية ومرة تدوّي هزلاً . . .» أنّ ليسكوف يقف دائماً إلى جانب القاريء مستخدماً الوصف الذي يصل حد الكمال، بحيث «يحوك ببراعة النسيج العصبي للحوار».

ويتحمس غوركي إلى كتاب ا. ب. جابيغين «رازين ستيبان»، «. . . أي متعة ان تقرأ هكذا نهايات ملموسة مدهشة». المعرفة العميقة في الوصف والقدرة الفنية العالية عند جابيغين تصبان في واحد: «أي استاذ انت وكم هي سعة معرفتك. وهذه اللغة العسلية تنسكب بلذة ناعمة كانما تأتي من الماضي. حوارك السحري. الشخصيات كقديس ايقونات روبيلوف، كل شيء في مكانه، كل شيء حي».

مكسيم غوركي يقيم عالياً واقعية الكتاب الفرنسيين العبقرية التي تخلو من التعصب والاعتداد البارد، ومن مسعى الاستبدادية غير المتردد لقرون لاقامة الدوغما وإدخال الفكرة في مجرى ضيق في هذا أو ذاك من الانظمة. «. . . الراهب رابليه استطاع ان يُضحك، كما لم يفعل أحد قبله وحتى يومنا هذا، ولحد «كولا بريغيون» لرومان رولان، ضحْكُ رابليه لم يخفت في فرنسا حتى الآن، والضحك الجيد علامة النفس السليمة».

كتب فيكتور شكلوفسكي عن الذائقة الادبية لغوركي: «لقد احب الادب العالمي، ولكنه لم يتقبل كل شيء». وغوركي نفسه يشهد انه قرأ في شبابه كمية خرافية من الكتب الرديئة، ولكن حتى هذه افادته.

وغالباً ما كان يرفق تقييمه لنتاج ما بوصف السمات الشخصية للكاتب: «نعم، مات سولوغوب، انه شاعر ممتاز، كتابه «دائرة الضوء»، مثير وسيبقى كذلك لفترة طويلة، كشخص كان بالنسبة لي، بغيضاً، لا يطاق، متكبراً، أنانياً، وساخطاً كعانس. . .».

باثنين أو ثلاثة تخطيطات معبّرة تعطي مواضيعه التصويرية تقييمات وصوراً واضحة لكتاب مثل ف. كورولنكو، وس. اسفين، ول. تولستوي، وأ. بلوك، وأ. جابيغين. . .

في مذكرات فينامين كافرين نقرأ السطور التالية: «من الكتاب الروس في القرن

العشرين لم يقرأ أحد بقدر غوركي ولم يغرم أحد بالقراءة مثله». ولهذا كان له الحق ان يقول مازحاً في حديثه مع ي. غروزدف «أنا القاريء العظيم على الأرض الروسية».

عند غوركي باستمرار يعيش الاهتمام ببناء القاريء. انه يلاحظ ان الاطالة وتمديد النتاج، والمحاججات المطولة هي تفاصيل زائدة تحجب معنى النتاج، وتعقّد عنصراً مهماً من جمالية الادراك الحسي للمنتوج. هذا العنصر هو استمتاع القاريء: «يجب ان تتمتع قليلاً، ان تمنح القاريء حق تحريك دماغه ـ هكذا سيفهمك أفضل، سيتعلم أكثر».

غوركي يعتقد ان المسألة الاساسية في الفن هي الالفة الحقيقية بين الكاتب والقاريء، حيث ان الفن الكبير حسب رأيه: «يظهر هناك حيث تتولد بين القاريء والكاتب ثقة قلبية».

في اطار نشاطات فرع رابطة الكتاب والصحفيين والفنانين الديمقراطيين العراقيين في سوريا قدم الفنان حميد البصري على قاعة المركز الثقافي العربي في السابع من هذا الشهر محاضرة عن المقام العراقي تناول خلالها اصول ونشأة المقام وعلاقته بألوان الغناء الاخرى مثل المواويل والقدود الحلبية وغيرها كما تحدث عن الدور الذي لعبه مطربو المقام العراقي وخاصة القبانجي والغزالي ويوسف عمر على تطوير هذا اللون من الغناء وقدم في سياق المحاضرة نماذج من المقامات العراقية وقد جرت في اعقاب المحاضرة مناقشة حول بعض الجوانب المتعلقة بالمقامات ومدى قدرته على التطور بشكل يساهم في اغناء الاغنية العربية.

غائب طعمة فرمان يقدم لرباعية ابو كاطع

بين غائب طعمة فرمان وأبو كاطع وشائج كثيرة غير الصداقة الشخصية. . كأن مشروعاً مشتركاً أوشك أن يولد تم بتره الموت، بين روائي المدينة العراقية وروائي الريف، لأن الشخصيات عند الكاتبين تعرف بعضها أو تريد ذلك. . ولذلك كان أبو كاطع حريصاً على أن يكون غائب أول من يقرأ مسودات روايته. . هذه المقدمة التي كتبها الروائي غائب طعمة فرمان للطبعة الثانية من رباعية أبو كاطع، ليست رثاء، إنما اعادة قراءة أبوكاطع من خلال رباعيته

شمران الياسري
المنبع والمصب

ربما لم يعرف الأدب العراقي الحديث كاتباً أوقف همه الأدبي والفكري والسياسي على الريف وقضية الفلاحين العراقيين مثلما أوقفه شمران الياسري، بمّا جبل عليه من صراحة وصدق وتفتح خيال، وبقدر ما أتاحت له طاقاته وأدواته الفنية. إنه من أولئك الغيورين الذين ظلوا، في مختلف أطوار حياتهم، منتمين ومخلصين لجذورهم الأولى،

وللبيئة التي شبوا فيها، وتعلموا منها قواعد الاتصال بالناس، والتعرف على الأشياء، واكتشفوا، في غمار تجربتهم الحياتية، العناصر الأصيلة العاملة والمحركة في تلك البيئة، وافرزوا وأدركوا بفطنتهم، ومعرفتهم الادراكية، المحتوى الحقيقي لتلك العناصر، واكتسبوا بذلك القناعة الكافية لأن يقولوا كلمتهم النابتة في كل ما رأوه وعايشوه، وليدافعوا بحماس فوّار عن أولئك الذين وهبوا أنفسهم للدفاع عن قضيتهم بحب ووفاء. لقد عرفوا المنبع واهتدوا الى المصب.

في عام ١٩٦٩. حين عدت إلى العراق، بعد غيبة تسع سنين، تعرفت على «أبي كاطع» في احدى مقاهي شارع السعدون في بغداد، وتمثّلت من اللهجة الريفية الصافية، ورنة الصوت المقدودة قداً، هوية الشخص الذي مدَّ إليَّ يد الصداقة، وظل في ذهني، حتى آخر حياته، على نفس الصورة التي رأيته فيها خلال ذلك اللقاء. كانت له عينان متقدتان، وجبين ناصع، وفم ملموم الشفتين، وكأنه يتهيأ لقبلة اللقاء، ومن بعد ذلك للحوار ومبادلة الحديث، وكشف ما في الصدر. وقد تكاشفنا وأفضنا في الحديث كثيراً في ذلك اللقاء، وبدا وكأن أحدنا يعرف الآخر منذ عهد نوح ـ وهذا التعبير مستلهم من روح أبي كاطع ـ وعندما افترقنا أسرَّ اليَّ أن لديه «محاولة» لكتابة رواية، وسألني عما اذا كان لديَّ الوقت لأقرأ بعض ما كتبه، وأعطيته رأيي الصريح فيما اذا كان من الممكن ان يسمى ذلك رواية أم «خَرُط»!

وفي اللقاء الثاني جاء بدفتر سميك الجلد نُظم كله بسطور متراصفة. وفي بيتي، حين أخذت أقرأ الدفتر، بدأ يتنامى في خيالي المبصر عالم مجسد رحب مغمور بأنفاس الريف وأناسه صنعه قلم ذو دراية ممتازة بما يريد ان يقول، وحب عارم للوسط الذي يصوره، ومعرفة مستفيضة بخبايا الحياة الريفية، وحنايا سكانها الواقعيين إلى حد احساس القارىء بأنفاسهم تدفىء قلبه. لقد كان ذلك حباً وغنى في المعرفة يجعل الكاتب أحياناً ينساق مع حرارة العاطفة، وتدفق الصور والذكريات، فلا يتقيد أحياناً بالأطر الضيقة للحبكة الروائية، والايجاز الدقيق في توظيف الكلمات والتعابير. ولكن هذه البصمات والتعابير نفسها تكتسب ايحاءات رائعة، وأبعاداً رحبة رحابة السماء الريفية، بأنك أمام ريفي يكشف لك عن نفسه، وعما حوله بتلك اللغة المضمخة بنكهة انسان خبر حكايات العفاريت وأشباحهم، وعرف تقلبات الزمان وشقاواته، وأحابيل ذوي المصلحة في نصب المصايد للناس، وسلب اكثر ما يستطيعون من ثمار أيديهم.

إنه إنسان نابت في أرضه، يعرف كل شبر منها، عاليها وسافلها، حلوها ومرها، مذاق ثمارها وملوحة عرق الكدح فيها. يتغنى بشفافية روح، بشجاعة قلب، وحكمة فطرية ومكتسبة بما يمثل الهيكل الانساني لحياة ابن الريف. لقد وظّف شمران نباهته

ورهافة حسه، ولذاعة سخريته، ووضع كل ذلك في يد صديقه وأخيه الفلاح ليتلمس مواطن الضعف والمأساوية في حياته، ويجعل من حياته البسيطة الساذجة في أحيان كثيرة قصصاً يمكن ان تروى، وتجلب التعاطف، وتسجل تاريخاً لم يجرؤ المؤرخون على تسجيله، وتدر العبرة المخلوطة بالابتسامة، إن تلك الغنائية الحزينة، والمناجاة الشجية، والنفس اللاهف، والسخرية الجارحة أحياناً والحنون في بعض الأحيان ومضات قوية تكشف لنا رُقعاً واسعة من أرض الريف الذي كان يخيم عليه ظلام الجهل والنسيان والاهمال المغيظ من قبل أغلبية أدبائنا المنتمين عموماً الى بيئات المدن، والجاهلين لما يجري في الريف العراقي، والمتخوفين من خوض مجاهله، وتلمس جراح سكانه فلم يشهد الأدب العراقي إلا في حالات نادرة أدباً «ريفياً» كذلك الذي عرفه الأدب المصري، مثلاً. أليس من المرارة ان نعرف نحن عن الريف المصري والفرح المصري عن طريق أدبائه اكثر بما لايقاس مما كنا نعرفه قبل رباعية شمران وبعض الروايات الريادية الأخرى عن فلاحنا العراقي وريفنا العراقي مع ان الريف العراقي كان مسرح اول ثورة وطنية في تاريخ العراق الحديث؟

لقد كانت لشمران الياسري الشجاعة ليقدم صوره الريفية بجاذبية لاتقل عن «جاذبية» صور الادباء العراقيين الآخرين عن المدينة وأهلها.

وعن طريق «أبي كاطع» تعرفنا على الفلاح العراقي الشجاع الدؤوب والمواجه لواقعه ومشاكله بالسخرية والدعابة والتهكم، وهذا ما يشكل الشعاع الأول لتبديد هالة الجلال الوهمي لسطوة الشيوخ، وأزلية الاوضاع القائمة، وبداية التحدي والطموح إلى حال احق. وإذا كان شمران قد أعطى لنفسه الحرية لتحرك أوسع من الواقع، ويلجأ إلى المباشرة، ويقول اكثر مما يسمح به «مقتضى الحال»، فلأنه كان موقناً بقرارة نفسه بأن الفلاح العراقي لو كان يملك أدوات الكاتب، وأعطي فصاحة لسانه، لقال نفس ما قاله، ولشعر بنفس أحاسيسه. والدليل على ذلك التجاوب الدائم بين الرواية والمستمع في حكايات الريف التي لا تنتهي، حكايات «أبي كاطع» الساخرة العذبة الحارة، النافذة الى الصميم، المتغلغلة في شقوق الأرض، وطيات اللحم، ومفاصل العظم، وجنبات النفس.

إن سواد الحياة في الريف لايمكن أن يقهر إلا بتلك الومضات الانسانية الدافئة التي تخللت أعمال «أبي كاطع». فليس الريف، حسب تصور شمران الياسري الواعي والعارف ببواطن الامور، جهلاً صرفاً، ولا جدباً وخنوعاً، ولا ظلماً محضاً. بل هو الى جانب ذلك عمل ودأب وصبر وأمل وابتسام بوجه النوائب، ومحاربة غلاظ القلوب بالسخرية والتهكم والتحدي أيضاً.

لقد كان شمران الياسري يملك صفة رائعة متأصلة فيه، وهي التساؤل. إنه مثل فلاحه، يجابهك دائماً في جلساته الودية بالاسئلة التي تجعلك أحياناً في موضع محرج، أو تضعك على «المحك» فإما أن تجاريه بتساؤلاته المشروعة، وإما أن تبلع «لسانك» وتسكت وتجعل المجاملة وسيلة للتراجع أمام الاخطاء والخوف والبلبلة وغموض الهدف، والعجز عن اتخاذ موقف. وهذه الصفة جعلها «أبو كاطع» ملكاً مشاعاً للراغبين في تبنيها باخلاص من أبطال قصصه. وذلك ينبوع لحرارة الصدق فيما خلفه لنا من أدب قصصي وخواطر.

غائب طعمة فرمان



ليالي السيد سلمان الطويلة

كريم عبد

لقد أتعبته المفاجآت، وهي، على كل حال، لا تشبه مفاجآت الآخرين. لقد اعادته إلى بداية الدنيا، دون ان يصل إلى شيء محدد. والذي يبدو في غمرة هذه البلبلة، هو ان ليس من حق الانسان ان يحسم كل شيء دفعة واحدة، فثمة احتمالات لا تخطر على البال إطلاقاً، وببساطة، فان ما حدث قد حدث، ولم يعد بمقدور السيد سلمان ان يصدق أو لا يصدق، فالرجل الذي اعدموه قبل اربعين عاماً وسط العاصمة، قد رآه البارحة، صادفه دون توقع وهو في غاية الدهشة، غير ان الرجل كان هادئاً، هادئاً تماماً كأن شيئاً لم يكن، لقد تفحصه السيد سلمان للحظات كانت مرتبكة وطويلة حقاً، لم يلحظ عليه الحزن أو الندم، لم يكن الرجل فَرِحاً أو خائفاً، كان طبيعياً لحدود غير معقولة، بل انه استغرب لدهشة السيد سلمان الذي بدا غير قادر على مداراة اضطرابه، فكان ان بادره الرجل، حياه وصافحه فاحتضنه السيد سلمان وقبله كما لو كان أخاه، انه هو تماماً كما رآه في الصور، كما كان يتصوره دائماً، قال له كلاماً كثيراً وهو مضطرب، والحقيقة انه لم يعد يتذكر ما قال، في حين فاجأه الرجل وكأنه عرف ما يدور في داخله: (انني اعرفك تماماً، وأعرف بانك تعرفني، ولم يخطر في بالك انك ستراني، اطمئن.. اطمئن.. أنا لم أمت اصلاً، لم يتمكنوا من اعدامي، لقد هربت ليلة الاعدام، ولكنهم خشية الفضيحة اعدموا رجلاً آخر من المحكومين العاديين، لقد هربت ليلة الاعدام بمصادفة غريبة فعلاً، لم أكن اتوقعها

أنا بالذات، انها مصادفة غريبة، لا وقت لوصفها الآن، غير ان الأكثر غرابة هو انني لم استطع الاتصال بأحد طوال السنوات الاربعين الماضية، أعرف كل ما جرى ويجرى، ولكن لا تكترث للأمر كثيراً).

لكن السيد سلمان الذي أخذته البهجة والاضطراب، لم يعد بوسعه ألّا يكترث، قال وهو في غمرة البلبلة: (ولكنني خائف عليك، اذا صادفوك هذه المرة سيطلقون عليك النار وأنت في الشارع، إنهم هكذا يفعلون هذه الأيام، لا يأخذون أحداً إلى السجن، يقتلون الناس في الشوارع، عليك ان تحترس، عليك ان تحترس كثيراً...). فأضاف الرجل الذي بقي هادئاً وطبيعياً، كي يخفف من اضطراب السيد سلمان: لا تهتم كثيراً، أنا حذر جداً... ومعي مسدس، واذا حدث غير ذلك فان كل شيء متوقع...

وقال الرجل أيضاً: يجب ان نفترق الآن، عليّ ان اذهب، سأراك غداً، وربما في يوم آخر، إطمئن، سأراك حتماً، وسنتحدث طويلاً....).

لقد اختفى فجأة، هكذا وترك السيد سلمان وحيداً، لا يعرف ماذا يفعل، تركه مذهولاً يهذي مع نفسه، كان عليّ ألّا أفارقه ابداً، انه يبدو كما هو رغم مرور اربعين عاماً على الحادث، لقد قلت له أشياء كثيرة، والغريب انه يعرف كل شيء، لكنه اختفى فجأة، ودون ان يقول لي متى وكيف سأراه... ولكن ما عساه يفعل هنا، وأين كان متخفياً كل هذه الدهور، كل هذه الجروح والسنين...؟ ومن جاء به إلى هذه المدينة النائية..؟ هل كان مختفياً في البساتين..؟ ترى هل هو قادم من العاصمة أم ذاهب اليها أم ماذا..؟ ماذا يفعل هنا وبمن يريد ان يلتقي..؟

- ٢ -

ليس تحت الجسر المتعالي قليلاً، بل في ظلاله الممتدة غرباً، ثمة قوارب عديدة ترتج قرب الجرف، حيث ربطت إلى أوتاد خشبية، وقتها كان حر الظهيرة يتلاشى، وبرد المساء المتراخي يدب في الهواء ببطء، لكن السيد سلمان الذي جلس مذهولاً قبالة القوارب لم يكن معنياً بالمشهد، لا بالجسر ولا بالسيارات العابرة من ورائه، لم يكن يخطر بباله تأمل النهر وتلك النوارس التي تعلو وتهبط في حركة دائبة، لم يكن معنياً مطلقاً بارتجاج القوارب القريبة أو البعيدة، فقد كان ثمة ضجيج آخر في رأسه، وهناك في خفايا روحه تعلو نوارس أخرى، تعلو وتهبط مرتطمة ببعضها يميناً وشمالاً دون غاية أو دليل،... لقد هم الرجل بالنهوض، ولكنه تراخى واستقر في جلسته، مسّد لحيته البيضاء دون قصد، بدا وكأنه ينتظر ولياً صالحاً يخرج له من المياه، انه لا يستطيع ان يلغي هذا الاحتمال من باله، فهو قد سمع الكثير عن حوادث مشابهة، رغم انه لم ير حادثة بعينها، لكنه سمع الكثير عن أولياء يهبطون فجأة، يخرجون من الانهار أو يأتون من داخل الليل والبساتين، أولياء بثياب

بيضاء وعمائم خضر، يأتون على خيول هادئة ومباغتة، ينقذون الارواح المهددة، وينفضون غبار الدنيا عن وجوه الناس، انه يريد ولياً صالحاً هذه المرة، لا يريد ان يطلب منه ان يغير الدنيا، لا يريد ان يطلب منه شيئاً محدداً، بل يريد ان يعرف منه فقط، ما اذا كان الرجل الذي اعدموه قبل اربعين عاماً لا يزال حياً بالتأكيد، وهل ان ما رآه البارحة كان حقيقة أم ان شيئاً ما قد اختل في رأسه . . ؟

شعر السيد سلمان بالبرد يلامس أكتافه وقدميه العاريتين، استيقظ وكأنه كان نائماً، تطلع إلى الوراء لجهة الشارع، كما لو كان يريد التأكد من حلول المساء وحركة المارة الذين يقلون وتتباطأ ظلالهم في هذه الاوقات. انحنى على أحد الاوتاد، حلّ الحبل ورماه إلى داخل قاربه، تاركاً بقية القوارب ترتج، انها ترتج هكذا دائماً، كما لو ان لا أحد لها. ترتج القوارب في مياه الجرف، ويرتج الزمن المتعثر في روحه منذ سنوات طويلة، انه ارتجاج الوحشة والخراب. انحدر فيه القارب مذهولاً وسط النهر، استيقظ مرة أخرى على صوت آت من قارب قريب، رد السلام واستطرد قليلاً وهو يدفع المجذاف بهدوء، بدت شمس الغروب، حمراء وبعيدة، انتابه ذلك الشعور الخائف بالوحدة، وكانت الشمس تقطر وجعاً على المياه، كأنها طعنة أكيدة ومباغتة، تذكر دماء أخيه التي بقيت تسيل على يديه وثيابه حتى انكسر رأسه إلى الوراء، تذكر الرجال الذين طعنوه وولوا هاربين، «ولكن ماذا عساك ان تفعل» هكذا سأل نفسه وهو يسمع نباح الكلاب القادم من أعماق البساتين، ومن مناطق مختلفة.

لقد ليّل الليل، وكان القارب يقترب من الجرف، أخذ ابنه الصغير الحبل الذي رماه اليه وربطه إلى وتد هناك، لم يسلّم عليهم كما يفعل عادة، بل وضع يديه على كتفي الولدين وساروا وراء امهم.

قالت زوجته: لقد تأخرت كثيراً، هل صادفت أحداً هناك. . ؟

أجابها وهو يترك الولدين يدخلان البيت قبله: لا، ولكن الحاج عطية لم يأت اليوم، قالوا بأنهم سيسلمونا النقود غداً، انها دوخة كما تعرفين، . . .

ولكنه يعرف أكثر منها، بان المبلغ لن يكفي هذه المرة أيضاً، وانه مهما حفر في الأرض فلن يعثر على كنز، انها الخضار فقط، وحتى لو عثر على كنز فعلاً، فانه سرعان ما يجد من يقفون على رأسه، ليحملوه دون كلام إلى هناك، إلى حيث لا يعلم أحد، إلى أين تذهب كل هذه الكنوز والمحاصيل. . ؟

- ٣ -

لقد قتلوا اخاه غيلة، كسروا احدى يديه، وطعنوه في الوجه وفي القلب، طعنوه في الظهر وعلى الساقين، جعلوا دماءه تقطر على روحه وثيابه إلى أبد الآبدين. واستيقظ من

ذهوله هذه المرة على صوت سعف النخيل الذي لا يهدأ في الليل، استغرق قليلاً وهو يسمع انفاس زوجته وولديه، تعلو وتهبط في العتمة الموحشة، وفي المقبرة كان الرجل الذي ينضح منه العرق يحفر في روحه وفي الأرض معاً، ولشدّ ما تمنى ان يحفر قبراً لا قرار له، كي يلقي بنفسه إلى هناك، يسقط مع جسد اخيه المدمّى إلى نهاية لا نهاية لها. «وماذا عساك ان تفعل» قال واستغفر الله، «ماذا عساك ان تفعل، ونباح الكلاب يحكم هذه البساتين منذ الأزل. . ؟»

لقد مرت ليالٍ كثيرة تشبه هذه الليلة، آلاف الليالي تحفر الألم في الحيطان، وفي شقوق جذوع النخيل، وهو يستيقظ ويغفو ويبقى يقظاً في منامه، حتى استيقظ ذات يوم وولداه ينهضان معه كشجرتي صفصاف يانعتين. . . لكن وجوهاً كثيرة تظهر وتختفي، في العتمة وما وراء العتمة، في الليل، في الليالي كلها وهو يستيقظ على شروق الصفصافتين وسط النهر، تنحدران قليلاً وتتوقفان، حيث القمر يشبه كفاً مقطوعة ترتفع لوحدها في السماء، وثمة قطرات دم تنز من جذور الصفصافتين، تسيل مرتبكة في المياه، ويستيقظ السيد سلمان مرعوباً في فراشه، ولكنه سرعان ما يتطلع إلى الشابين النائمين قربه، ينهض بهدوء، يحاول ان يلمسهما ليتأكد من وجودهما، لكنه يستغفر الله بصوت هامس ويعود إلى الفراش.

لم يكن يتوقع كل ما حدث ويحدث، ولكنه لم يعد يعرف اين ذهبت تلك الصباحات المفتوحة على الندى، حيث كان الفجر يبلل البساتين بهدوئه الهادىء، شفافاً وعميقاً سكران بحفيف العصافير والذكريات الآتية مع كل يوم جديد، انها ذكريات السيد سلمان التي لا تذهب إلى الماضي بل تأتي مع الأيام دائماً، مع الفجر الهادىء والمبتل، انها ليست ذكريات، بل دنيا برمتها، دنيا أخرى لا تشبه هذه الدنيا، هو خلق ايامها وسيج بساتينها بالندى والياسمين، رتب مدنها، وجعل شوارعها فسيحة تكفي شعوباً لا نهاية لها، شعوباً قادمة من التاريخ، خارجة من الانهار والبيوت والذكريات، انه مصرّ على مملكته هذه، مملكة واسعة كروحه، حيث الاشجار تتكلم، والاطفال باصابعهم الطرية يمحون عثرات الأرض، وجروحها القديمة، ولا شيء ابداً ينقذ السيد سلمان من أحلامه، انه مفعم بالفجر تماماً، متلاشياً بالندى والبهجات المحتملة، هكذا كان يخرج من البيت عبر البساتين متجهاً صوب النهر، صوب هذا التاريخ المائي الهادىء العميق، الذي يكتب نفسه ويمحوها، ويكتبها ويمحوها كل يوم. . . ولكي يؤكد لنفسه بان لا شيء يمكن ان ينتهي، فهو يباغت النهر كل فجر، ملقياً بجسده إلى المياه، حيث يبتلان ببعضهما، ويبتل معهما الزمن والاعشاب.

* * * *

لكنه لم يكن يتوقع كل ما حدث ويحدث، فقد كان يجب ان يقتلوه هو وليس اخوه، لكنهم توهموا بان أخاه هو المطلوب، لقد أوغلوا به دون ان ينتبهوا لذلك، وليتهم قتلوه هو فقط، انما قتلوه بهذه الطريقة مرتين، مرتين دون ان يعلموا بذلك، دون ان يتركوا له مجالاً لاعلان حقيقة ما حدث، فهو غير قادر على الرد أو المواجهة الآن، فالدنيا عندما تنقلب على رأسها، لن يكون بامكان رجل لوحده ان يعيدها إلى طبيعتها، هكذا اوغلوا به وبأخيه، جعلوه غارقاً متخبطاً بالوحشة والخوف، والشعور باثم لجريمة ارتكبوها هم وذهبوا، هكذا كما يفعلون دائماً، لقد ذهبوا دون ان يتركوا له فرصة أخرى، انها المرارة التي لا يشبهها شيء أبداً.

ثم جاء الرجل الذي اعدموه قبل اربعين عاماً وذهب، تاركاً السيد سلمان وحيداً في وحدته، بين ضجيج القتلة ووحشة المقتولين، حتى اصبح الزمن تحت اقدامه كعجينة اثقلت رأسه ويديه، . . .

ان كل هذا لم يكن متوقعاً، ولكنه اصبح حياة السيد سلمان التي لابد منها، وعليه فلابد ان يرى الرجل مرة أخرى، كي يفهم منه ما الذي يمكن عمله من جديد، فالذي حدث لا يمكن ان يحدث في حلم، لذلك لن يحدث عنه أحد، غير ان الأمر لا يخلو من بلبلة، اذ ان شيئاً كهذا لا يمكن ان تستوعبه اليقظة، واذا كان الأمر خيالاً، فهو لم يصادف خيالاً مشابهاً طوال حياته، لقد فكر بالأمر كثيراً دون جدوى، وهو في الواقع بقي لأيام طويلة يتلمس يديه ليتأكد منهما، ثم يضغط على رأسه ليتأكد من رأسه ويديه معاً، يحدث زوجته بأمور محددة مقصودة، وينتظر صوتها منصتاً اليه بتؤدة، كي يتأكد من صوتها وصوته، وبقي هكذا كل ليلة وكل فجر، قبيل النوم وبعد استيقاظه، يتطلع في المرآة الصغيرة المعلقة على الحائط الطيني، كي يتأكد من وجهه ومن وجود المرآة، . . . ان الرجل مات قبل اربعين عاماً، لقد شنقوه، والعالم كله يعرف ذلك، لقد تحدثوا عن اعدامه في الاذاعة، ولم تخف الجرائد صورة، كل الناس يعرفون ذلك، ولكن كيف للسيد سلمان ان يكذب أو يؤكد ما رأى. . . ؟ ولمن عساه يتحدث في الأمر، ومن يصدق كلاماً كهذا. . ؟ ان الدنيا لا تدور به، ولن يسمح لها ان تدور بهذه الطريقة، صحيح ان الحلم الكبير قد ارتد، وان الجلادين قد حولوا مدارس البلاد إلى معتقلات، ونزّ الدم من جذوع النخيل وحيطان البيوت، انه لا يستطيع ان ينسى شهور الرعب الطويلة، كانت دهوراً، دهوراً مخربة، سيطرت على الناس والليالي والكلام، وهو السيد سلمان الذي يعرف الجميع رصانة روحه وعقله، لقد اخفى داخل قلبه اشواك الدنيا وعثراتها، دون ان يسمح لأحد ان يشعر بذلك، . . . لكنه أخذ يتعب، انه ينام متعباً كل ليلة.

ليس السيد سلمان وحده الذي ناله التعب، لقد تعب الزمن هنا ايضاً، ولم يعد بوسع

الصيف ان يكون أكثر من جرح في ظلال البساتين، الصيف الذي يُنضج التين والخوخ والنبات، حيث تنهمر الانهار في اصوات الرجال ووقع خطاهم، ويهتز الندى في رموش الاولاد، ليجعل الجوريّ والقداح اعشاشاً للعصافير، لكن الصيف لم يعد صيفاً، لقد اصبح جرحاً في ظلال البساتين، في ظلال الايام التي تنسى، ولم تعد الاشجار تتذكر سماء الله الزرقاء وبرك الدم التي تيبست على الاعشاب، لقد تعب الكلام في صوته المبحوح، ولهاثه الذي لا يشبهه لهاث، ثم يأتي الشتاء بالامطار والرعود، حيث لا شيء يمحو آثار السيد سلمان على الاوحال وهو يدوسها باقدامه الحزينة، انها البساتين والرعود والجروح، والخناجر التي صدئت في اصابع الزمن، وبين الشتاء والصيف تمر الظلال، ظلال الرجال الذين يذهبون إلى الموت دائماً، واصوات المياه والنساء والعصافير تتحشرج في ثيابهم، لقد ذهبوا ولم يعودوا، ولم يعرف أحد أين افترستهم كلاب الشيطان ودفنتهم، لكن صمت هذه البساتين لن تنهي اوجاعه في ظلال السيد سلمان وعيونه ولياليه الطويلة.

حين حل الصباح عليه، لم يخرج إلى البساتين كعادته، بقي جالساً في فراشه، يدخن ويتأمل، كيف تبقى الدنيا خرساء ومختلفة إلى هذا الحد..؟ لكن شيئاً ما ظل يتحرك في قرارة نفسه، شيء غامض لابد له ان يتضح، كاد يغفو غير ان اصوات رجال عابرين بمحاذاة البيت قد ايقظته، أربعة أو خمسة رجال كانوا يتحدثون باصوات عالية ولكن غير مفهومة، بدا انهم يسيرون بسرعة ملحوظة، ودّ ان يخرج ليحدثهم بكل ما جرى ويجري، بكل ما جرى له دون ان يعلم أحد بذلك، ودّ ان يسألهم ما اذا اختلت روحه حقاً، أم ان ما حدث ويحدث في هذه البلاد شيء من قبيل الوهم..؟ من قبيل الكابوس والجنون.

نهض، توثب مفاجىء، فرد عباءته ونفضها، ثم وضعها على كتفيه وخرج، خرج باتجاه البستان، هكذا حسم الأمر، ان يذهب إلى العاصمة، يفتش في السجون التي يعرفها عن صاحبه حامد الامين، الذي لم يكن باستطاعته مقابلته طوال السنوات الماضية، سيراه ويطمئن عليه اولاً، ثم سيحدثه عما جرى له في هذه الليالي والمصادفات الشاقة، عما اذا كان ذلك قابلاً للتصديق أم لا..؟

انه واثق بان حامد الامين يعرف خفايا الأمور أكثر منه بكثير، نادى على زوجته وهي بين ولديها في آخر البستان، كان يتطلع اليها وهي تعبر الساقية، ثم تقفز بين حين وآخر، غالب غصة في روحه واتجه نحوها، تذكر وجه حامد الامين صاحبه الذي يشبه الرمح، وفكر ان احداً لن يشتبه به بعد كل هذه السنوات، اذا ما ذهب إلى هناك، فقد جاء القتلة وعاثوا في الأرض خراباً، انتهكوا الزمن والناس والبيوت، وكان عليهم ان ينهاروا، وجاء بعدهم من هو أسوأ منهم، فقد تحول الصمت إلى قانون، والركود إلى رفاهية سوداء، تغيرت

اناشيد المنشدين في الاذاعة دون ان تتغير اصواتهم المبحوحة، وهو يعرف ذلك جيداً ويتغافل عنه، وهو طوال ذلك يضرب الأرض والأيام ويتطلع بعيداً بين النخيل، ينتظر أنْ تتضح الالتباسات، وتصبح الاحلام حقيقة، وان تكف الحقيقة من ان تبقى جرحاً في روحه ويديه، وعندما اقتربت زوجته التفت إلى الخلف، حاول ان يخفي ارتباكه لكنه وجدها امامه، حاول ان يلتفت شمالاً ولكنها امسكت يده، . . .

قالت: ماذا بك. . ؟ هل. . .

ـ لا شيء.

ـ ولكن. .

ـ أنا ذاهب إلى العاصمة.

ـ إلى العاصمة. . ؟

ـ نعم.

ـ ولكن ماذا هناك. . ؟

ـ ليس من المعقول ان أبقى كل هذه السنوات دون ان أذهب لزيارة حامد الامين، ليس من المعقول ان ابقى هكذا، وأنا بالكاد اتسقط اخباره دون ان اعرف شيئاً عن مصيره.

ردت المرأة بوجل واستغراب: استغفر الله، انت تعرف بانك مهدد ومطلوب، وان الصدف وحدها قد انقذتك، فهل من المعقول ان تذهب بنفسك إلى حيث لا تدري ما الذي سيحدث. . ؟

أجابها وهو يوشك على التحرك: اطمئني، لن يحدث شيء، لن يحدث اسوأ مما حدث، ثم ان سنوات كثيرة قد مرت، وانا لم يعد بوسعي تحمل كل هذا الاختناق هنا.

ـ ٥ ـ

عندما دخل العاصمة، كان السيد سلمان بكامل هواجسه، وهو يعرف تماماً بأن هذه المدينة القديمة الواسعة والمبعثرة ليست سوى مقبرة كبيرة، مقبرة أصرّ الناس ان يبقوا فيها، هكذا دون ان يبدو عليهم انهم مكترثون بما حدث ويحدث، ذهب مباشرة إلى أحد السجون، والذي ظن ان حامد الامين يقبع فيه، سأل الشرطي المدلهم الذي يحرس باب البناية، فأجابه باقتضاب ان عليه ان ينتظر قليلاً حتى تحين ساعة المقابلة، تلفت إلى الآخرين الواقفين والجالسين حوله وانتظر، انتظر ما يقارب الساعة، دخل السجن قبلهم وخرج معهم دون جدوى، لم ير حامد الامين، ولم يُفهمه الضابط ما اذا كان صاحبه قد بقي هنا لفترة معينة ونقل إلى سجن آخر، أم انه لم يمر أصلاً بهذا المكان.

لم يندم السيد سلمان لضياع يوم الجمعة، وهو يعلم بان ساعات المقابلة انتهت، ولم يعد بوسعه الذهاب إلى السجن الآخر حيث يقيم المحكومون بمدد طويلة، وليس ثمة

ما يجعله يشعر بالخسارة أو التردد في البقاء إلى الجمعة القادمة، وعلى كل حال فقد كان ملهوفاً للتجول في الشوارع والاحياء، وهو يتطلع خلسة في وجوه العابرين، يتأملها بهدوء وحيطة، وذهب خلال ذلك مراراً إلى تلك الأماكن التي رآها في مرات قليلة زار فيها العاصمة، كانت أوقاتاً في الروح والايام، ذكريات تأتي من ماضيه الذي لا يذهب، محتشدة بالاحداث والتوقعات، غير ان كل هذا ـ على مضاضته ـ لم يكن مهماً بالنسبة له، المهم كان يوم الثلاثاء، اذ استطاع بعد جهد واسئلة ومواربات، ان يتعرف على الساحة التي اعدم فيها الرجل قبل اربعين عاماً، لقد شدته هواجس الدنيا واحزانها إلى البعيد، وهو لا يرى في هذه الساحة شيئاً طارئاً، الناس كما هم، والشوارع والمحلات، وليس ثمة من يسأل عن أحد، أو يكترث لشيء.

شعر للحظات بوحشة خاوية، وكأنه غريب في هذه البلاد الغريبة، ولكنه لم يكترث، حاول ألّا يكترث، وتأمل الدنيا داخل روحه، تأمل المشنقة، ثلاث مشانق، ثلاثين مشنقة، ثلاثمائة مشنقة، آلاف المشانق، وسقط مغشياً عليه...

لقد ايقظه برد الليل، برد الايام والروح الموشكة على النوم، هكذا ظل يخفي أوجاعه صامتاً طوال الايام اللاحقة.

لم يكن بحاجة لأحد أبداً، فقد أحس بانه غير قادر على التفاهم مع اوجاعه هذه المرة،.. استقبل صباح الجمعة بهدوء، وحين وصل إلى السجن الآخر لم ينتظر مع المنتظرين، بل إقتحم غرفة الضابط مباشرة، وبكل الوسائل استطاع ان يعرف بان خيبته لا حدود لها، وان صاحبه قد نقل إلى أحد السجون البعيدة، هناك في أطراف الصحراء، مع الذين قررت الدولة ان تجعلهم وحيدين إلى الأبد.

* * * *

عندما كان السيد سلمان يهم بالنزول من السيارة، وهو في غاية التعب والارهاق، كان يعرف بان الوحشة وحدها بانتظاره، وان البساتين لم تعد تطاق، لأنها فارغة، ولأن أحداً لم يعد يهزه شيء، حتى الموت لم يعد له ذلك الوقع المتعارف عليه، كان عاجزاً تماماً عن فهم شيء محدد، لكن في هذا المكان تماماً، في غمرة هذا الكراج العجيب، ارتبكت الدنيا كلها في عينيه، ارتبكت وأشرقت وانطفأت وارتبكت، وأشرقت، وأشرقت ولكنه ظل مذهولاً، تحرك وتوقف، وتحرك وظل واقفاً في حركته، لقد رأى الرجل مرة أخرى، لاحظه ماراً من أمامه، ولكنه لم يعد يدري، أيصدّق.. أم لا يصدق..؟ باغته الفرح والقلق دفعة واحدة، باغته الرجل وازدحام الناس وتعب روحه المتعبة، صاح وتلفت، ولكن الرجل اختفى، اختفى وظهر واختفى، وهو يركض ويتعثر، ويصيح حتى سقط على وجهه وسط الشارع مغمياً عليه.

وفي البيت لم يكن منتبهاً، قال له أحد ابنائه: ان الرجل مات قبل اربعين عاماً، وحتى لو ظهر مرة أخرى، فانه لن يستطيع ان يفعل ما تتوقعه...

غير ان السيد سلمان لم يكن يسمع شيئاً مما يقال، كان يشعر بان الزمن جرح طويل يمتد في ظلال الناس، وهي تبدأ وتنتهي، وتبدأ ولا تنتهي، وليس ثمة من يعوض السيد سلمان خسارته الفادحة. لقد ارهقه الارهاق، وهو وحيد لم يعد يفهم شيئاً.

* * * *

كان البستان خالياً في روحه الخالية، الدنيا برمتها خالية، الغيوم تضطرب على بعضها وتتبدد، عصافير وأشجار وهمهمات جرح صغير يبدو ويختفي بين جذوع النخيل، انها مقبرة واسعة ومبعثرة، والسيد سلمان مبعثر ووحيد في تابوته، تكاد ذكرياته تسمع في طقطقة اخشاب التابوت، حيث يحاول حشد من الناس رفعه عن الأرض، لكن التابوت ثقيل، اثقل مما يتوقعون، كأن الدنيا كلها قد وضعت فيه.

دمشق

آب ١٩٨٨ - كانون الاول ١٩٨٩

صهيل الأصابع

عزيز السماوي

خُوفي مُهْرَه . .

اتوجْني

بجفوفك . . صهيل

يهيم الطولْ ، گمريهْ ، أغاني أو ليل

الويل من السفر ياروحي كلّ الويل

ظَلْمَهْ وقميصَكْ صبح

كلّ خطوهْ غربه او ذبح

ياخذْ كلْ جنوني الليل

تهيم أسراري . .

تاخذني

تردّ تهيم

تاخذني . . رياح من الغضب والخيل

يلمص بصابيعي الشعر صوت أو مواويل

طولكْ . .

ياخذ عيوني

ليالي اتوجّ ليالي

من الفرح . . گمره أو صهيل
هيبةْ الخيل من تِضوي بدربْ أظلمْ طويل
لون الأصابع . . يوجّ . . وردةْ خجل بالليل
تاخذْ حنيني . . هناك
گمرَةْ الحنين . . هناك
انت هناك
ظلمةْ . . ابلا وطن . . بس گلي وين الگاك
أَهِدّ اجفوني . . بالغربةْ . . حمامةْ من الفرح . . لهناك
نجمةْ . . ابلا صبحْ . . ذكراك
وين ألِگاك . . ؟
وينْ انتَ . . وين ألگاك
نِنْزلْ بالدمع . . ما أدري وين ألگاك
أمشي . اعلَةْ الجَمُرْ . . بَلْچنْ تِجي . . وألگاك

وين ألگاك

وحده النزيفْ يصيح
ما مش، وطن للريح .
كلها اتطيح
وچفوف الرفض ما تطيح
ياخذ قميصي غَفُلْ . . مجنون طبع الريح
مشعل يُويجّ بالنبض . . عيب ابْهَواك ايطيح
انت الويل
انت ريح . . اليشعل الظلمه عواصف خيل
انت انهير مذعور النَبعْ والسيل
انت التاخذ اچفوفي أغاني . . اوليل
تخطف على الشفه شموس من الفرح والهيل
انت سر اليشعل الليل الطويل

ليلك . .
جَمُرْ يشعل جَمُرْ
والسهر منفى الأصيل
انت ذاك السيفْ من يُلمضْ صهيل
تخطف اطيوف الفرح
كَذلَهْ
اوعليّه . . اتميل
ياخذ اعيوني الفرح . .
انت الفرح . .
شوف او دليل
هذا انتَ . . ذاك الضُوَهْ
هذا انتَ . . لعيوني دُوَهْ
هذا انت . .
مِنْ ياصَبُحْ . .
شهكَن جْروحي سِوُهْ
لو بيدي جبت العُمُرْ مشعل بيديك وضوه
هذا انت . . وين اتريد . . ؟
وج طولي . . كله أو دُوَهْ
هذا انت المشيت . .
أوهذا آنه العلى اجفوفك عمر كل العمر ميّتْ بيجيت
اشتعلت ابروحي الليالي . .
مِتتْ جَمْرَهْ . .
أو ما طفيت .
اتسودن عليك وأشتعل ملكَه او غياب
ما تدري الضمير اكتاب
او ما تدري الزمن . .

زاد التجافي
اوترسْ كاس المودّةْ اتراب
عليك الروح مجنونه تريد السيف لجروحي دُوِهْ اوعطّاب
اعبدك.. كَلّي.. تاخذني..
ليالي اتوج
على اچفوفكْ.. صهيل
تطيح اعيوني.. بالگمره..
نزيف
اعلَهْ
القميص
ايسيل
كَلّي خِذْني بين ايديك وامسح جرُوح القتيل
كِلْما يِفزّ النبض
يخطفْ.. بالجفن
مذعور.. نجم اسهيل
أهيمن ريح.. مجنونه..
توج ليل السفر
گمره اومواويل
تطيح احلامي بدموعي ليالي من النَزفْ والخيل
هيبه الخيل من تِضوي بدرب اظلمْ.. طويل
تهتز معاني وكتبْ
تميل من الحزن
توگف.. ترد.. اتميل
انت الليل
انت الخوف..
يايُمّهْ شمْس الصبح لون الخجل بيجفوف

هذا الحنين الياخذْ عيوني دَمعْ وطيوف
انت الشَمعْ . . بالنهر الحزين . . اتطوف
انت الشوف
لو يطفي النذل بعيوني كل الشوف
أوف . .
خوفي دوّخني عليك
خوفي . . لا منّك . . عليك
خوفي نتمشى العصر
خوفي كاغدْ عالجمر
خوفي . . وين . . ايعيد، بعيونك سِكَرْ
خوفي طول اليشمر الگذله مهر
خوفي ياخذني الفرَحْ هالة حزنْ ما بين ايديك
خوفي هذا الشيب من يُلمُضْ نهار ازرك بديك
خوفي كلّ الناس تِنْشِدْني عليك
خوفي شاعرْ بين ايديك
اوتصلي الروح
بچفوفك
حنين من الحِزنْ والهمّ
أصفِنْ . . واريد النوبْ اتعلمْ
كلّ الجنون . . يدور بعيوني ولا أفهم
ياوَرْدةَ الهمْ . .
ياجمر الليالي وريحة الدمْ . .
تتفتحْ . . «غضب»
تضوّي
وتِردْ تلتم :
ما شايفْ . . گمر مطفي . .

ولا . . شايف . . نهر منفي
لا . . ولا . .
شايف . . وطن ابطوله النزف يمشي
وين اتريد . . ؟
تاخذني . . لوينْ اتريد . . ؟
گمرهْ الكوفهْ بعيونكْ نشيد
تصلي البصرهْ للماشي ابدَربْ أظلمْ شهيد
حزين الثلج عـالصافنْ بطولَهْ وحيد
تدوّي المشاعل بالنبض ما أدري وين اتريد
تهيم أحلامي . . گمريهْ . .
حنين من الفَرَحْ . .
تضوي وتزيد . .
انت بجفوني نشيد
يهيم الطول . . ياخذ كل حنيني . . ابعيد
هيبه المُهُرْ يشعل الريح بصدر عالي اللهب ترديد
صهيل ايفز بصابيعي جنون اعلَهْ الصدر ترديد
عنيد الريح . . !
ومهير السفر كلش عنيد
«حرير» . . اجفوفي تتنفس واگول ابعيد
وميض الفرح بعيونك . . عراقِ اجديد
عرگت إصابيعي . .
اوبچت كل الأغاني
آنه لو هو الشهيد
صوتي يلمض . . بالشعر . . خيل اونشيد
تفرح اِهدوم اليتامى وتضحك ادموع «العبيد»
كلّ البرِدْ ما يطفي گلبي ـ لو راد المشي ـ يعرف يريد

لا روحي لَمْها البَردْ.
لا.. ولا..
كبر الثَلجْ يطفي الوريد
اريد.: اوما اريد.
ياخذ كلْ حنيني الليل.
لا بيّ اجيس الصبح
لا.. ولا..
تخطف شمس بالليل
كلما يفز الجرح.. ميّتْ واكَولن حيل
الويلْ كل الويل:
لو ذيب الغَدِرْ يوگف بالدرب رايهْ اودليل
لو أبعدْ حِلِمْ يمشي برجلْ وِحْدَهْ اويميل
أو لو هذا الوطنِ يعثرْ بصوته الصهيل
والويل كل الويل..
توج اجفوفي بالظلمه..
او تصيح..
الويل
الويل كل الويل..
ما شفت كل العمر قاتلِ يصلّي اعله القتيل
خوفي وَرْد المستحيل..!

ديسمبر/ ١٩٨٩
سكيكده ـ الجَزائر



احنه..
محنتنه عشگنه

جاسم ولائي

ياعشك جبّار
جبّار وحزين . . وعشك محنه
احنه محنتنه عشگنه

لو نحبّ هالدنيا
تتفتح مثل وردة وتحبنه
والمواني والمدن
وبحور هالدنيا الچبيرة
تنشر جناح الفرح النه وتضمنه
وكبل ما نفرح
يطك بينا الحزن انهار
ويبچّي فرحنه
وتصغر وتصغر مدن حبنه
وتضيك وما تلمنه
ليش دون البشر ـ بس احنا

الذي يحبنه انذبحنه؟
لو تحبّ الناس
هاي الدنيا تصبح ياسمين
والشمس تنثر ظفايرها عصافير وحنين
ولو نحبّ أحنه تصير الدنيا خوف
والفرح يصبح حزين
وتبخل الدنيا على حبنه «الطفل»
حتى برصيف
ليش ما نعرف نحبّ إلا بنزيف

لو نحبّ حبنه دُوار
تدور هاي الدنيا بينا
چم بحر واحنه نلم حبنه جزينه
شگد حزن واشواك ضيعنّه ولگينه
شكثر عدّينا نجم
وشگد نهارات وليالي وانتظار؟
اچم قطار
شال من هذا العمر عمره الحلو؟
واچم مطار
بچه مرات وضحك
خو يدري بينه
شكثر ودّعنه حبيبات واجينه
وليش هذا الخوف
مسّ الروح
دوّخها
ابد ما تدري
من فيض الحزن فرحانه
لو من فيض فرحتها
حزينه؟

١٩٩٠/٢/١٥

توحدات في جبهة العشق

خالد أبو فارس[1]

١ ـ سيدة الأقمار والبحر:

كانبثاق الينبوع وجه تدفق بين أصابع الكفِّ، كان الوجه مجد العراق المحتمي بأرق الحروف وشهوة الغمغمات الباهتة.. على صليب الغواية ارتمى الوجه الأنثوي انتشاءً، وانحناءً في درب الغناء اندلع النزيف مختبئاً في تفاصيل الطين المبلل بنداءات العشق.. وكان الجرح يكبر كلما حفر الماء كينونتنا وأشياءنا الأخرى.. كلما انكشف الضوء في حضن الربيع المتفرد، وغنّى للوقت المسافر حكاية الأنثى التي اختفتْ في الشفق البحري والفضاء يلملم ملامح الحناء فوق كفِّها.. وحده الورد شاهد أمام المجد المسفوح لطفولتها الرائعة، وحده الورد لن يغفر للصليب تمزق الجسد المقدس.. انهيار الوعد وانكسار الصهيل في موسم التوحد الصوفي..

* المقطعان (سيدة الأقمار)، و (انسام) هما من قصيدة طويلة ذات مقاطع أربعة بعنوان (توحدات في جبهة العشق) للشاعر المغربي خالد ابو فارس.

● لليل صهيل الذاكرة
قمرٌ ونافذة في البعيد
وطفلة تجمِّع ترتيلة الغيم
تخلع الغابة قميص البشارة
وسحر النشيد ،
لتنشر الأرض شراع الرحيل
نحو التفاصيل الهاربة من أقاليم الأقحوان والماء
حنين وجه تلاشى عند نهاية الفضاء
وظل الرماد منتظراً طفلة بامتداد الصباح
لتشعل سُهْد المرايا
● تخرج أنسام من هتاف السواحل
ومن حقيبة الألغام
لتحفر في جسد الغيم حلماً محملاً بالمطر المبارك
تقاوم سقوط الأشياء الغامقة على الرمال
فتتراءى شرايينها المغتربةْ
تذكرني بمقتل بهجتي الأولى
● طفلة يغتصبها الدفتر المدرسي الأحمر
وأناشيد تمنح الماء لون الإبتهال
وارتعاشة أغصان خجلى
● طفلةٌ هي أم عصفورة الحلمِ المسافر
إذ يلبس صمت الذهول
وموسيقى الشطآن الحزينة
لها طفولة الوردة
لها عرس نجمة أكاد ألامسها
فتأتي المواكب على عزف النخيل
تغازل المساء الخرافي

وتعلن عرس الصهيل

● على الشاطىء،

ما تزال تلاعب نوارس الأحلام الظامئة

تدفىء يدينِ باردتين

وتشعلُ رائحة البحر والبارود والحناء والنعناع

لتدخل الزمن الاشتراكي بين أقواس الأقحوان

هي لا تخافُ ان تفاجئها الرياح

تخافُ مقبرة الرؤيا والأضواء

اغتيال شجيرات الزيتون وايقاعات الصباح

● تغيم دهشة المساء

إذ تحلم بدندنة نساء حاصدات

يبرعمن التعب عند انعكاسات الأصيل

فتدحرج أقمار الحزن على وجه الماء

وتنداح لهن الأغنيات البدوية الجريحة

● تغني أنسام للشاطىء.. للنوارس وللبحر

وتغني للأنصار إذ تجالسهم وتكشكل أنغام الرَّدى

والمدى منارة مهاجر يفتح شهوة الصلصال

ليشرئب الطحلب مع المدِّ الأزلي

ابتهالات الموج الذي يجتاح زورق الخنوع

رنّحته العواصف، فانحنى للزرقة

وضاع في الزرقة

ليلفظه البحر بقايا أخشابٍ وأجسادٍ مهترئةً

● وأنا دخلت الزمن الاشتراكي في أغنيات عشق البحر

في خمارة الصيادين

وفي تعب العمال المتألق

فتمرَّيْ لطراوة عشب الميلاد

لاشتعال الايقاع الحزين
ولانبجاس الجداول في سورة الملكوت

● لليل صهيل الذاكرةْ
قمرٌ ونافذة في البعيد
.. واقفاً... ومحطة القوافل تنأى
أكاشف الفرديش منتشياً بأكاليل الرعود
فتتحرك حيطان البيوت البيضاء نحوي
تحاصرني في زهو الشفق
وفي زهو الألق
تسيج عرس الخلاخيل
ترنيمة الوقت
حفيف الشجر
وقرابين البحر
وحدهُمْ عمَّدوكِ بالعشق الوثني
ما انطفأت فيكِ حشرجة الطين
و.. أنسام آتيةٌ على صهوات الريح
آتية تجتاح عري الكروم
فتركض الأكواخ العتيقة نحو المرسى القديم
يتناهى حداد قرية بعيدة
تتقدم في ارتباك طفلة فقدت نعليها
ترقش خطوات جامحة على الرمال
وتختفي...
تختفي خلف نبضات السؤال
وتتْركَني غارقاً في معطفي

٢ ـ أنسام :

أطفأت ماء الرغبات في صمت
سرحت شعرها كمساء طفولي
ينحني نحو دفء دفاتر الشوق القديمة
وحدها في سواحل الإغتراب
تمسك شهقة الأقحوان والموت
وتعانق مواعيد التراب
وحدها في سواحل الاغتراب
تزرع إشراقة النداء وزهرة الأنبياء
تقاوم المسافة بين الجسد والطلقات
تحتل حنين المواسم المشتغلة في الطرقات
وتركض في فضاء انكسارات عميقة
تدخل تفاصيل أسطورة تفجر نشوة الماء
تزرع إشراقة النداء وزهرة الأنبياء
وتمضي كنهر يسابق استدارات الضفاف
تسير باصرار نحو ميعاد الحقيقة وزغاريد الزَّفاف
فهل كانت طفلة أم وردة تلك التي اسندت رأسها للحجر البارد وصدأ الحديد؟ هل كانت تعرف أنها ستولد في ينابيع الوقت المبتلى بالإبتهالْ؟ هل كان ينبغي أن تحرس في عرى الليل شباك الأناشيد . . همس الضياء . . رعشة السقوط . . نزيف أحلام وأيام القتال؟ هل كانت تسمع نبض طفولتها في جرحى كلما أرخى خطواته في الهواء؟ هل كانت ذكرى مجردة أم معاني عميقة الجذور تلك التي تلبسها مع اعترافات المساءْ . . حلم الرحيل . . اشتباك الصهيل وأجراس النجوى

. . . .

. . . .

سلاماً لطفلة من الأنصار تنام جنب أكياس الرمل صامتة

سلاماً لسيدة الكلمات والأنهار

سلاماً لأسرارها البهية . . لذكريات قديمة . .

لعمر الصدى ولترنيمة الجيتار

سلاماً لصفصافة الأغنيات النشوى

سلاماً لسيدة العين والسهم والماء

سلاماً لمدينة تخرج من دائرة الضباب

كاتمة أسرارها الشتوية في قرارة الظلمة والأحزان

والمآتِم الصامتة

تحتمي بالموت من الموت ولا تقف على صلبان الغيابْ

لربيع غوايات العشق الطليقة

لموكب الانتفاضات المضيئة

لبطولات المستحيل . . لاشتعال الرؤيا . .

لانتشاء الحقيقة . . ولاندفاعات الانصار

سلاماً . .

سلاماً . .



«كافيا وادي الدموع»

كافيا . . كافيا انتظرتك طويلاً . أريد ان أرسم فوق صخورك رمزاً لضحاياك . ان تمتلىء عيوني من فضائك وعمقك .

كافيا تحاصره السفوح الوعرة . تزدحم على جانبيه الرؤوس الصخرية، التي تطل على بساط من الحصى الأملس . نباتاته تسللت بين الصخور، وأنا أراقبه مَن بعيد . منذ سنوات طالت أيامها . اشتهيت ان أزوره، أقتطع من جسده صورة لقلبي . قربانه ذبيحة فوق ثلوج قممه .

لن أنسى الدرب المتعرج في الصعود والنزول، بين الصخور وفوقها، الذي أوصلني إلى تلك السفوح .

كافيا ملتقى العشاق الهاربين من الظلام، رأوا فيه ملجأهم، لأنهم دفنوا في تراب قراهم المجروفة حبهم، فحملوا آلامهم وخبزهم وأحشاءهم فوق ظهور بغالهم . حزموا أطفالهم كجرار متدّلية، كدّسوا أمتعتهم حتى أثقلوا بها حيواناتهم . جرّوا خلفهم دموعهم . داسوا على بعضها بأحذيتهم المهترئة . دروب يزحف فوقها آلاف الهاربين . عيون جاحظة في السماء تفتش بين الغيوم عن طائرات محملة بالسموم والقنابل الحارقة . أسراب من الجحافل تجرف أمامها الجبال والوديان .

عاد المغول يفترشون السهول، يفتشون بين القرى الخاوية عن آثار الأقدام،

وبصمات الأطفال. سلخوا جلود وجوههم . انتزعوا عن ثغورهم الابتسامات الرطبة . هدموا المدارس كي يقتلعوا آثار الطفولة، وبقيت كتابات ورموز مرسومة في زوايا مجهولة. الأشواك والأحجار. لملموا بقايا أغطية وصناديق فارغة. ذبحوا زغاليل الحمام وخنقوا الديكة خوفاً من صياحها، لكنها بقيت تصيح وتصيح لأهلها، ترفع أعناقها وتشرئب أعرافها، فودعهم من فوق سطوح المنازل.

أصبح كافيا في مساء ذلك اليوم دافئاً بضيوفه. كريماً. قدّم كل ما يمكن تقديمه للضيوف من حفاوة. رحبَّ بالقادمين. جمع دموع الأطفال في صحون صخرية. قدّم لهم الهدايا. . واستطالت موائده على جانبي الوادي العميق. . .

بقيت السفوح تراقب الأصوات القادمة من بعيد، وكافيا يدفن صداها في فجواته المتداخلة في بطون صخوره.

لم أستطع تهدئة الحائرين والملذوعين والخائفين، لأن كلامي زبد فارغ في تلك اللحظات المؤلمة. لكنني استقبلت في قلبي جميع الأحزان، وجمعت في رئتيَّ الأنفاس التعبة، الخائفة من انبلاج الصباح، حيث تكشف الأشعة الحملَ الكبير المتّربع على أطراف كافيا، وتكفي إذن بعض القذائف المحمومة لتحول الكتل البشرية إلى أكوام من اللحم المطحون والعظام المسحوقة، ويصبح بعدها كافيا مدفناً جماعياً. فيضحك الليل من شدة دماسته، ويبقى النهار وحيداً حائراً لا يستطيع ان يغسل موتاه.

لقد جعلني الصبر والخجل ان أدفن عينيَّ في كفيّ، وأبحث عن وسيلة للمقاومة. وعندما كشفت باطن يديَّ كانت الدموع. وقطرات من الدماء تشكل بقعاً ومجاري صغيرة، رافقت عروق يديَّ المزّرقة حتى غابت في جسمي. تابعت الصبَر بجَلَدٍ. حدّقت في السفوح المترامية التي تعانق السماء من الجانب الآخر. تفقدّت آخر النجوم الهاربة، الملتمعة إلى غيمة رافقت امتداد كافيا حتى اصطدمت بقمة جبل «كاره». وعلى مسافة بعيدة كنت أرى دخاناً يتصاعد فوق فضاءات القرى المرصوفة على سفوح «بكرمان». تيقّنت أخيراً، من ان جيش المغول يحصد الأرض بنيرانه متجهاً إلى آخر المعاقل.

كافيا يتمسك بضيوفه، يحترم العادات والتقاليد. قدّم كل ما يستطيع من حماية وطعام وغطاء. ارتفعت حرارته من آلاف الأنفاس اللاهثة، حتى بدأ البخار يتسلق السفوح، محاولاً الهروب، مطروداً بقرفٍ ولوعة نحو الأعلى. وازددت خوفاً ان يتحول البخار مع شروق الشمس إلى إشارات لاقتحام مفاجىء.

صحتُ بالناس الكبار منهم والصغار، وبالبغال الواهنة، المثقلة بأحمالها. أوقفوا التنفس لأن البخار المتصاعد من أفواهكم كدخان الحطب الرطب يقول للعدو: إننا هنا في كافيا. تعالوا اذبحونا. .

لقد استجاب الجميع عدا عجوز وبغل هرم بقيا يتمتمان بيأس، لأنهما كما قالت امرأة أخرى: ان هذه العجوز تبحث عن حفيدها الذي ضيّعته عندما ركض باتجاه آخر يفتش عن الحصان التائه.

لا يريد كافيا ان يحترق وهو يكرّم ضيوفه:

بدأت الأصوات تدوي مع غروب الشمس، هيّا إلى السفوح الأخرى.

سارت الجموع بهمم واهنة. هذا يحمل كيساً، وتلك تحمل صرة بيد وتقود طفلاً باليد الأخرى. وذاك يحمل طفلين على كتفيه. وهذه ابنة تفتش عن والديها، وامرأة تولول، وصِبْيَةٌ يدفعـون بعضهم، وبغـل يلهث غارزاً حوافره في تربة قاسية، ويرافق الغبار الصاعدين يمرّر أصابعه بين النباتات والرقع الصخرية.

وكافيا من عمقه السحيق يودّع ضيوفه، ينشدهم أغنيات «كاوا» يقول لهم: اصعدوا. لا تخافوا من الصعود.. ثم انهضوا...

باسم عبدو
دمشق
٢٠/ ١٠/ ١٩٨٩

«أحمد خاني وملحمة مموزين»

أحمد خاني اصله من هكاري من عشيرة خاني اسم ابيه الياس. انتقل من هكاري بعدها إلى بازيدي. ولم يعرف تاريخ ميلاده لكنه توفي عام ١٠٦٣ هـ. وقد بني باسمه مسجدٌ في بازيدي فدفن في طرف ذلك المسجد.

ألف باللغـة الكردية مموزين، وكتاب العشاق والمعشوقين، وكتاباً لغوياً بالكردية والعربية اسماه (نوبهار) ونظم غزليات كثيرة واشعاراً وملاحم باللغة الكردية وكذلك غزليات واشعاراً وادبيات كثيرة باللغة العربية والفارسية والتركية وكان قوياً وماهراً وصاحب عرفان في الفنون وكان مشهوراً ومتفوقاً على جميع شعراء كردستان.

من أشهر ملاحمه الشعرية (مموزين) حيث نالت اهتماماً كبيراً من قبل المستشرقين في بلدان متعددة ولاسيما الاتحاد السوفييتي وقد نقلت الملحمة إلى الروسية من قبل المستشرقة رودنيكو عام ١٩٦٢ كما صاغ منها الشاعر بيره ميرد قصة حديثة.

ولقد أخذ الكسندر جابا عدداً من مخطوطات ملحمة مموزين ونشر مضمونها بالفرنسية. أيضاً نشرت بشكل متفرق بمجلة كردستان سنة ١٨٩٨. وفي عام ١٩٤٧ نشرها حمزة آغا مع مقدمة له في مدينة حلب. وفي عام ١٩٥٣ قام الأديب والمؤرخ الكردي كيوي موكرياني بنشرها باللغة السورانية مع مقدمة له في مدينة اربيل وخلال السنوات ١٩٣٢ - ١٩٤٥ نشرت مموزين بشكل متفرق في مجلة النداء (هاوار) بالأحرف اللاتينية.

وقد ترجمت هذه الملحمة إلى العربية من قبل الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي تحت عنوان: مموزين «قصة حب نَبتَ في الأرض وأينع في السماء» ويقول في مقدمتها ان الذي دعا لاعادة طبعها هو تعرضها للسرقة من قبل كاتب عربي يكتب للأذاعات وقد عرضها في الاذاعة الاردنية باسم آخر وتعديلات طفيفة والكاتب هو نزار مؤيد العظم.

إن ملحمة مموزين تروي قصة غرام الأميرة زين شقيقة حاكم بوتان «بوتان جزيرة تركية على نهر دجلة». وممو هو حبيب زين وأحد خدم الأمير (شقيقها). يتدخل مستشار الأمير بكرعوان ويفضح أمر حبهما للأمير الذي يقوم بقتل حبهما ورمي ممو في السجن حتى الموت حرصاً على التقاليد الاجتماعية وما زال حتى يومنا هذا يرد اسم بكرعوان رمزاً للخيانة. أما تاج الدين فهو شقيق زين وصديق ممو الحميم فيقوم بدور أكثر وعياً ويقتل بكرعوان جزاء نميمته وعمله على سجن ممو حتى الموت.

الملحمة تصف بخيال شعري خصب وأوهام وأحلام رومانسية، وتتصف بتأثيرها على الناس بدليل تناقلها بين الاكراد كحكايات ليلية حتى الآن.

إن الموضوعات التي تطرق اليها خاني في ملحمته توضح لنا ان سبب تأخر المدنية الكردية هو افتقادهم إلى دولة كردية وتمزق ارضهم وتوزع وطنهم بين المحتلين كذلك انعدام الوحدة بينهم وتصارع القبائل والعشائر.

إن مضمون مموزين يشكل الموسوعة الشاملة لحياة الشعب الكردي، إنها ملحمة القومية الكردية فقد صور فيها حياة الشعب الكردي واحواله ومعتقداته وعاداته وتاريخه الثقافي باللغة الكردية كما تضمنت العديد من المواعظ والنصائح وأقوال القدماء وهذه جميعها تزيد من جمال الملحمة وذلك خلال القرنين السادس والسابع عشر ويمكن تقسيم المضمون إلى ثلاثة مواضيع رئيسية هي:

١ - العشق والحب الصادق.

٢ - الشجاعة والبطولة.

٣ ـ الروح القومية والوطنية العميقة.

لقد صور في ملحمته الحب اللامحدود والعميق والصداقة المتينة والأخوة السامية لأبطال ملحمته مثل قره تاج الدين ـ جكان ـ ستي ـ قم ـ زين ولذلك غدت اسماء أبطاله بين الشعب الكردي رموزاً وعلامات للحب العنيف الطاهر وان كل كردي رجلاً أو امرأة فتىً أو فتاة يجعلون ابطال ملحمة مموزين قدوة ورموزاً لأنفسهم وصداقاتهم وحبهم وتتمنى الفتاة الكردية ان تكون مثل ستي أوزين ويرغب الفتى الكردي ان يكون مثل قره تاج الدين وجكان وممو في مروءتهم وشهامتهم واخلاصهم ونستطيع ان نقول دون شك إن جميع الاكراد صغارهم وكبارهم يعرفون قصة مموزين أو(ممي آلان) ويحبونها فعندما يرويها القاصون أو ينشدها المغنون ينصتون اليها باسماعهم وقلوبهم إنهم يفتخرون بامتلاكهم ملحمة في هذا المستوى حيث ان خاني صوّر في ملحمته الظلم الواقع على الاكراد وتشتتهم وصراعاتهم الداخلية وآلامهم وأمانيهم كي يثير احاسيسهم ويدفعهم إلى توحيد القوى من أجل تحقيق الحرية.

يقول أحمد خاني انه كان قادراً على كتابة ملحمته بلغة تستطيع كل الشعوب قراءتها أي بالفارسية أو العربية لكنه فضّل كتابتها باللغة الكردية لكي لا يقال بأن الأكراد يفتقدون الثقافة اصلاً وليمنع الناس من ان ينفوا وجود كتب مؤلفة باللغة الكردية وليرفض الادعاء بان اللغة الكردية لا يكتب بها وعدم وجود مؤلفات وأدب كردي. ان تصريحه هذا يبرز نوعية الروح الوطنية عند الاكراد منذ القدم فهي روح تهدف إلى النمو والوصول إلى الأفضل بعيداً عن الحقد على الآخرين فهدفه هو اثبات الذات والوجود الكردي.

إن كل من سيقرأ هذه الملحمة سيدرك تماماً عظمة أحمد خاني وقيمته وأهميته في تاريخ أدب الشعب الكردي وستتعاقب قرون وسيبرز كثير من المثقفين والمفكرين في العالم ثم يرحلون ولكن مأثرة أحمد خاني لا تنسى ابداً لأن افكاره غدت افكاراً لعدد كبير من الشعراء الكرد الذين يسيرون على خطاه ويلتزمون مذهبه.

كوفان اسماعيل

وطن حر وشعب سعيد

هذه القصيدة يهديها الشاعر الجزائري عمر إلى شعبنا ومناضلي حزبنا:

شفت منام يارفاقي فحكيه إلْكُمْ
شفت حمامة بيضاء ريشها ناعم
جاتني مع طلوع الفجر وأنا نايم
تحوم على أرض خضراء ونخل وكرم
على خمس وخمسين وردة حمراء كالدم
وسعف وجريد أخضر الوعد احْكَمْ
منقارها الابيض حامل عُرْف مسكَم
عرف زيتون أخضر كامل أوراقه محكم
في كل ورقة رمز مجيد مكتوب بالدم
في ورقة لقيت اسم فهد عزيز الاسم
وسلام عادل يارفيقنا ما تحمل هم
لكلْ شهداءنا الابرار العهد نقدم
نحرر دهوك، اربيل بالحرب والسلم
بغداد، بابل، كردستان بلا ما نْقَسَّمْ

البصرة، الانبار، حلبجة — العراق تكرم
الشعب الشهم الحر — ما ينهزم
الحمامة قَرْبتْ لِيَّه — وانا نحلم
تفكرت أطفال ديار بكر — الأب والأم
اولاد ماردين وموش — وعلب السم
وعرق العامل والفلاح — اللّي اتَّهْضَمْ
الحبّ يارفاقي راح — الجو اتْقَتَمْ
الليل ظلام على الجفون — الفم تبكم
القلبْ يارفاقي — بالسخط العارم
بركان مهوَّلْ يارفاقي — بالنار اتْضَرّم
اتْفَكَّرتْ فهد الحبيب — الْعَقلْ اتْرسَّمْ
ما عندنا سلاح غير — حزب منظم
«طريق الشعب» باين — طريق مسگم
على اكتافُه الحزب حامل — آمال وهم
هم كبير، آمال أكبر — النصر محتم
يقود للنصر القريب — بكل تحكم
البشمركَة والانصار — مجِد الهمم
الفجر قرب يارفاقي — وأنا هايم
العرق تصبب يارفاقي — القلب تسقم
افطنت وانهضت مذعور — الجبين مقتم
افهمت: العراق والجزائر — من نفس الأم
شعار واحد فريد — مكتوب مَ الدم
وطن حر وشعب سعيد — يسحق الظلم

عمر

١٤ تموز ١٩٨٩



وثائق

تحية حزبنا إلى مؤتمر (حدك)

الرفاق الاعزاء في هيئة رئاسة المؤتمر العاشر للحزب الديمقراطي الكردستاني الحليف
الرفاق مندوبو المؤتمر . .

باسم أعضاء حزبنا وأنصاره تتوجه لجنتنا المركزية بالتحايا الكفاحية إلى المؤتمر العاشر لحزبكم، متمنية لاعماله النجاح، والتوصل إلى اتخاذ القرارات والتوصيات التي من شأنها ان تسهم في تعزيز مكانة حزبكم والحركة القومية الكردية وتحقيق أهداف شعبنا الكردي وعموم شعبنا العراقي في الديمقراطية للعراق والحكم الذاتي الحقيقي لكردستان .

ان انعقاد المؤتمر العاشر للحزب الديمقراطي الكردستاني، في هذه الظروف الدقيقة والخطيرة من تاريخ شعبنا، يعتبر حدثاً هاماً في حياة الشعب الكردي ونضاله في سبيل حقوقه القومية العادلة، وفي مسيرة شعبنا الوطنية والديمقراطية .

لقد ربطت بين حزبينا أواصر الكفاح المشترك المعمدة بالدم منذ عشرات السنين ولعل أسطع الامثلة على هذه الاواصر العميقة ما شهدته جبال كردستان الشماء من بطولات في مقارعة النظم الديكتاتورية الشوفينية المتعاقبة ومن تضحيات ومآثر قدمها ويقدمها منتسبو وأصدقاء حزبينا الحليفين ومن أطراف الحركة القومية التحريرية الكردية المناضلة، وكذلك تحالفنا في (جود) والجبهة الكردستانية العراقية .

ان شعبنا يعاني محنة كبرى بسبب النهج الذي يواصله النظام الدكتاتوري الشوفيني في الانتهاك الفظ لابسط حقوق الانسان، والحرب الشوفينية ضد الشعب الكردي واستخدام أسلحة الابادة الكيمياوية، وهدم آلاف القرى والقصبات وتهجير سكانها واخلاء كردستان بهدف تغيير طابعها القومي، هذا عدا عن استمرار التدمير الشامل في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، ومواصلة الدور التخريبي على الصعيد العربي كما هو الحال في لبنان حيث تدخل نظام صدام حسين السافر إلى جانب عون والقوى الانعزالية وتحول هذا النظام إلى بؤرة توتر في المنطقة .

اننا نعتقد بأن المخرج من هذه المحنة يمر عبر النضال من أجل تحويل وقف القتال إلى انهاء الحرب وتحقيق سلم دائم وعادل وطيد بين الدولتين الجارتين، العراق وايران، وازالة الاوضاع الاستثنائية وانهاء الحرب الشوفينية في كردستان واعادة الفلاحين الكرد إلى قراهم والسكان الآخرين إلى مدنهم وتعميرها وتعويضهم، وتحقيق الديمقراطية للشعب .

لقد خبر حزبكم المناضل بتجربته ارتباط القضية الكردية بقضية الديمقراطية في البلاد وان أي فصل بينهما يلحق الضرر الفادح لا بالحركة الديمقراطية العراقية حسب، وانما

بالحركة التحررية الكردية بالذات، ويضع العقبات أمام تعزيز الاخوة العربية الكردية، وتحقيق الحقوق القومية المشروعة للشعب الكردي.

ولابد من التأكيد في هذا الاطار على ضرورة استقلالية الحركة التحررية الكردية، واعتمادها على نفسها وتوحيد صفوفها، واقامة أوثق أواصر التحالف الكفاحي مع فصائل الحركة الوطنية الديمقراطية العراقية وحركة التحرر الوطني العربية في المنطقة ومواصلة العمل لكسب الرأي العام العربي والعالمي لصالح القضية العادلة لشعبنا الكردي.

وارتباطاً بذلك ينظر الشيوعيون العراقيون إلى الاهمية الخاصة التي تكتسبها مسألة تعزيز الجبهة الكردستانية العراقية، التي يشكل حزبكم الحليف طرفاً أساسياً فاعلا فيها وتنظيم اجتماعاتها وبعث الحيوية فيها وتنشيط دور قيادتها السياسية، وعملها من أجل اقامة أوسع تحالف ممكن للحركة الوطنية العراقية.

ان حجم المحنة التي يمر بها شعبنا الكردي وعموم شعبنا العراقي يلقي على عاتقنا وعلى عاتق سائر الاحزاب والقوى الوطنية وكل معارضي الدكتاتورية مسؤولية جسيمة لابد ان ننهض بها، موحدي الصفوف في سبيل انقاذ شعبنا من المأساة والخلاص من الحكم الدكتاتوري الشوفيني. ونحن على ثقة تامة بأن شعبنا العراقي بعربه وكرده وأقلياته القومية سوف يتجاوز النكسة العابرة التي ألمت به جراء وحشية النظام واستخدامه أسلحة الابادة الكيمياوية والارهاب الذي لا مثيل له بتعزيز تحالفنا وتحقيق الجبهة الوطنية الواسعة والنضال الدؤوب من أجل الديمقراطية.

واننا اذ نؤكد ثقتنا بانتصار قضية شعبنا الكردي وعموم شعبنا العراقي، وعزمنا على العمل المشترك في سبيل اهدافنا السامية المشتركة، نجدد تمنياتنا الصادقة بنجاح مؤتمركم.

ليعش المؤتمر العاشر للحزب الديمقراطي الكردستاني الحليف.

لتتعزز الاخوة العربية الكردية في النضال من أجل تحقيق الديمقراطية للعراق والحكم الذاتي الحقيقي لكردستان.

اللجنة المركزية
للحزب الشيوعي العراقي

٨ اذار



امومة / عفيفة لعيبي



السعر دينار ونصف